الأشياء تتداعى

"رواية إفريقية"

تأليف : شينوا أتشيبى

ترجمة وتقديم : د. أنجيل بطرس سمعان

الأشياء تتداعى

"رواية إفريقية"

تأليف : شينوا أتشيبي

ترجمة وتقديم : د. أنجيل بطرس سمعان

مراجعة : مرسي سعد الدين

الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر

١٩٧١

هذه هى الترجمة العربية لكتاب :

THINGS FALL APART

By

Chinua Achebe

Heilnemann, 1958 (African Writers' Series)

الأشياء تتداعى

يدور ويدور فى الحلزون الذى يزداد اتســاعا
ولا يستطيع الصقر أن يسمع صاحبه ،

الأشياء تتداعى ، لا يستطيع الوسط أن يظل متماسكا ،

فك عقال الفوضى الشاملة على العالم ٠

و ٠ ب ٠ ييتس ((المجىء الثانى))

مقدمة *

يثير الأدب الافريقى اهتماما كبيرا فى جميع أنحاء العالم الآن . ففى انجلترا وفرنسا مثلا أخذت الكتابات الافريقية تتوالى ، الواحدة تلو الأخرى منذ منتصف الأربيعينات تقريبا وزادت خصوبة الانتاج الافريقى حتى لا يكاد يمضى شهر دون أن يقدم « الملحق الأدبى للتايمز » عددا من الأعمال الافريقية من روايات وقصص قصيرة ومجموعات من القصائد الشعرية المختارة . وانتقل الاهتمام بالأدب الافريقى الحديث الى أمريكا وروسيا أيضا فأخذت الأولى فى اصدار سلسلات للأدب الافريقى بينما أخذت الثانية فى ترجمة بعض عيون هذا الأدب الى اللغة الروسية .

وقد بدأ هذا الاهتمام بالأدب الافريقى ينتقل الى العالم العربى . ولكن بالرغم من اهتمامنا بالشئون الافريقية بوجه عام

---

* نشرت بعض أجزاء هذه المقدمة فى مقال عن « الادب الافريقى المعاصر » مجلة الفكر المعاصر (القاهرة ٢ ديسمبر ١٩٧٠) .

فان الأدب الافريقى لم يحظ منا الى الآن الا ببضع مقالات متفرقة فى المجلات الأدبية أو الجرائد ، ولم تظهر الا بضع ترجمات قليلة لعدد من القصائد أو القصص القصيرة . وتعد هذه الترجمة التى نتقدم بها لاحدى عيون الأدب الروائى الافريقى الحديث من أوائل هذه الترجمات التى نرجو أن تتبعها غيرها .

ينقسم الأدب الافريقى الحديث من حيث اللغة التى يكتب بها الى قسمين كبيرين : قسم مكتوب باللغات المحلية المتعددة وقسم مكتوب باللغات الأوربية الحديثة وأهمها الفرنسية والانجليزية ثم البرتغالية والأسبانية . أما القسم الأول فيصل الى العالم الخارجى عن طريق الترجمة الى احدى اللغات العالمية مثل الانجليزية أو الفرنسية . ولكن معظم هذه الترجمات لا تفى بالغرض وتتعرض لكثير من النقد لقصورها عن نقل العمل الأدبى سواء كان قصيدة شعرية أو قصة قصيرة أو رواية بكل ما يتسم به من جمال وفن . ولعل السبب فى ذلك هو صعوبة الترجمة من هذه اللغات المحلية التى تختلف اختلافا جذريا عن اللغات التى يترجم اليها واعتماد بعض هذه اللغات فى كثير من الأحيان على موسيقى الألفاظ ورنينها وعلى التركيبات اللغوية الخاصة التى تنقل معانى معينة والتى يصعب نقلها دون أن تفقد الكثير من قيمتها اللغوية والفنية .

وقد يكون أيضا السبب فى سوء هذه الترجمات هو اما أن

الكتابات الجيدة حقا والمكتوبة بهذه اللغات المحلية قليلة واما أنه لم يكتشف منها بعد ما يستحق الترجمة .

أما القسم المكتوب باللغات الأوربية والذى ينشر اما فى هذه البلاد الأوربية واما فى افريقيا ذاتها فهو الى الآن القسم الذى يسترعى الانتباه والدراسة . وقد كان الأدباء الافريقيون الذين يكتبون بالفرنسية أو بالأحرى الشعراء منهم هم الرواد الأول الذين استوقفوا أنظار العالم بنشاطهم الابداعى الذى ظهر بغتة وبشكل ملفت . ثم تبعهم كتاب الانجليزية فى غرب افريقيا وخاصة فى نيجيريا ، وقد برزوا أولا فى مجال الرواية والقصة القصيرة والسيرة الذاتية ، ثم بدأ لهم نشاط ملحوظ فى ميدان الشعر فى الحقبة التالية لهذه الصحوة الأدبية النادرة . ويكتب بالفرنسية أولئك الكتاب الذين نشأوا فى مناطق كانت تحت النفوذ الفرنسى وما زالت اللغة الفرنسية فيها اللغة الرسمية ولغة التعليم ، وكذلك الأمر بالنسبة للغة الانجليزية . فقد كان الكميرون الفرنسى سابقا أو جمهورية الكميرون مثلا فى أوائل الخمسينات احدى مراكز هذا النشاط الأدبى الرائع كما كانت نيجيريا وما زالت من أغنى المناطق الافريقية بالأدباء الذين يكتبون بالانجليزية .

ومن المعروف أن الطلقات الأولى فى مجال خلق أدب افريقى حديث كما يقول أحد النقاد قد أطلقها كتاب ليسوا بافريقيين ،

بل كتاب سود من منطقة البحر الكاريبى ، ولعل أعلاها وأهمها كانت صيحة « ايميه سيزار » التى أطلقها فى مجلة فرنسية نشرت له : « مذكرات عائد الى وطنه » : *Cahier d'un Retour au Pays Natal* فى سنة ١٩٣٩ . وقد وجدت هذه المذكرات لها قراء فى السنوات القليلة التالية وكانت بداية حركة أدبية جديدة بين الزنوج المتحدثين بالفرنسية عرفت فيما بعد « بالزنجية » وليس هنا مجال الخوض فى كنه هذه الحركة ومظاهرها . ولكن نظرا لأهميتها الكبيرة بالنسبة لكثير من الكتابات الافريقية الفرنسية فسنشير الى بعض جوانبها باختصار .

بدأت هذه الحركة فى كوبا ١٩٢٧ بين السود من سكان تلك البلاد . وهى فى جوهرها حركة لاثبات الذات الزنجية وثورة على المحاولات الأوربية لامتصاص العناصر الجيدة من أبناء الشعوب الزنجية الأصل داخل الحضارة الأوربية ، حدث بالشعراء الافريقيين الى تأكيد زنجيتهم والتفاخر بلونهم وبأصلهم الافريقى والى احياء التراث الافريقى ودعم الشعور باختلاف الافريقى واستقلاله ، وتبع ذلك بالضرورة ثورة على الاستعمار الأوربى ومحاولته طمس معالم الحضارة الافريقية العريقة وسلب الافريقى حقه فى الاستقلال والحرية واستنزاف دماء القارة السوداء وأبنائها .

والجدير بالذكر أن هذا الجيل الجديد من الكتاب قد وجد

استعدادا فى شعوب أوربا لسماعه والانصات اليه وقد بهرتهم هذه الفورة من الحماس والابداع .

ويذهب البعض الى القول بأن ذلك كان مظهرا من مظاهر اهتمام أوربا فى ذلك الوقت بافريقيا وكل ما هو افريقى كرد فعل طبيعى فى الغرب لمآسى الحرب العالمية الأولى ووحشيتها .

وكان من مشجعى هذه الحركة فى كوبا الأسبانية فى الفترة بين ١٩٢٧ــ١٩٣٠ مجلة *Revista de Avance*. وسرعان ما بدأت حركة مماثلة بعض الشىء فى هايتى الفرنسية .

ثم نشر الشاعر الافريقى السنغالى «ليوبولد سيدار سنجور» قصيدة « الرسالة » وفى نفس الوقت اجتذبت « المجلة الوطنيه » *La Revue Indigène* فى هايتى جماعة من كتاب هايتى الشبان ووجهت اهتمام الفنانين والكتاب ورجال الفكر هناك الى اكتشاف وتمجيد كل ما هو افريقى فى تراثهم .

وهكذا جعل كل هؤلاء الكتاب الذين يستخدمون الأسبانية والفرنسية فكرة افريقيا فكرة مركزية فى أعمالهم ، بالرغم من أن افريقيا بالنسبة لهم كانت « حالة نفسية أكثر منها حقيقة جغرافية أو سياسية » .

أما نظرتهم لأفريقيا فكانت تختلف كثيرا من جماعة الى اخرى . فقد كانت تعنى بالنسبة للبعض ــ العصر الذهبى الذى

سبق تجارة الرقيق وهتك أوربا البيضاء لعرض القارة الافريقية. وللبعض الآخر كانت افريقيا تمثل نهاية مهانتهم وآلامهم الحاضرة . ودولة المستقبل التى تتحقق فيها أخيرا آمال أبنائها ، وبالنسبة لفريق ثالث كانت تمثل نوعا من الفردوس الزنجى يسافر اليه عند الموت جميع الملونين ويجدون الأخوة والراحة الأبدية .

فاذا حاولنا دراسة الشعر الكاريبى من قرب وجدنا أن هذا الشعر يكتبه قوم يعيشون بعيدا عن وطنهم الطبيعى أفريقيا ، فهم مع احساسهم بافريقيتهم الا أنهم يحسون أنهم منفيون مبعدون عن أرضهم وأرض أجدادهم ، ولذا يطلق على هذا الشعر « شعر المنفى » وهو بالطبيعة يختلف عن الشعر الافريقى الذى يكتبه قوم ولدوا فى افريقية وقضوا بها حياتهم باستثناء فترات قصيرة يقضونها للتعليم فى أوربا ، كما يتضح عند دراسة الشعر الزنجى الافريقى . ولعل خير من يمثل الشعر الزنجى الكاريبى هو الشاعر « ايميه سيزار » . فشعره يجمع كل خواص الكتابة الكاريبية ويمزجها فى فكرة واحدة هى فكرة الزنجية . ومن خواص هذا الشعر تأكيده للنواحى الحسية الجنسية ، وموسيقاه الواضحة القوية واهتمامه بابراز التضاد بين هذه الصفات التى تمثل افريقيا وبين برود أوربا وعقلانيتها المجردة . وهو لا ينكر بدائية الشعوب السوداء ولا يخجل منها

بل على العكس من ذلك يجد نشوة كبيرة فى تمجيدها والتفاخر بها . معلنا أنها الدواء الذى يمكن أن يقدمه الزنجى وحده لعالم مريض غارق فى الاهتمام بالآلة والمادة وأعمال العقل وحده فى شئون الحياة .

وقد ولد «سيزار» فى مرتينيك سنة ١٩١٣ وذهب الى باريس وهو فى الثامنة عشر من عمره ليدرس فى « الاكول نورمال » ، وهناك التقى بطالب من السنغال يصغره بسبع سنوات هو « ليوبولد سيزار سنجور » كما التقى الاثنان هناك بطالب ثالث من غيانا الفرنسية هو ليون تاماس وهو أول افريقى يقتحم الأدب الفرنسى بقصائده الملتهبة . ويعد هذا اللقاء نقطة البداية لأدب غرب أفريقيا الفرنسى ، بالرغم من أنه لم يبدأ أى منهما كتابة الشعر الا بعد ذلك بعدة سنوات .

وعند بداية الحرب العالمية الثانية توالت عدة أحداث معلنة عن صحوة شعور جديد بالتضامن والهدف المشترك بين الكتاب الملونين فى جميع أنحاء الامبراطورية الفرنسية من مدغشقر الى مرتينيك وتوالى ظهور الكتابات الافريقية . فبالرغم من أن سنجور كان يكتب الشعر منذ ١٩٣٨ الا أنه لم يتمكن من نشر أول مجموعة شعرية له الا فى ١٩٤٥ تحت عنوان : « أغنيات الظل » . *Chants d'Ombre* وفى ١٩٤٦ ظهرت مجموعة أخرى لسيزار تحت عنوان *Les Armes Miraculeuses* « سواعد

المعجزات » وأعيد نشر « المذكرات » بالفرنسية والانجليزية فى ١٩٤٧ . وفى نوفمبر من نفس العام ظهر أول عدد من مجلة « الوجود الافريقى » . الهامة . ثم ظهر لسنجور مجموعة « المنتخب الجديد من الشعر الزنجى والملجاشى » تتصدرها مقدمة طويلة لچان بول سارتر فى ١٩٤٨ . وتعد هذه المجموعة الشعرية أهم عمل فردى فى الحركة بأجمعها . وان دلت على شىء فقد دلت على تباين هذه القصائد وتعدد وجوهها واتساع مداها . ويمكن القول بأنه منذ ١٩٤٨ قامت فكرة الزنجية على سواحل غينيا الافريقية كما قامت على الجانب الآخر من الأطلنطى . وفى حماس تلك الأوقات لم يلحظ أحد بعض التناقضات الأساسية بين وجهات النظر الكاريبية والافريقية .

أما فى الجزء المتحدث بالانجليزية من غرب أفريقيا فلم يكن لهذه الأحداث أثر يذكر . ولعل ذلك يرجع الى عدم اهتمام المجتمع فى غرب افريقيا بمسائل الفن والأدب من ناحية والى أن الشعراء ورجال السياسة فى الامبراطورية الفرنسية (من أمثال سنجور وداماس وسيزار) كانوا جميعا أعضاء فى الجمعية الوطنية الفرنسية وقادة للحركة الوطنية فى بلادهم مما لا نظير له فى مناطق النفوذ البريطانى من ناحية أخرى .

ولعل السبب أيضا هو حاجز اللغة اذ لم يكن يعرف الفرنسية من سكان نيجيريا أو غانا أو سيراليون الا القليلون .

ويرى النقاد أسبابا كثيرة لعدم تأثر أدب غرب أفريقيا بفكرة الزنجية الا قليلا أهمها أن الاتجاه الواقعي والتأملي الذى يظهر فى أدب غرب افريقيا بعيد كل البعد عن الاتجـاه الرومانسى البلاغي الواضح فى الشعر الزنجي . ويرى البعض الآخـر أنه نتيجة لتأثرهم بالاتجاه الانجليزى الواقعي . ولعل أهم الأسباب جميعا هو الروح الاستقلالية الواضحة فى أعمـال أدباء غرب أفريقيا أو أدباء نيجيريا بالذات مثل عاموس توتيولا وشـينوا أتشيبى وسبريان اكوينسى .

فاذا بحثنا عن أثر خارجي فيمكن القول بأنهم — أو الأخير منهم على وجه التحديد — قد تأثروا بالأدباء الزنوج الأمريكيين أو أدباء جزر الهند الغربيـة الذين يكتبون بالانجليزية مثـل ريتشـارد رايت ، وكونتى كولين ، ولانجستون هيوز وكلود ماكاى أكثر من تأثرهم بأدب الزنجية ، فبالرغم من وجود فكرة المنفى وتمجيد افريقيـا هنا ، الا أن النبرة هنا هـادئة حالمة ، وتختلف تمام الاختلاف عن النبرة الحماسية لأدباء كوبا .

فالى جانب اختلاف موقف الافريقيين فى افريقيا من موقف اخوانهم فى المنفى فاننا نجد فى كتابات أدباء غرب افريقيا الذين يكتبون بالانجليزية ميلا واضحا لتصوير الواقع بموضـوعية وبصيرة نافذة كما يفعـل شـينوا أتشيبى فى روايته الثانيـة *No longer at Ease* « لقد مضى عهد الراحة » وتبدو هـذه

الواقعية أيضا فى بعض كتابات الشبان من كتاب الجزء الفرنسى من افريقيا مثـــل فرديناند أوبوتو ومونجو بتى . كذلك فان الشعراء الشبان فى نيجيريا وغانا مثل وولى سوينكا قد تأثروا ببعض الشعراء الانجليز المعاصرين ولكن الشعر الذى يكتبونه شعر مبتكر تماما يهتم أكثر ما يهتم باللحظات والأماكن المعينة وليس بالتعميمات عن الجنس الأبيض أو الموقف الثقافى أو موت الاستعمار . اذ يهتم هذا الشعر أولا وقبل كل شىء بالتجارب الشخصية العميقة بعكس الشـــعر الفرنسى الذى يميـــل الى التعميم .

ولعل أهم ما يميز الجيد من الأدب الافريقى الحديث أن له شخصيته الخاصة واهتماماته الخاصة ، هذا بالاضافة الى تلك الصفات التى تجعل منه أدبا عالميا يستمتع به الافريقى وغـــير الافريقى . ومن المواضيع الهامة التى يعالجها الأدب الافريقى فكرة غزو الحضارة الأوربية للحيـــاة الافريقية وقضائها فى كثير من الأماكن على نوع متميز من الحياة له تقاليده ومعتقداته ، وقد تكون له مساوئه ولكن له محاسنه أيضا وقيمه ، التى لم يكن الأوربى المستعمر بقادر على فهمها واستيعابها لأنه كان ينظر الى القارة السوداء نظرة ضيقة خاطئة . ومنها أيضا التأرجح بين القديم والجديد وبين ما هو افريقى بحت وما هو أوربى ، ثم الشعور بالضياع الذى يقاسى منه بعض من لا يتيسر لهم التأقلم

واختيار طريق يرضى نزوعهم الى الاحتفاظ بافريقيتهم مع الافادة بما قد تتيحه لهم الحضارة الأوربية من فرص للتقـدم . ومنها أيضا بحث الافريقى عن مكانه الحقيقى فى هذا العالم الغريب . ومنها وضع الافريقى المثقف وسط أهله وشعوره بالغربة بينهم. أضف الى ذلك تصوير ذلك العالم الافريقى المجهول للكثيرين تصويرا فنيا واضحا ، ووضعه على الخريطة الأدبية قبـل أن يختفى نهائيا أمام زحف الحضارة الأوربية .

فالأدب الافريقى اذن أدب انسانى يصور الواقع من ناحية والماضى من ناحية أخرى ولكنه فى كلتا الحالتين يرنو الى مستقبل أكثر استقرارا وشـعورا بالأمن والانتماء الى أرض حبيبـة وحضارة عريقة باقية .

أما الأسماء التى لمعت فى سماء الأدب الأفريقى الحديث ، فمن أهمها فى مجال الشـعر ليوبولد سيزار سنجور وهو من أوائل من عملوا بكل ما أوتوا من ذكاء وحب للاستطلاع وقدرة لغوية ومعرفة بالأدب على اكتشاف حقيقة الافريقى « واعطاء الأجناس السوداء لسـنا » ، وديفيد ديوب الذى قتـل فى حادث طائرة ولم يتجاوز الثالثة والثـلاثين من العمر ، ولكنه كان قد أظهر نبوغا فذا فى حياته القصيرة وكان يرجى له مستقبل زاهر . وقد ولد ديوب لأب سنغالى وأم من الكميرون ولكنه

ولد وقضى معظم طفولته فى فرنسا . وكان دائم الشعور بالضغط والتهديد وقسوة الاستعمار .

أما كامارا لى من غيانا العليا فقد شهد الحياة الافريقية التى يسودها شعور بالكرامة والقيم الانسانية فى اقليم كوروسا الذى لم تقو فيه قط شوكة الاستعمار بالشكل المعهود . فاذا ما كان ديوب يمثـــل الافريقى الذى يعيش بعيـــدا عن افريقيـــا فان كامارا لى يمثـــــل الافريقى الذى يعيش فى قلب افريقيـــــا ويصورها تصويرا رائعا فى سيرته الذاتية « الطفل الأســـود » (١٩٥٤) . وبينما يشعر ديوب بالضغط والتهديد وقسوة أوربا لا تكاد فكرة الاســـتعمار تسترعى انتبـــاه كامارا لى ، وتكاد كاروسا أن تكون بالنسبة له بلدا مستقلا . وبالرغم ممـــا قد يقال عن المثالية التى يضفيها الكاتب على مثل هذه الصور الا أن تصوير لى لأفريقيا يمتاز بصدق التصوير وبالعاطفة .

ويعـــد كامارا لى ، من أهـــم كتاب الرواية ممن يكتبون بالفرنسية وأهم أعماله : « هيئة الملك » *Le Regard de Roi* (١٩٥٥) « عيون التماثيل » (١٩٥٩) وأخيرا « دراموس » *Dramouss* (١٩٦٧) .

وهناك أيضـــــا مونجو بتى وفردينان أوبوتو . أما الأول فيعد موهبة فذة ، وقد أبدى نضجا سريعا فى سنوات قليلة .

فنشر ثلاث روايات ولم يجاوز السادسة والعشرين من العمر ، هى «المدينة القاسية » (١٩٥٤) ، « يسوع بومبا المسكين » (١٩٥٦) ثم « المهمة المنتهية » (١٩٥٧) .

أما فى افريقيا المتحدثة بالانجليزية فقد برز من كتاب نيجيريا عاموس توتوالا ، وسبريان اكوينسى ، وشينوا أتشيبى من الروائيين ، وبرز من الشعراء لى سونيكا الذى استهوته الرواية أيضا فكتب « المترجمون » : « *The Interpreters* » (١٩٦٧) ومن الروائيين الشبان كلمنت أجونوا النيجيرى مؤلف « أكثر من مرة » : *More than Once* (١٩٦٧) و ت . م . ألوكو من كينيا وكتب «قريب ورئيس عمال»: ***Kinsyman and Foreman*** (١٩٦٧) وجيمس انجوجى الكينى أيضا وكتب « حبة قمح » *A Grain of Wheat* (١٩٦٧) .

ولعل الرواية التى تقوم أساسا كنوع أدبى على تصوير الحياة الانسانية من خلال تصويرها الواقعى للتجارب الفردية المعينة أكثر الأنواع الأدبية ملاءمة لتصوير الواقع الافريقى ، ولعل هذا هو السبب فى ايثار كتاب الانجليزية لها ، وبالتالى لنجاح عدد كبير منهم على المستوى العالمى .

ومهما يكن من أمر فان هذه الأعمال الروائية الافريقية جميعا تمتاز الى جانب مميزاتها الفردية بروح الفكاهة والصور الحية والقدرة على الخلق الابتكار .

ويعد توتوالا أول كاتب نيجيرى يحقق شهرة واسعة وهو صاحب موهبة فريدة دون شك . وأهم أعماله « شريب خمر النخيل » (١٩٥٢) ثم « حياتى فى غابة الأشباح » (١٩٥٤) ثم « سمبى واله الغابة السوداء » (١٩٥٥) « والصيادون الأفريقيون الشجعان » (١٩٥٨) . ومما يستحق الذكر أن توتوالا لم يتلق تعليما يذكر اذ توقفت دراسته بعد الفصل الخامس الابتدائى . ولكنه تمكن بما أوتى من مقدرة وثقة بالنفس من أن يصبح أول روائى نيجيرى يعترف به دوليا . ولا تقتصر كتاباته على تصوير الواقع الافريقى بل تستخدم هذا الواقع استخداما رمزيا أيضا بحيث يمكن قراءة أعماله على عدة مستويات والخروج منها برؤى غنية مختلفة عن الحياة الانسانية. ولذا يميل بعض النقاد الى اعتبار توتوالا صاحب رؤيا وكاتب ملحمى أكثر منه مجرد روائى .

أما شينوا أتشيبى فقد حازت أولى رواياته «الأشياء تتداعى» نجاحا كبيرا عند نشرها فى سنة ١٩٥٨ واستقبلت استقبالا حارا فى أوربا وأمريكا ، وتعد الآن من روائع الأعمال الأدبية الافريقية التى يعترف الجميع بأصالتها وجمالها . ثم تبعتها « لقد مضى عهد الراحة » *No longer at Ease* (١٩٦٠) ثم « سهم الله » *The Arrow of God* (١٩٦٥) « ثم أخيرا رجل من الشعب » *A Man of the People*

وتحكى « الأشياء تتداعى » قصة مأساة أوكونكو أحد أقطاب قبيلة « آوبى » فى الفترة التى بدأ الرجل الأبيض يظهر فيها على مسرح الأحداث الافريقية ويتوغل فى القرى الداخلية . ويصور أتشيبى فى أسلوب ممتع سلسلة الأحداث التى يعيشها أوكونكو منذ نشأته الأولى وجهاده وعمله المتصل ليصل الى مركز ممتاز فى القبيلة ثم سقوطه نتيجة لكبريائه واندفاعه وتمسكه ببعض القيم الخاطئة وخوفه من أن يتهم بالجبن أو الضعف أو التردد ـــ وهى صفات كان يتصف بها والده الفاشل ـــ مما يدعوه الى الشطط واساءة التصرف . ويغضب الهة الأرض بسفك دم برىء فينفى من أرضه وعشيرته عقابا له ، وما يكاد يعود بعد انتهاء فترة نفيه حتى يرتكب حماقة أخرى بقتل أحد رجال الأمن التابعين لقوة الرجل الأبيض ويضطر الى اقتراف عمل مشين هو الانتحار خشية العقاب ، بل وربما نتيجة ليأسه من أن يظهر رجال قبيلته الشجاعة والقوة التى عهدهما فيهم .

وينجح المؤلف نجاحا كبيرا فى تصوير شخصية أوكونكو من جميع نواحيها فهو المصارع البطل والمحارب الشجاع والصديق المخلص والزوج العادل والأب العطوف بالرغم مما يبديه دائما من الشدة والقسوة لأبنائه وزوجاته . ولكن من الخطأ أن نتصور أن مأساة أوكونكو كفرد هى الموضوع الرئيسى للرواية

اذ أن ما يرمى اليه أتشيبى هو تصوير نوع بأكمله من الحياة يمثل أوكونكو بعض نواحيه . ولعل من دواعى نجاح المؤلف أنه خلق شخصية حية لفرد متميز كما نجح فى خلق صورة تنبض بالحياة لعشيرة بل لقرية افريقية بأكملها بمـا لها من معتقدات وعادات وروابط قوية ، تربط أفراد القبيلة ببعضهم وبآلهتهم وأسلافهم والأرض التى يعيشون فيها . اذ يقدم صورا حية لبعض الاحتفالات القبلية والعائلية من اجتماعات رياضية ومعارك كثيرا ما تنتهى بالولائم التى تجمع بين القبيلتين المتحـاربتين ومراسيم زواج ومراسيم جنائزية واحتفالات الأسلاف وغيرها .

واذا كان أتشيبى يرمى الى تصوير تلك الحيـاة التى تكاد تختفى كلية أمام الغزو الأبيض للقارة الأفريقية فانه يرمى أيضا الى تصوير أثر هذا الغزو فى حياة سكان تلك القرية الآمنة ، وما يسببه من فرقة بين أهلها ومن قلق وشك وبلبلة فى أذهان أبنائها عندما يرون معتقداتهم وطرق معيشتهم التى ورثوها جيلا بعد جيل ، وقد ضرب الرجل الأبيض بها عرض الحائط دون أن يمسه سوء أو يصيبه أذى ، وشعور بالضعف والمهانة عنـدما يقفون مكتوفى الأيدى أمام ذلك الخطر الداهم الذى سـلب قوتهم ، وفرق بينهم فتداعت الأشياء من حولهم .

ومن أهم الصفات التى تكسب هذه الصورة قوة وتعبيرا تلك الموضوعية وعدم التحيز التى يلتزم بها أتشيبى من بداية

الرواية الى نهايتها . اذ كثيرا ما يتساءل القارىء ترى ما الموقف الذى يتخذه المؤلف من كل هذه الأحداث ؟ وهذا يعنى بالطبع أن الصورة وحدها هى التى تتحدث الى القارىء وتنقل اليه ما فى نفس الكاتب من معان وأحاسيس وتبصر القارىء بما فى هذه الحياة من قسوة وقيم خاطئة ومن بساطة وجمال وشاعرية تتجلى كما يقول أتشيبى نفسه فى حديث صحفى « فى الطريقة الجماعية التى يشارك بها الجميع فى لحظات السعادة والحزن والعمل ، وفيما لها من فن وموسيقى ».

ولعل المؤلف يقول كلمته باتنقائه اللحظات المفعمة بالمعنى التى يصـــورها ، مثـــل تلك اللحظات التى تصـــور أوكونكو المصارع الشجاع وما تتركه شجاعته وفنه من أثر فى قلب ملكة جمال القرية التى لا تستطيع أن تتزوجه لفقره ولكنها لاتستطيع أن تقاوم حبه فتهجر زوجها وتلقى نفسها بين يديه .

ثم تلك اللحظة التى يسيطر فيها القلق على أوكونكو بالرغم ممـــا يبديه من رجولة وشـــجاعة عندما تصطحب كاهنة الهة . الكهوف والجبال ابنته التى يحبها أكثر من غيرها من أبنائه فى ظلمة الليـــل الى هيكل تلك الالهـــة . ثم حبـــه لذلك الصبى ايكيميفـــونا الذى تقضى القبيلة بقتله فلا يتردد أوكونكـــو فى القضــــاء عليـــه ولكنه يقضى الليلة تلو الأخـــرى ســـاهدا معذبا لا يذوق للراحة طعما . ثم اوكونكو فى المنفى وهو يخطط

لعودته ويسأل ابنته الجميلة ايزنما ألا تقبل الزواج حتى تعود الى وطنها ، عالما قيمة جمال ابنته فى جذب الخطاب ولفت الأنظار الى عودته ، ثم أخيرا تلك اللحظة المفعمة بالحزن والرقة والقوة التى يرجو فيها صديق أوكونكو الحميم رجال الأمن أن ينزلوا جثة أوكونكو من الشجرة التى علق نفسه منها وأن يساعدوهم على دفنه حتى يتسنى لهم أن يقيموا له ما يجب من شعائر ، وسورة غضبه لمصير صديقه وأحد أقطاب عشيرته ثم تغلب حزنه على غضبه وصمته قبل أن يتم كلمته . ولعل أبلغ تعليق على هذه المأساة بل على موقف الرجل الأبيض من تلك المأساة هو مايقرره حاكم المنطقة الأبيض من أنه سيخصص فقرة بأكملها لمصير ذلك الرجل فى الكتاب الذى ينوى كتابته عن « توطيد السلام بين قبائل النيجر الأسفل البدائية » .

تلك اذن لمحة سريعة لما يحققه شينوا أتشيبى فى روايته « الأشياء تتداعى » . فبالرغم من بساطة التكنيك وبساطة الأسلوب فانها تتسم دون شك بالجمال والقوة وتجمع بين الجدة والأصالة ، شأنها فى ذلك شأن خير ما أنتجه الافريقيون من أدب حديث .

انجيل بطرس سمعان

كلية الآداب ــ جامعة القاهرة

الجزء الأول

الفصــــل الأول

كان أوكونكو معروفا جدا فى القرى التسع وفيما وراءها .. قامت شهرته على ما حققه من أعمال شخصية ملموسة . فقد شرف قريته عندما انتصر على أمالينز « القط » ، وهو شاب فى الثامنة عشرة من عمره . وأمالينز هو المصارع الكبير الذى لم يتغلب عليه أحد طوال سبع سنوات من أوموفيا الى أمبينو . وسمى « القط » لأن ظهره لم يكن ليلمس الأرض قط . كان ذلك هو الرجل الذى هزمه أوكونكو فى مصارعة اعترف الرجل العجوز انها كانت أشد وحشية من أية مصارعة شهدها منذ التحم مؤسسى مدينتهم مع روح برية لمدة سبعة أيام وسبع ليال .

قرعت الطبول وغنت المزامير وحبس المشاهدون أنفاسهم . كان أمالينز فنانا محنكا ولكن أوكونكو كان مراوغا كالسمكة فى الماء . برز كل عصب وكل عضلة على سواعدهما وظهريهما وأفخاذهما ، حتى كاد المرء يسمعها وقد شدت لدرجة التمزق . وفى النهاية ألقى أوكونكو « بالقط » أرضا .

حدث هذا منذ سنوات عديدة ، منذ عشرين سنة أو يزيد ، وأثناء ذلك سرت شهرة أوكونكو كالنار فى الهشيم . كان طويل القامة ، ضخما ، أكسبه حاجباه الكثيفان وأنفه العريض مظهرا شديد الصرامة . كان يتنفس بصعوبة ومما يقال انه عندما ينام، تستطيع زوجاته وأطفاله سماع تنفسه فى منازلهم الخارجية . وعندما يمشى لا يكاد كعباه يلمسان الأرض فيبدو وكأنه يسير على زنبرك أو كأنه سينقض على شخص ما . وكثيرا ما كان ينقض بالفعل على الناس . كان يعانى من تأتأة خفيفة وكلما غضب واستعصى عليه النطق بالكلمات بسرعة كافية استخدم قبضة يده . كان يضيق ذرعا بالفاشلين . وقد ضاق ذرعا بوالده .

أما أونوكا — وذلك اسم والده — فقد توفى منذ عشر سنوات . وفى حياته كان كسولا مسرفا لا يمكنه أن يعمل للغد أى حساب . فاذا أصاب شيئا من المال ، وقلما حدث ذلك ، فسرعان ما كان يشترى قرعات من خمر النخيل ويدعو جيرانه للهو والمرح . كان لا يكف عن القول بأنه كلما رأى فم رجل ميت أحس حماقة الامتناع عن أكل ما يجده المرء فى حياته . كان أونوكا بالطبع مدينا ، يدين لكل جار بمبلغ من المال يتفاوت بين بضعة كوريات (١) وبين مبالغ ضخمة من المال .

---

(١) الكورى : عملة صغيرة تساوى عشر البنس الانجليزى اى حوالى نصف المليم المصرى

(المترجمة)

كان طويل القامة ولكنه كان نحيلا جدا منحنيا بعض الشيء . يبدو متعبا مكتئبا الا عندما يشرب الخمر أو ينفخ فى المزمار . كان يعزف على المزمار بمهارة كبيرة ، وأسعد لحظاته القمران أو الأقمار الثلاثة التالية للحصاد عندما ينزل موسيقيو القرية آلاتهم من أعلى المدفأة ، فيعزف أونوكا ووجهه يشع غبطة وسلاما . وأحيانا تدعو قرية أخرى فرقة أونوكا ومن يصحبها من الراقصين ذوى الأقنعة التقليدية ، للذهاب والاقامة معهم وتلقينهم ألحانهم . فيذهبون ليقضوا مع هؤلاء المضيفين مدة قد تمتد الى أربعة أو خمسة أسواق يعزفون الموسيقى ويستمتعون بالولائم . كان أونوكا شغوفا بالمأكل الجيد والصحبة الطيبة ، يحب هذا الفصل من العام ، عندما تنقطع الأمطار وتشرق الشمس كل صباح بجمال أخاذ ، دون أن تشتد حرارة الجو لأن رياح الهرماتان الباردة الجافة تهب جنوبا من الشمال . أما فى بعض السنوات التى تشتد فيها حدة الهرماتان ويعلق بالجو ضباب كثيف ، فيجلس المسنون والأطفال حول النار التى يوقدونها بقطع الخشب ، يدفئون أجسامهم . أحب أونوكا كل هذا ، وأحب أول حدأة تعود مع فصل الجفاف كما أحب الأطفال الذين يغنون الأغانى لاستقبالها . كان يتذكر طفولته هو وكيف كان يتجول باحثا عن حدأة عنان السماء الزرقاء بتمهل وأناة . وحالما

يجد واحدة يغنى بكل كيانه مرحبا بعودتها من رحلتها الطويلة ، سائلا اياها ان كانت قد أحضرت معها أطوالا من القماش .

كان ذلك منذ سنوات مضت ، عندما كان صغيرا . أما أونوكا البالغ فقد كان فاشلا . كان فقيرا لا يكاد يجد لزوجته وأطفاله ما يسدون به رمقهم . كان الناس يضحكون منه لأنه متسكع مضيع للوقت ، ويقسمون ألا يقرضـوه أى مبلغ من المال قط لأنه لا يرد ما يقترضه أبدا . ولكن أونوكا كان من ذلك النوع من الرجال الذى يفلح دائما فى اقتراض مبالغ أخرى يزيد بها ديونه المتراكمة .

وذات يوم حضر جار يسمى أوكوى لزيارته . كان فى كوخه ينفخ مزماره وقد اتكأ على سرير من الطين . وقف على الفور ليصافح أوكوى الذى بسط جلد الماعز ، الذى يحمله تحت ابطه ، وجلس . ذهب أونوكا الى حجرة داخلية وما لبث أن عاد ومعه طبق خشبى صـغير به ثمرة من ثمار الكولا (١) ويضع حبات من الفلفل الهندى وقطعة من الطباشير الأبيض .

أعلن وهـو يجلس « ان لدى كولا » . ثم قدم الطبق لضيفه . فأجاب أوكوى وهو يعيد اليه الطبق « شكرا لك .

(١) تتكون ثمرة الكولا من فصين ، يشقا ويمضغا ، وتقدم الكولا اكراما للضيف ويقوم بكسرها صاحب البيت أو أكبر الضيوف سنا

(المترجمة)

ان من يحضر الكولا يحضر الحياة . ولكنى أظن أنه جدير بك أنت أن تكسرها » .

« لا بل فى رأيى انها لك أنت . » وهكذا استمرا فى الجدل بضع لحظات قبل أن يقبل أونوكا شرف كسر الكولا . وأثناء ذلك أخذ أوكوى قطعة الطباشير ورسم بضعة خطوط على الأرض ثم طلى ابهام قدمه .

صلى أونوكا وهو يكسر الكولا لأسلافهما طالبا الحياة والصحة ، والحماية من الأعداء . وعندما أكلا تحدثا عن أشياء كثيرة : تحدثا عن الأمطار الغزيرة التى تغرق نبات اليام وعن عيد الأسلاف القادم والحرب الوشيكة الوقوع مع قرية امبينو . لم يشعر أونوكا أبدا بالسعادة للحرب . فهو فى الواقع جبان لا يطيق منظر الدم . ولذا غير مجرى الحديث وتكلم عن الموسيقى فأضاء وجهه . فهو يستطيع أن يسمع بأذنه الداخلية الأنغام المتداخلة المثيرة لآلات « الاكو » و « الأودو » و « الأوجينى » (١) ، كما يسمع مزماره ينسج بين أنغامها نغما زاهيا شاكيا يزيدها رونقا . كان التأثير الكلى مرحا نشطا ، أما

---

(١) آلات موسيقية محلية . « فالاكو » صندوق خشبى مفرغ به ثقبان ، يطرق بعصا خشبية ، أما «الأودو» نمن الفخار وتشبه القلة وبها ثقب فى الرقبةوتطرق أيضا بالعصا . اما « الاوجينى » فمثلث نحاسى يطرق بعصا معدنية ايضا .

(المترجمة)

اذا التقط المرء أنغام المزمار وهى تصعد وتهبط وتتقطع فى نغمات قصيرة فانها تعطيه احساسا بالحزن والأسى .

كان أوكوى أيضا موسيقيا . كان يعزف « الأوجينى » ولكنه لم يكن فاشلا مثل أونوكا . فله مخزن ملىء باليام (١) وله ثلاث زوجات . وهو الآن على وشك اتخاذ لقب « الايدميلى » ، ثالث لقب فى البلاد . وكان هذا الاحتفال يكلف تكاليف باهظة ، ولذا فهو يجمع كل موارده . كان هذا فى الواقع سبب حضوره لرؤية أونوكا . تنحنح ثم بدأ :

« شكرا لك على الكولا ، لعلك سمعت باللقب الذى أنوى اتخاذه قريبا » .

وبعد أن تحدث أوكوى بصراحة الى الآن قال الجمل الست التالية فى شكل أمثال . فبين قبائل الايبو يعد فن الحديث فنا رفيعا جدا ، وتعتبر الأمثال كزيت النخيل الذى تؤكل به الكلمات . كان أوكوى محدثا ماهرا وتحدث طويلا طائفا حول الموضوع عن بعد ثم أصابه فى النهاية . وقصارى القول أنه يطلب الى أونوكا أن يرد اليه المائتى كوريا التى اقترضها منه منذ فترة تزيد على السنتين . ما كاد أونوكا يدرك ما يرمى اليه

---

(١) اليام نبات كالبطاطا . تعد جذوره الطعام الرئيسى فى بعض مناطق افريقيا. تؤكل مسلوقة أو مجففة ومدقوقة ومطهية فى شكل حساء .

(المترجمة)

صديقه حتى انفجر ضاحكا . ضحك طويلا مقهقها ورن صوته صافيا « كالأوجيني » وترقرقت الدموع فى عينيه . دهش ضيفه وجلس دون أن ينبث ببنت شفة . وفى النهاية تمكن أونوكا من الرد عليه بين انفجارات جديدة من المرح .

قال « انظر الى ذلك الحائط » وأشار الى حائط كوخه البعيد الذى كان قد حك بالتربة الحمراء حتى لمع . «انظر الى هذه الخطوط الطباشيرية » . رأى أوكوى مجموعات من الخطوط القصيرة الأفقية التى رسمت بالطباشير . كانت هناك خمس مجموعات تتكون أصغرها من عشرة خطوط . كان أونوكا يتمتع بحس درامى فصمت برهة تناول أثناءها قليلا من النشوق وعطس بصوت مرتفع ، ثم أردف قائلا : « ان كل مجموعة من هذه تمثل دينا مليء لشخص ما ويمثل كل خط مائة كورى . وهكذا ترى أنى مدين لذلك الرجل بألف كورى ولكنه لم يأت ليوقظنى فى الصباح من أجلها . سأدفع لك ما أنا مدين به ولكن ليس اليوم . يقول شيوخنا : ان الشمس ستشرق على أولئك الذين يقفون قبل أن تشرق على أولئك الذين يركعون تحت أقدامهم . « سأرد ديونى الكبيرة أولا . » ثم تنشق مرة أخرى وكأنه بذلك يدفع ديونه الكبرى أولا . فطوى أوكوى جلد الماعز وانصرف .

عندما توفى أونوكا لم يكن قد حصل على أى لقب على الاطلاق وكان مثقلا بالديون . فهل من العجب اذن أن يخجل منه ابنه أوكونكو ؟ ولكن من حسن الحظ أن هؤلاء القوم يحكمون على الرجل حسب قيمته هو وليس حسب قيمة والده

كان من الواضح أن أوكونكو خلق لمستقبل عظيم . اكتسب شهرة كأعظم مصارع فى القرى التسع وما زال شابا . كان مزارعا ناجحا يملك مخزنين مليئين باليام وقد تزوج لتوه من زوجته الثالثة . وليتوج كل هذا اتخذ لقبين وأظهر شجاعة لا تصدق فى حربين قبليتين . وهكذا بالرغم من حداثة سنه أصبح بالفعل واحدا من أعظم رجال عصره . كان قومه يحترمون كبر السن ولكنهم يبجلون العمل العظيم تبجيلا . وكما يقول الشيوخ اذا غسل طفل يديه أمكنه أن يأكل مع الملوك . كان من الواضح أن أوكونكو قد غسل يديه وهكذا أكل مع الملوك والشيوخ . كان هذا هو السبب فى اختياره للعناية بذلك الصبى المقضى عليه الذى قدمه أهله فدية لجيرانهم أهل قرية أوموفيا تجنبا للحرب وسفك الدماء . أما هذا الصبى السىء الطالع فكان يدعى اكيميفونا .

الفصل الثانى

ما كاد أوكونكو يطفىء مصباحه الزيتى ويستلقى على سريره المصنوع من الخيزران حتى سمع صوت « أوجينى » منادى البلدة يخترق سكون الليل . جوم ، جوم ، هكذا دوى صوت المعدن المفرغ . ثم أعلن المنادى رسالته ، وفى نهايتها قرع آلته مرة أخرى . وكانت الرسالة هى : على كل رجل فى أوموفيا أن يتواجد فى ساحة السوق صباح الغد . وتساءل أوكونكو أى مكروه وقع ، لأنه عرف بالتأكيد أن هناك مكروها ، اذ لمح نغمة مأساوية واضحة فى صوت المنادى ، وحتى الآن ما زال يسمعها وهى تخفت شيئا فشيئا عن بعد .

كان الليل هادئا جدا . والليل دائما هادىء عدا الليالى القمرية . وكان الظلام يطوى رعبا غامضا لهؤلاء الناس ، حتى أكثرهم شجاعة . وكانوا يحذرون الأطفال من الصفير فى الليل خوفا من الأرواح الشريرة . أما الحيوانات الخطرة فتصبح أشد شرا وضراوة فى الظلام . ولا تدعى الحية أبدا باسمها فى الليل لئلا تسمع . بل تدعى قطعة من الدوبار . وهكذا فى هذه الليلة

بالذات عندما خفت صوت المنادى تدريجيا ، عاد السكون للعالم ، سكون يهتز ، زادته كثافة ملايين وملايين من حشرات الغابة التى يسمع صوتها فى كل مكان .

أما فى الليالى القمرية فيختلف الأمر . اذ تسمع حينذاك أصوات الأطفال السعيدة وهم يلعبون فى الحقول المكشوفة . أما أولئك الذين لم يعودوا صغارا الى هذا الحد فيلعب كل اثنين منهم معا فى أماكن أقل تكشفا ، ويتذكر الذين تقدمت بهم السن من الرجال والنساء شبابهم . كما يقول قوم الأيبو « عندما يضىء القمر يشعر الكسيح برغبة قوية الى المشى . »

لكن هذه الليلة بالذات كانت مظلمة ساكنة . وفى جميع قرى أوموفيا التسع طلب صوت المنادى بآلته من كل رجل أن يتواجد فى صباح الغد . حاول أوكونكو وهو يرقد على سريره المصنوع من الخيزران أن يتصور طبيعة الأمر الطارىء — أهو حرب مع قبيلة مجاورة ؟ بدا هذا أكثر الأسباب احتمالا ، ولم يكن هو يخشى الحرب . كان رجل عمل ، رجل حرب وعلى خلاف والده كان يتحمل منظر الدم . وفى حرب أوموفيا الأخيرة كان أول من أحضر الى بلده رأسا بشرية . كانت تلك خامس رأس له ؛ ولم يزل شابا لم تتقدم به السن . وفى المناسبات الكبيرة مثل مأتم أحد مشاهير أهل البلدة ، كان يشرب خمر النخيل فى أول رأس بشرية فاز بها .

وفى الصباح امتلأت ساحة السوق بالناس . بلغ عدد الحاضرين حوالى عشرة آلاف رجل ، يتحدثون جميعا فى أصوات منخفضة . وآخيرا وقف « أوجبوفى ازيجو » فى وسطهم وصاح بصوت جهورى « يا أهل أوموفيا » وفى كل مرة كان يتجه نحو جهة مختلفة وكأنه يدفع الهواء بقبضة يده . وأجاب عشرة آلاف رجل « يا ! » فى كل مرة . ثم ساد السكون التام . كان أوجبوفى خطيبا مفوها وكان يقع عليه الاختيار دائما ليتكلم فى مثل هذه المناسبات . مر بيده ليعقد فوق كتفه الأيسر .

صاح للمرة الخامسة « يا رجال أوموفيا » وصرخ الجمع ردا عليه . ثم بغتة قذف بيده اليسرى وكأن به مس من روح شريرة ، أشار تجاه امبينو ، وقال من خلال أسنان بيضاء ناصعة مطبقة بشدة : « لقد اجترأ أبناء الحيوانات المفترسة هؤلاء أن يقتلوا ابنة من بنات أوموفيا . » ألقى برأسه الى أسفل وطحن أسنانه ، وسمح لهمهمة من الغضب المكبوت أن تكتسح الجمع. وعندما بدأ يتكلم مرة أخرى ، كان الغضب قد زايل وجهه وتراقصت مكانه ابتسامة صفراء أشد شرا من الغضب . وفى صوت واضح غير عاطفى حكم لأموفيا كيف ذهبت ابنتهم الى سوق أمبينو وقتلت . قال ازيجو كانت تلك المرأة زوجة « أوجبوفى أودو » ، وأشار الى رجل يجلس الى جواره منكس الرأس . وعندئذ صاح الجمع بغضب وتعطش للدم .

تحـدث غيره كثيرون ، وفى النهاية تقرر أن تتبع الطريقة العادية للعمل . أرسل فى الحال انذار الى « امبينو » طالبا من أهلها أن يختاروا اما الحرب واما أن يقدموا شـابا وعذراء كفدية .

كان جميع جيران أوموفيا يخشونها . كانت قوية فى الحرب والسحر ، ويخشى كهنتها ورجال الطب فيها فى جميع البـلاد المحيطة . يرجع أقوى أدوية الحرب فيها الى زمن قديم قدم القبيلة ذاتها ، قدما لم يعلم أحد مقداره . غير أن الاتفاق كان عاما بشأن نقطة واحـدة ـــ هى أن الأساس الفعال فى هـذا الدواء امرأة عجوز ذات رجل واحـدة . وفى الواقع ، يسمى الدواء نفسه « أجادا نوابى » أو امرأة عجوز . وله هيكل فى وسط أوموفيا ، فى بقعة أعدت خصيصا لهذه الغرض . واذا بلغت الجرأة بأحد أن يمر بهذا الهيكل بعد الغروب فمن المؤكد أن يرى المرأة العجوز تقفز على قدم واحدة حواليه .

وهكذا خشيت أوموفيا القبائل المجـاورة ـــ التى تعلم بطبيعة الحال هذه الأمور ، وماكانت لتشتبك معها فى الحرب دون الالتجاء أولا الى التسوية السـلمية . ومن حق أوموفيا أن نسجل أنها لم تذهب للقتال قط الا اذا كانت قضيتها واضحة وعادلة ومقبولة كذلك لدى العراف : عراف التلال والكهوف . وفى الحقيقة منع العراف أوموفيا من اعلان الحرب فى مناسبات

عديدة . فاذا عصت القبيلة أوامر العراف فانها لابد مهزومة . لأن الههم المخوف أجادى نوابى ما كان ليحارب قط ما يسميه الايبو « حرب لوم » . (١)

أما الحرب التى أوشكت على الوقوع الآن فحرب عادلة . وحتى القبيلة العادية علمت ذلك . وهكذا عندما وصل أوكونكو القادم من أوموفيا الى امبينو بوصفه رسول الحرب المبكر الآمر الناهى عومل بتكريم واحترام عظيمين ، وعاد بعد يومين ومعه صبى يبلغ من العمر خمسة عشر عاما وعذراء . أما اسم الصبى فاكيميفونا الذى ما زالت قصته الحزينة تحكى فى أوموفيا الى هذا اليوم .

اجتمع الشيوخ أو «انديتشى» ليستمعوا الى تقرير أوكنكو عن مهمته . وفى النهاية قرروا ، كما توقع الجميع ، أن تذهب الفتاة الى « أوجبوف أودو » لتحل محل زوجته القتيل . أما الصبى فملك للقبيلة كلها ، ولم يكن هناك ما يدعو الى العجلة فى تقرير مصيره . ولذا طلب من أوكنكو أن يعنى به بالنيابة عن القبيلة الى ذلك الحين . وهكذا عاش اكيميفونا فى منزل أوكونكو ثلاث سنوات .

***

كان أوكونكو يحكم أهل بيته بقبضة من حديد . وكانت

---

(١) حرب اللوم · حرب معيبة ، لا حق للقبيلة فيها ·

(المترجمة)

زوجاته وخاصة أصغرهن سنا ، يعشن فى خوف دائم من حدة طبعه . وكذلك أطفاله الصغار أيضا . لعل أوكونكو لم يكن فى قرارة نفسه رجلا قاسيا . لكن حياته كلها قد سادها الخوف . الخوف من الفشل أو الضعف . كان ذلك الخوف أعمق وأشد أثرا فى النفس من الخوف من الشر ومن نزوات الآلهة والسحر والغابة ، وقوى الطبيعة الشريرة ، الحمراء . كانخوف أوكونكو أعظم من كل ذلك . لم يكن خوفا ظاهرا ، بل خوفا كامنا فى أعماق نفسه . خوفا من ذاته ، خوفا من أن يكون بينه وبين أبيه شبه . وحتى وهو صبى صغير ، غضب لفشل أبيه وضعفه ، وما زال يذكر حتى الآن كيف تألم عندما قال له أحد الرفاق الذين يلعبون معه أن والده « اجبالا » أو امرأة . وهكذا عرف أوكونكو للمرة الأولى أن كلمة « أجبالا » ليست مجرد لفظ مرادف لامرأة ، بل يمكن أن تعنى الرجل الذى لم يأخذ أى لقب . لذلك سيطرت على أوكونكو رغبة قوية واحدة — أن يكره كل شىء أحبه أبوه ، أونوكا . من هذه الأشياء الرقة ومنها أيضا التكاسل .

كان أوكونكو يعمل أثناء موسم الزرع فى مزارعه يوميا من صياح الديك الى ذهاب الدجاج للمبيت . كان رجلا قويا جدا ، قلما يشعر بالتعب . لكن زوجاته وأطفاله الصغار لم يكونوا فى مثل قوته ، ولذا قاسوا من ذلك . لكنهم لم يجرؤوا

أن يبوحوا بشكواهم . كان ابن أوكونكو البكر نوويى حينذاك فى الثانية عشرة من عمره . ولكنه قد بدأ يسبب لأبيه قلقا كبيرا بسبب ما بدا عليه من بوادر التراخى . على أية حال ، هذا ما بدا لوالده ، الذى سعى لاصلاحه بالضرب والتقريع المستمرين . وهكذا بدأ نوريى يتحول الى شاب حزين الوجه .

كان ثراء أوكونكو يبدو واضحا فى بيته . فله ساحة متسعة يحيط بها جدار سميك من التربة الحمراء . أما كوخه الخاص أو كوخ رب الأسرة فيقع مباشرة خلف البوابة الوحيدة الموجودة فى الجدران الحمراء . لكل من زوجاته الثلاث كوخها الخاص ، وتكون هذه الأكواخ معا نصف قمر خلف كوخه الخاص . أما المخزن فبنى فى مقابل أحد طرفى الجدار الأحمر ووقفت به مزهوة أكوام طويلة من اليام . وفى الطرف المقابل له من الساحة توجد حظيرة الماعز . كما بنت كل زوجة مكانا صغيرا ملحقا بكوخها للدجاج . بالقرب من المخزن بيت صغير ، هو « بيت الدواء » أو الهيكل الذى يحتفظ أوكونكو فيه بالرموز الخشبية لالهه الخاص ولأرواح أسلافه . كان يتعبد لها بتقديم الضحايا من ثمار الكولا ، والطعام وخمر النخيل ، ويقدم لها الصلوات بالنيابة عن نفسه وزوجاته الثلاث وأبنائه الثمانية .

وهكذا عندما قتلت ابنة أوموفيا فى امبينو ، جاء اكيميفونا الى منزل أوكونكو . وعندما أحضره أوكونكو الى المنزل فى

ذلك اليوم دعا أكبر زوجاته سنا وسلمه اليها قائلا : « . انه ملك للقبيلة . ولذا اعتنى به » .

سألت « هل يمكث طويلا معنا ؟ »

فصاح أوكونكو بصوت كالرعد « اعملى ما تؤمرين به يا امرأة » ثم أضاف متأثثا :

« منذ متى أصبحت أحد شيوخ أوموفيا ؟ » .

وهكذا أخذت أم نوريى اكيميفونا الى كوخها دون مزيد من الأسئلة .

أما الصبى نفسه ، فقد كان خائفا جدا . لم يكن يفهم ما يحدث له أو ماذا عمل هو . كيف له أن يعلم أن لأبيه يدا فى قتل ابنة لأوموفيا ؟ كل ما يعرفه هو أن عددا من الرجال جاءوا الى منزلهم ، وهم يتحدثون مع والده بأصوات منخفضة ، وفى النهاية أخذ الى الخارج وسلم الى رجل غريب . بكت أمه بكاء مرا ، أما هو فمنعته دهشته البالغة من البكاء . وهكذا أخذه الرجل الغريب هو وفتاة ، بعيدا ، بعيدا عن بيته عبر طرقات الغابة الموحشة . لم يكن يعلم من هى الفتاة ، ولم يرها أبدا مرة أخرى .

الفصل الثالث

لم يبدأ أوكونكو حياته بداية كالتى يبدأ بها عادة كثير من الشبان حياتهم . لم يرث عن أبيه مخزنا ، اذ لم يكن هناك مخزن يرثه . كان يحكى فى أوموفيا كيف ذهب والد أونوكا ليستشير عراف التلال والكهوف ليعرف لماذا يحصل دائما على أسوأ محصول .

كان العراف يدعى « أجبالا » ويأتى الناس من كل حدب وصوب لاستشارته . يأتون عندما تنتابهم المصائب أو عندما يدب الخلاف بينهم وبين جيرانهم . يأتون لمعرفة ما يخبئه لهم المستقبل أو لاستشارة أرواح الراحلين من أجدادهم .

أما الطريق الى الهيكل فثغرة مستديرة فى جانب تل ، ثغرة لا تزيد الا قليلا عن الفتحة المستديرة لخن الدجاج يزحف المتعبدون أو أولئك الذين جاءوا سعيا وراء المعرفة من الاله على بطونهم من الثغرة ليجدوا أنفسهم فى فضاء مظلم لا آخر له فى حضرة أجبالا . لم ير أجبالا أحد قط سوى كاهنته ، ولكن ما من أحد قد زحف الى هيكله الرهيب وخرج دون الاحساس

بالخوف من قوته . كانت الكاهنة تقف الى جانب النار المقدسة التى تشعلها فى قلب الكهف وتعلن مشيئة الإله . لم تبعث النار بألسنة من اللهب . وانما عملت قطع الخشب المتوهجة على اضاءة جسم الكاهنة الداكن اضاءة خافتة .

كان يأتى أحيانا رجل لاستشارة روح والده أوقريبه المتوفى. ويقال انه عندما تظهر مثل هذه الروح ، يراها الرجل رؤية غير واضحة فى الظلام ، ولكنه لا يسمع صـــوتها مطلقا . بل قال بعض الناس انهم سمعوا الأرواح تطير وتضرب بأجنحتها سقف الكهف .

منذ سنوات عديدة وأوكونكو ما زال صبيا ، ذهب والده أونوكا لاستشارة أجبالا . كانت الكاهنة فى تلك الأيام امرأة تدعى تشيكا . وكانت ممتلئة من قوة الهها ، ولها رهبة شديدة . وقف أونوكا أمامها وبدأ قصته .

قال بحزن « كل سنة ، قبل أن ألقى بأية بذور فى التربة ، أقدم ديكا ضحية لآنى ، صاحب الأرض . هذا هو قانون آبائنا. كذلك أذبح ديكا على مذبح افيجيوكو ، اله اليــام . وأقلع الشجيرات وأوقد النار بها عنــدما تجف . أبذر اليام بعــد أن تسقط الأمطار الأولى ، وأغرس له العصى عندما تظهر الوريقات الغضة . وأجتث الحشائش » .

صرخت الكاهنة بصوت مخيف تردد حول الفضاء المظلم

« صه ! انك لم تسىء الى آلهتك أو آبائك . وعندما يكون الرجل فى سلام مع آلهته وأسلافه ، فان محصوله يجود أو يسوء تبعا لقوة ساعده . أنت ، يا أونوكا معروف لدى القبيلة كلها بضعف فأسك وشوكتك . فعندما يخرج جيرانك بفئوسهم لقطع أشجار الغابات العذراء — تبذر أنت ياماتك فى مزارع متعبة لاتحتاج لكثير من العمل لاعدادها . هم يخترقون سبعة أنهار ليعدوا مزارعهم ، أما أنت فتبقى فى المنزل وتقدم ضحايا لأرض غير مقبلة . اذهب الى بيتك واعمل كرجل » .

كان أونوكا رجلا سىء الطالع . كان الهه الخاص اله سىء وتبعه سوء الحظ الى القبر ، أو على الأقل الى الممات ، اذ لم يكن له قبر . فقد مات متأثرا بالورم الذى تكرهه الهة الأرض . فعندما يصاب رجل بورم فى المعدة أو الأطراف لا يسمح له بالموت فى المنزل . كانت تحكى قصة رجل عنيد عاد يجر رجليه جرا الى منزله فاضطر ذووه الى حمله مرة أخرى الى الغابة وربطه الى شجره . فقد كان هذا المرض منفر للأرض ، ولذا لم يكن من الممكن لمن يصاب به أن يدفن فى أحشائها . مات وبلى فوق سطح الأرض ، ولم يقم له الدفن الأول أو الثانى . كان هذا مصير أونوكا وعندما حملوه بعيدا ، أخذ معه مزماره .

لما كان هذا هو أب أوكونو ، فانه لم يبدأ البداية التى بدأ بها كثير من الشبان . فلم يرث مخزنا ولا لقبا ، ولا حتى زوجة

شابة . لكن بالرغم من كل هذه المعوقات فقد بدأ أوكونكو ، ووالده على قيد الحياة ، فى وضع أساس مستقبل ناجح . فعل ذلك ببطء ومشقة ولكنه ألقى بنفسه فى هذا المضمار كمن تتملكه روح شريرة . وقد كان فى الحقيقة كمن يتملكه خوف من حياة أبيه المحتقرة وموته المشين .

***

كان يعيش فى قرية أوكونكو رجل ثرى يملك ثلاثة مخازن ضخمة وله تسع زوجات وثلاثون من الأبناء ، يدعى نواكيبى ، وقد حصل على أعلى الألقاب ما عدا واحدا ، هو اللقب قبل الأخير وأرفع الألقاب التى يمكن لرجل أن يأخذها فى قبيلته . كان هذا هو الرجل الذى عمل لديه أوكونكو ليكسب بنفسه أول بذور اليام .

وأخذ أوكونكو وعاء من خمر النخيل وديكا وذهب الى نواكيبى الذى أرسل فى طلب اثنين من كبار الجيران ، وكان أبناء نواكيبى البالغون أيضا معه فى كوخه . قدم ثمرة من ثمار الكولا واحدى ثمار فلفل التمساح ، وأديرت هذه ليراهاالجميع ثم أعيدت اليه . كسرها قائلا : « سنعيش جميعا . اننا نصلى من أجل الحياة والذرية ومحصول جيد وسعادة . ستحصل أنت على ما هو خير لك ، وسيكون لى ما هو خير لى . لتأخذ الحدأة مكانها ، ولتأخذ القبرة أيضا مكانها . ولينكسر جناح من تقول للأخرى لا » .

وبعد أن أكلت الكولا أحضر أوكونكو خمر النخيل من ركن الكوخ حيث وضع ووقف في وسط المجموعة وخاطب نواكيبى ، مطلقا عليه لقب « والدنا » ، وقائلا « نانا آى ، لقد أحضرت لك هذه الكولا الصغيرة . كما يقول قومنا ان الرجل الذى يقدم الاحترام للعظماء يهيىء الطريق لعظمته هو . لقد جئت أقدم لك آيات الاحترام وأطلب منك معروفا . ولكن لنشرب الخمر أولا » .

شكر الجميع أوكونكو وأخرج الجيران قرون الشراب من الحقائب ، المصنوعة من جلود الماعز ، التى يحملونها . أنزل نواكيبى قرنه الخاص ، الذى كان مثبتا الى احدى قوائم السقف . وتقدم ابنه الأصغر الذى كان أيضا أصغر الموجودين سنا الى الوسط ورفع الاناء على ركبته اليسرى وبدأ يصب الخمر . قدم الكأس الأولى لأوكونكو الذى كان من واجبه أن يذوق خمره قبل أى شخص آخر وعندما شرب كل فرد من الحاضرين قرنين أو ثلاثة ، أرسل نواكيبى فى طلب زوجاته . لم يكن جميعا فى المنزل وحضرت أربع منهن فقط .

سألهن نواكيبى « أليست أناسى بالمنزل ؟ » فقلن انها قادمة. كانت أناسى الزوجة الأولى ولا تستطيع الأخريات الشراب قبلها، ولذا وقفن ينتظرنها .

كانت أناسى متوسطة السن ، طويلة ، قوية البنية . تبدو السيطرة على محياها ويبدو عليها تماما أنها حاكمة النسوة فى أسرة كبيرة ناجحة . كانت تلبس الخلخال الذى يرمز لألقاب زوجها ، والذى لا تستطيع لبسه سوى الزوجة الأولى وحدها .

سارت نحو زوجها وتقبلت القرن منه . ثم ركعت على ركبة واحدة وشربت قليلا ثم أعادت القرن : قامت ، وودعته باسمة ثم عادت الى كوخهـــا . وشربت الزوجات الأخريات بنفس الطريقة وحسب ترتيبهن ثم ذهبن .

وعندئذ واصـــل الرجال الشراب والحديث . وتحـدث « أوجبوفى اديجو » عن مستخرج خمر النخيـــل الذى يدعى أوبياكا ـــ والذى كان قد توقف بغتة عن ممارسة مهنته .

وقال وهو يمسح رغوة الخمر عن شاربه بظهر يده اليسرى « لابد من سبب وراء ذلك . لا تجرى ضفدعة فى النهار دون سبب » .

فقال أكوكاليا « يقول بعض الناس ان الاله حذره من أنه سيقع من نخلة ويقتل » .

قال نواكيبى « كان أوبياكو رجلا قويا دائما . لقد سمعت انه منذ عدة سنوات ولم يمض وقت طويل على وفاة والده ؛ ذهب لاستشارة العراف فقال له « اسأل والدى اذا ما كان قد

امتلك قط دجاجة فى حياته » . ضحك الجميع من قلوبهم الا أوكونكو الذى ضحك بعدم ارتياح لأنه كما يقول المثـــل لا تشعر المرأة العجوز بارتياح عندما تذكر العظـام الجافة فى مثل . تذكر أوكونكو والده هو .

أخيرا رفع الشاب الذى يصب الخمر قرنا مملوءا لمنتصفه ببقايا بيضاء سميكة وقال « ان ما نأكله قد فرغ » . وأجاب الآخرون « لقد رأينا ذلك » . وسأل من سـيشرب البقايا ؟ « فأجاب ايديجو » يشربها من يقوم بعمل ما . قال ذلك وهو ينظر الى ابن نواكيبى الأكبر وقد لمعت فى عينيه نظرة شقية .

وافق الجميع على أن ايجويلو يجب أن يشرب الثمالة . وتقبل القرن الممتلىء الى منتصفه من أخيه وشرب ما به . فكما قال ايديجو ، كانت مسئولية كبرى اذ تزوج زوجته الأولى منذ شهر أو شهرين . ومن المفروض أن بقايا خمر النخيل السميكة تفيد الرجال الذاهبين الى زوجاتهم .

وبعد أن شربت الخمر ، بسـط أوكونكو متاعبه أمـام نواكيبى .

قال « جئت أطلب منك العون . ربما تستطيع فعلا أن تخمن ما فى الأمر . لقد أعددت أرضا للزرع ولكن ليس لى ياما أزرعه انى أعرف ما معنى أن تطلب من رجل أن يثق بك ويعطيك بعض

يامه ، وخاصة فى هذه الأيام التى يخاف الشبان فيها من العمل الصعب ، المرهق . أما أنا فلا أخاف العمل . قالت السحلية التى قفزت من شجرة الأروكو العالية الى الأرض انهـا ستمتدح نفسها اذا لم يمدحها شخص آخر . لقد بدأت السعي فى سبيل الرزق أو الاعتماد على ذاتى فى سن كان معظم الناس يرضعون فيه لبن أمهاتهم . اذا أعطيتنى شيئا من اليام فلن أخيب ظنك .

تنحنح نواكيبى وقال « يسرنى أن أرى شابا مثلك فى هذه الأيام التى صار فيها الشباب لينا . لقد جاءنى كثير من الشبان يطلبون منى ياما ولكنى رددتهم خائبين ، لأنى كنت أعلم أنهم سيلقون به فى الأرض ويتركون الحشائش تخنقه . وعندما أرد طلبهم يعتقدون أنى صلب القلب . ولكن الأمر غير ذلك . يقول انكى العصفور انه منذ تعلم الرجال كيف يطلقون النار دون أن يخطئوا الهدف ، تعلم هو أن يطير دون أن يستقر على فنن . تعلمت أنا أيضا أن أبخل بياماتى . ولكن أستطيع أن أثق بك . أعرف ذلك وأنا أنظر اليك . فكما قال آباؤنا ، يمكنك أن تعرف القمحة الناضجة من شكلها . سأعطيك أربعمائة يامة وأربعمائة يامة أخرى . اذهب وأعد مزرعتك » .

شكره أوكونكو ثم كرر الشكر . وعاد الى بيته وهو يشعر بالسعادة . كان يعرف أن نواكيبى لن يرفض طلبـه ولكنه لم يتوقع منه كرما بهذا المقدار . لم يأمل أن يحصل على أكثر من

أربعمائة بذرة . وعليه الآن أن يهيىء مزرعة أكبر . انه يأمل أن يحصل على أربعمائة يامة أخرى من أحد أصدقاء والده فى ايسيوزو .

ان الزراعة بالشرك طريقة بطيئة جدا لتكوين مخزن خاص. فبعد الجهد الشاق الذى يبذله المرء لا يحصـل الا على ثلث المحصول فقط . ولكن ليست هناك وسيلة أخرى أمام شاب لم يملك أبوه أى يام . ومما جعل الأمر أكثر سوءا فى حالة أوكونكو أنه كان يعول أمه وأختيه من محصوله الضئيل . واعالة والدته كانت تعنى أيضا اعالة والده . فلم يكن من المتوقع أن تطبخ هى وتأكل بينما يموت زوجها جوعا . وهكذا عندما كان أوكونكو يناضل مسـتميتا ، فى سن مبكرة ، ليبنى مخـزنا عن طريق المحصول المشترك ، كان يعول بيت أبيه . فكان مثله مثل من يصب غلالا فى زكيبة ملأى بالثغرات . لقد عملت أمه وأخواته بنشاط لا بأس به ولكنهن زرعن محصولات نسائية ، مثل يام الكاكاو ، والبقول والكاسافا (١) . أما اليام ، ملك المحاصيل، فمحصول يزرعه الرجال .

كانت السنة التى أخذ فيها أوكونكو ثمانمائة بذرة يام من

---

(١) الكاسافا نبات جذرى آخر . تسلق الجذور أو تجفف ويصنع منها الدقيق .

(المترجمة)

نواكيبى أسوأ سنة يذكرها الناس . لم يحدث شيء فى ميعاده ، بل حدث كل شيء اما قبل ميعاده بكثير واما بعد ميعاده بكثير . وبدا العالم وكأنه قد جن . تأخرت الأمطار الأولى ، وعندما بدأت فى السقوط ، استمرت برهة قصيرة فقط . عادت الشمس المتقدة ، أكثر حدة مما عرف عنها فى أى وقت وأحرقت كل ما ظهر من خضرة نتيجة للأمطار . التهبت الأرض مثل قطع الفحم المتقدة وقل كل اليام المنزرع . كان أوكونكو ، مثل باقى الزراع العارفين بأمورهم ، قد بدأ فى القاء البذور مع الأمطار الأولى . كان قد بذر أربعمائة يامة عندما جفت الأمطار وعاد الجو الحار . كان يقضى النهار كله يرقب السماء لعله يرى أية بوادر لسحب الأمطار ، ويبيت الليل صاحيا قلقا . ويعود فى الصباح الى مزرعته ليرى الأغصان الرقيقة الذابلة . حاول حمايتها من الأرض المحرقة باحاطتها بسياج من أوراق السيزال السميكة . لكن سياج السيزال كان يحترق مع نهاية النهار ويصبح جافا رمادى اللون . وكان يغيره كل نهار ، ويصلى لكى يسقط المطر فى الليل . لكن الجفاف استمر ثمانية أسابيع من أسابيع السوق (١) وقضى على اليام .

وكان بين الفلاحين من لم يزرعوا يامهم بعد . كان هؤلاء

(١) يتكون أسبوع السوق من أربعة أيام .

(المترجمة)

هم الكسالى أو الذين لا يأخذون الأمور مأخذ الجد ممن يؤجلون دائما اعداد مزارعهم أطول وقت ممكن . أما هذه السنة فصاروا هم الحكماء . أبدوا مشاركة وتعاطفا مع جيرانهم، بأن هزوا رءوسهم كثيرا ، ولكنهم فى قرارة نفوسهم كانوا سعداء لما اعتبروه بعد نظرهم .

زرع أوكونكو ما تبقى من بذور اليام عندما عادت الأمطار أخيرا . أمر واحد خفف عنه . كانت اليامات التى زرعها قبل الجفاف ياماته هو — محصول السنة السابقة . ما زالت لديه الثمانمائة التى أخذها من نواكيبى والأربعمائة التى أخذها من صديق والده . وهكذا أمكنه أن يبدأ من جديد .

لكن تلك السنة كانت قد أصيبت بالجنون . فقد سقط المطر كما لم يسقط من قبل واستمر يهطل أياما وليالى بأكملها فى شكل سيول عنيفة ، اكتسحت أكوام اليام ، وقلعت الأشجار وظهرت الخور العميقة فى كل مكان . ثم قلت حدة المطر . لكنه استمر من يوم لآخر دون توقف . أما الفترة المشمسة التى كانت تجىء دائما وسط موسم الأمطار فلم تظهر . أخرجت اليامات أوراقا خضراء رائعة ولكن كل فلاح كان يعرف أنه بدون ضوء الشمس لن تنم الثمار .

كان الحصاد حزينا كالمأتم فى تلك السنة ، وبكى كثير من

الزراع وهم يحفرون التربة لاخراج اليامات البائسة العطنة . وربط رجل ازاره فى فرع شجرة وشنق نفسه .

وظل أوكونكو بقية أيام حياته يشعر برعشـــة باردة كلما تذكر تلك السنة الحزينة وكان يشعر بالدهشة دائما كلما فكر فى الأمر فيما بعد ـــ وكيف أنه لم يرزح تحت وطأة اليأس . كان يعلم أنه محارب متوحش ، ولكن تلك السنة كانت كفيلة بأن ينفطر لها قلب الأسد .

كان يقول دائما « ما دامت تلك الســنة لم تقـض على فسأظل حيا مهما حدث وعزا ذلك لارادته التى لا تلين .

أما والده أونوكا ، الذى كان قد ألم به المرض ، فقال له أثناء شهر الحصاد المخيف هذا : « لا تيأس . أنا أعرف أنك لن تيأس . ان لك قلب رجـل ، قلبا متكبرا . والقلب المتكبر لن يميته فشل أصاب الجميع لأن مثل هذا الفشل لا يجرح كبرياءه. أما عندما يفشل المرء بمفرده ، فذلك أصعب وأمر » .

هكذا كان أونوكا فى آخر أيامه . زاد حبه للكلام مع تقدمه فى السن ومرضه وعانى أوكونكو من ذلك حتى كاد ينفد صبره .

الفصل الرابع

قال رجل عجوز « اذا نظر امرؤ الى فم ملك ، ظن أنه لم يرضع قط من ثدى أمه » . كان يتكلم عن أوكونكو الذى ارتفع فجأة من الفقر المدقع وسوء الحظ ليصبح أحد كبار رجال قبيلته . ولم يضمر الرجل العجوز سوءالأوكونكو بل كان يكن له الاحترام لجده ونجاحه . لكنه عجب ، مثل غالبية الناس لطريقة أوكونكو الجافة فى معاملة من هم أقل منه نجاحا من الرجال . فمنذ أسبوع واحد عارضه رجل فى اجتماع للعشيرة أقيم لمناقشة احتفال الأسلاف التالى . ودون أن ينظر الى الرجل قال أوكونكو « هذا الاجتماع للرجال » . لم يكن الرجل الذى عارضه يحمل أى لقب . كان هذا هو السبب الذى دعاه من أجله امرأة . كان أوكونكو يعرف كيف يحطم روح أى رجل .

وقف جميع من حضروا الاجتماع العشائرى الى جانب أوسوجو عندما دعاه أوكونكو امرأة . وقال أكبر الحاضرين سنا بحدة ان على أولئك الذين كسرت لهم روح خيرة نوى

النخيل ألا ينسوا أن يتواضعوا . فاعتذر أوكونكو عما بدر منه واستمر الاجتماع .

لكنه لم يكن صحيحا أن روحا خيرة قد كسرت نوى النخيل لأوكونكو . فقد كسر هو نواة بنفسه . وما كان باستطاعة أحد ممن عرفوا جهاده الشاق ضد الفقر وسوء الحظ أن يعزو نجاحه الى حسن الحظ . فما استحق رجل النجاح الذى حققه كما استحقه أوكونكو . اذ حقق فى سن مبكرة شهرة كأعظم مصارع فى البلاد كلها . لم يكن ذلك نتيجة للحظ . فأقصى ما يمكن للمرء أن يقوله هو أن الهه الخاص كان طيب القلب . ولكن لدى قوم الايبو مثل مؤداه انه اذا قال رجل نعم يقول الهه الخاص نعم أيضا. وليس الهه فقط بل لنقل عشيرته أيضا ، لأنها تحكم على الرجل تبعا لعمل يديه . كان هذا هو السبب فى اختيار القرى التسع له ليحمل رسالة الحرب الى أعدائهم الا اذا وافقوا على تسليم شاب وعذراء ليكفروا عن قتل زوجة أودو . وكان أعداء أوموفيا يخافونها الى حد جعلهم يعاملون أوكونكو معاملة الملوك ويحضروا له عذراء لتكون زوجة لأودو ، والصبى اكيميفونا .

***

وقرر شيوخ العشيرة أن يبقى اكيميفونا تحت رعاية أوكونكو فترة من الزمن وان لم يظن أحد أن هذه الفترة

ستمتد الى ثلاث سنوات . اذ يبدو أنهم قد نسوا كل شيء عنه بمجرد أن اتخذوا هذا القرار .

وفى أول الأمر كان اكيميفونا فى شدة الخوف . وحاول الهرب مرة أو مرتين ولكنه لم يعرف أى سبيل يسلك . كان يفكر فى آمه وفى أخته البالغة من العمر ثلاث سنوات ، ويبكى بمرارة . ولكن أم نوويى عطفت عليه عطفا كبيرا وعاملته كأحد أبنائها . الا أن كل ما ظل يردده هو « متى أعود الى منزلى ؟ » وعندما سمع أوكونكو أنه يرفض تناول الطعام دخل الى الكوخ وفى يده عصا كبيرة ووقف الى جواره وهو يزدرد اليام ويرتعش . وبعد بضع دقائق ذهب خلف الكوخ وتقيأ بألم . ذهبت اليه أم نووى ووضعت يدها على صدره وظهره . وظل مريضا ثلاثة أسابيع سوقية وعندما شفى بدا وكأنه قد تغلب على خوفه العظيم وحزنه .

كان بطبيعته صبيا مملوءا بالحيوية وأصبح بالتدريج محبوبا فى بيت أوكونكو وخاصة من الأبناء ، وصار ابن أوكونكو ، نوويى ، الذى يصغره بسنتين لا يفترق عنه ، اذ بدا اكيميفونا وكأنه يعرف كل شيء . يستطيع أن يصنع المزامير من سيقان الخيزران وحتى من حشائش الفيل . ويعرف أسماء جميع الطيور ويقيم الفخاخ بمهارة للطيور الصغيرة التى تسكن الأشجار . ويعرف أية أشجار تصنع منها أقوى الأقواس .

حتى أوكونكو نفسه أغرم جدا بالصبى — فى دخيلة نفسه طبعا . فأوكونكو لم يظهر أبدا انفعالاته علنا ، اللهم الا فى حالة انفعال الغضب . فابداء الحب علامة من علامات الضعف ، أما الشيء الوحيد الذى يستحق أن يبديه المرء فهو القوة . وهكذا عامل ايكيميفونا كما عامل جميع الآخرين — بطريقة جافة . غير أنه أحب الصبى دون شك . فأحيانا عندما يذهب الى اجتماعات القرية الكبرى أو الى احتفالات الأسلاف الجماعية يسمح لايكيميفونا أن يصحبه كابنه ، ويحمل مقعده وحقيبته المصنوعة من جلد الماعز . وفى الحقيقة كان ايكيميفونا يدعوه بوالدى .

***

جاء اكيميفونا الى أوموفيا فى نهاية موسم الفراغ بين الحصاد والزرع . ولم يشف من مرضه فى الواقع الا قبل بدء أسبوع السلام ببضعة أيام . وكانت تلك السنة أيضا هى التى كسر فيها أوكونكو السلام وعوقب كالمعتاد على يد ايزيانى كاهن الهة الأرض .

أثارت أصغر زوجات أوكونكو حنقه بحق ، عندما ذهبت لتصفف شعرها فى منزل صديقتها ولم تعد فى وقت يسمح لها باعداد وجبة بعد الظهر . لم يعلم أوكونكو أول الأمر أنها لم تكن فى المنزل . وبعد أن انتظر الطبق الذى تقدمه له دون

جدوى ذهب الى كوخها ليرى ماذا تفعل . فلم يجد فى الكوخ أحدا ووجد الموقد باردا .

« أين أوچيوچيو ؟ » هكذا سأل زوجته الثانية التى خرجت من كوخها لتملأ ماء من قدرة كبيرة وضعت فى ظل شجرة صغيرة وسط الساحة .

« ذهبت لتصفف شعرها » .

عض أوكونكو على شفتيه وبدأ الدم يغلى فى عروقه . ولكنه سيطر على أعصابه وسأل ببرود على غير عادته « أين الأولاد ؟ هل أخذتهم معها ؟ » .

فأجابت زوجته الأولى ، أم نوويى « انهم هنا » . وانحنى أوكونكو ونظر داخل كوخها . كان أولاد أوچيوچو يأكلون مع أولاد زوجته الأولى .

« هل طلبت منك أن تطعميهم قبل أن تذهب ؟ » .

« نعم » كذبت أم نوويى فى محاولة للتخفيف من طيش أوچيوچو .

أدرك أوكونكو أنها لم تكن صادقة . فعاد الى كوخه الخاص لينتظر عودة أوچيوچو . وعندما عادت ضربها ضربا مبرحا ، ناسيا فى سورة غضبه أنه فى أسبوع السلام . وجرت

زوجتاه الأوليان فى ذعــر كبير لترجواه أن يذكر أن ذلك هو الأسبوع المقدس . ولكن أوكونكو لم يكن الرجل الذى يتوقف قبل أن ينتهى من ضرب أحد ، حتى ولا خوفا من الهة .

سمع جيران أوكونكو بكاء زوجته وصاحوا عبر حوائط الساحة مستفسرين عما جرى وجاء بعضهم ليروا بأنفسهم . لم يسمع أحد من قبل أن أحدا ضرب فى الأسبوع المقدس .

قبل الغسق قام ايزنانى ، كاهن الهة الأرض ، آنى ، بزيارة أوكونكو فى كوخه . أحضر أوكونكو ثمرة كولا ووضعها أمام الكاهن .

« أبعــد عنى ثمرة الكولا هــذه . لن آكل فى بيت رجل لا يحترم آلهتنا وأسلافنا » .

وحاول أوكونكو أن يشرح له ما فعلته زوجته ولكن ايزنانى بدا وكأنه لا يعيره أدنى انتباه . كان يحمل عصا قصيرة فى يده، هوى بها على الأرض ليؤكد وجهة نظره .

عندما فرغ أوكونكو من الكلام قال الكاهن « انصت الى. انك لست غريبا فى أوموفيا وتعلم أن آباءنا قد قرروا أنه قبل أن نزرع أى محصــول فى الأرض علينا أن نكرس أســبوعا لا يتفوه فيه الشخص بكلمة نابية لجاره . اننا نعيش فى سلام

مع بنى جلدتنا لنكرم الهة الأرض العظيمة التى لا تنمو محاصيلنا دون بركتها . لقد أتيت شرا عظيما » . وهوى بعصاه بشدة على الأرض « أخطأت زوجتك ولكن حتى اذا جئت الى كوخك ووجدت معها عشيقها وضربتها لعد ذلك منك شرا عظيما » . وهوت عصاه مرة أخرى . « ان الشر الذى ارتكبته كفيل بتدمير العشيرة كلها . ان الهة الأرض التى ألحقت بها الاهانة قد ترفض أن تزيد غلتنا فنهلك جميعا » . وتغيرت نبرته الآن من الغضب الى الأمر « عليك أن تحضر الى هيكل آنى غدا عنزة واحدة ، ودجاجة واحدة ، وطولا من القماش ومائة كوريا » . ثم قام وترك الكوخ .

فعل أوكونكو ما أمر به الكاهن . أخذ معه أيضا وعاء من خمر النخيل . وشعر بالتوبة فى داخل نفسه . ولكنه لم يكن الرجل الذى يعترف بخطئه لجيرانه . وهكذا قال الناس انه لا يكن احتراما لآلهة العشيرة . وقال أعداؤه ان مظاهرة الحظ له قد أدارت رأسه . وسموه الطائر الصغير « ننزا » الذى نسى نفسه بعد أكله ثقيلة وتحدى الهه .

لم يكن هناك عمل أثناء أسبوع السلام . كان الناس يزورون جيرانهم ويشربون خمر النخيل . وفى هذه السنة لم يتحدثوا عن شىء سوى الخطأ الذى ارتكبه أوكونكو . كانت هذه المرة الأولى منذ سنوات عديدة التى يكسر فيها أحد

السلام المقدس . حتى أكبر الرجال سنا لم يذكروا سوى حالة أو حالتين فى الماضى البعيد .

قال أوجبوفى ازيدو ، أكبر رجال القرية سنا ، لرجلين أتيا لزيارته ان عقاب كسر سلام آنى قد أصبح مخففا جدا فى عشيرتهم .

قال « لم تكن الحال دائما هكذا ، فقد أخبرنى والدى أنه قيل له : انه فى الماضى كان الرجل الذى يكسر السلام ، يسحل فى أنحاء القرية حتى يموت . لكن بعد فترة من الزمن أبطلت هذه العادة لأنها تفسد السلام الذى يراد بها حفظه » .

قال أحد الرجال الأصغر سنا « قال لى أحدهم أمس انه فى بعض العشائر تعد وفاة الرجل فى أسبوع السلام مكروهة .

قال أوجبوفى ازيدو « هذا صحيح فى الواقع . هذه العادة قائمة فى أوبودوانى . اذا مات رجل فى هذا الوقت ، لا يدفن بل يلقى به فى « الغابة الشريرة » انها عادة سيئة يمارسها هؤلاء الناس لأنهم ناقصو الفهم . يلقون بأعداد كبيرة من الرجال والنساء دون دفن . فماذا تكون النتيجة ؟ عشيرتهم ملأى بالأرواح الشريرة لهؤلاء الموتى غير المدفونين ، والمتعطشة للايقاع بالأحياء » .

وبعد أسبوع السلام بدأ كل رجل وعائلته فى قلع الشجيرات لاعداد مزارع جديدة . أما الشجيرات المقطوعة فتترك لتجف ثم تحرق . وعندما يصعد الدخان الى السماء تظهر الحدآت من مختلف الجهات وتحوم حول الحقل المحترق تشيعه فى صمت . ها قد اقترب موسم الأمطار الذى ترحل فيه بعيدا الى أن يعود موسم الجفاف .

وقضى أوكونكو الأيام القليلة التالية فى اعداد بذور اليام. كان ينظر الى كل يامة بامعان ليرى اذا ما كانت تصلح للبذور . ويقرر أحيانا أن اليامة أكبر من أن تستخدم كبذرة واحدة . فيشقها طوليا بسكينه الحاد . يساعده ابنـه الأكبر نوويى ، وايكيميفونا باحضار اليام فى سلال طويلة من المخزن وفى عد البذور المعدة فى مجموعات تتكون كل من أربعمائة . وأحيانا يعطى أوكونكو كلا منهما بضعة يامات ليعدها . ولكنه لم يكن ينى عن نقد ما يفعلون معبرا عن ذلك بكثير من التهديدات .

قال لنوويى « أتظن أنك تقطع اليام للطبخ ؟ اذا شققت يامة أخرى بهذا الحجم ، فسأكسر فكك . لعلك تظن أنك ما زلت طفلا . لقد بدأت مزرعة خاصة بى وأنا فى مثل سنك . وأنت » موجها كلامه الى اكيميفونا « ألا تزرعون ياما فى بلادكم ؟ » .

عرف أوكونكو فى قرارة نفسه أن الصبيين ما زالا أصغر

من أن يفهما تماما فن اعداد بذور اليام الصعب . ولكنه ظن أنه كلما بدأ المرء مبكرا كلما كان ذلك أفضل . ان اليـــام يمثل الرجولة والشخص الذى يستطيع أن يطعم أسرته ياما من أحد مواسم الحصاد الى الموسم الآخر رجل عظيم جدا حقا . أراد أوكونكو لابنه أن يكون مزارعا ناجحا ورجلا عظيما . سيقضى على بوادر الكسل التى تثير قلقـــه والتى ظن أنه يراها فيه بالفعـــل .

« لن أرضى بأن يكون لى ابن لا يستطيع أن يرفع رأسه فى اجتماع العشيرة . أفضل أن أخنقه بيدى » . ثم نهره قائلا : « اذا وقفت تحملق فى هكذا ، فسيكسر أماديورا رأسك ! » .

وبعد مرور بضعة أيام وعندما بللت الأمطار الغزيرة الأرض مرتين أو ثلاث مرات ، ذهب أوكونكو وأسرته الى المزرعـــة يحملون ســـلال بذور اليام والفئوس والخناجر وبدأ الزرع . عملوا أكواما صغيرة من التربة فى خطوط مستقيمة تغطى الحقل كله ثم زرعوا اليام فيها .

ان اليام ، ملك المحاصيل ، ملك صارم . يتطلب طيلة ثلاثة أو أربعة أشهر قمرية عملا شاقا وعناية مستمرة من صياح الديك الى ذهاب الدجاج للمبيت . ويقوم الزراع بوقاية الأغصـــان البضة من حرارة الأرض بأسيجة من أوراق السيزال . وعندما تزداد غزارة الأمطار تزرع النساء الذرة ، والشمام والبقول بين

أكوام اليام . ثم توضع العصى ليتسلق عليها نبات اليام ، توضع أولا عصى صغيرة ثم أغصان الأشجار الطويلة الكبيرة . وتقوم النساء باستئصال الحشائش الزائدة من المزرعة ثلاث مرات فى مواعيد معينة من حياة اليام ، لا هى بالمتأخرة ولا بالمبكرة .

أما الآن فجاءت الأمطار حقا ، جاءت بغزارة واصرار كبيرين حتى ان صانع أمطار القرية لم يعد يزعم أنه قادر على التدخل. لم يكن بوسعه أن يوقف المطر الآن ، كما لم يكن بوسعه أن يبدأه فى قلب موسم الجفاف ، دون أن يعرض حياته لخطر جدى . ان الديناميكية الشخصية التى يتطلبها الوقوف ضد قوى المناخ المتطرفة أكبر بكثير من أن يتحملها الهيكل الانسانى.

وهكذا لم يتدخل أحد فى شئون الطبيعة فى وسط الفصل الممطر . كانت الأمطار تهطل أحيانا بغزارة شديدة بحيث تبدو الأرض والسماء وكأنهما قد غمستا فى طبقة رمادية كبيرة من البلل . لم يكن من السهل عندئذ أن يقطع المرء برأى بشأن قصف رعد أماديورا المنخفض وهل ينبعث من أعلى أو من أسفل . فى مثل هذه الأوقات ، وفى كل كوخ من أكواخ أوموفيا العديدة المسقوفة ، يجلس الأطفال حول موقد أمهم وهى تطهو الطعام ، يرددون القصص ، أو مع أبيهم فى كوخه الخاص يصطلون أمام النار التى تغذيها قطع الخشب ، يشوون الذرة ويأكلونها . كان ذلك الوقت فترة راحة قصيرة بين فصل الغرس

الشاق الصارم وشهر الحصاد وهو شهر صارم أيضا ولكنه مرح خفيف الظل .

وبدأ اكيميفونا يشعر بأنه فرد من أفراد أسرة أوكونكو . حقيقة أنه ما زال يفكر فى أمه وأخته التى تبلغ من العمر ثلاث سنوات ، وما زالت تنتابه لحظات من الحزن والكآبة ولكنه ونوويى تعلقا ببعضهما تعلقا شديدا حتى أن مثل هذه اللحظات صارت أقل حدوثا وأقل حدة عن ذى قبل . وكان لدى اكيميفونا معين لا ينضب من الحكايات الشعبية . حتى تلك التى يعرفها نوويى كان اكيميفونا يرويها بنضارة جديدة ونكهة محلية تابعة لقبيلة مختلفة . لقد ظل نوويى يذكر هذه الفترة بوضوح شديد الى آخر حياته . بل انه ظل يذكر كيف ضحك عندما أخبره اكيميفونا ان الاسم الصحيح لسنبلة القمح التى لم يبق بها سوى عدد قليل من الحبات المبعثرة هو «ايزى ــ اجادى ــ نوايى» أو أسنان امرأة عجوز . فقد انتقل ذهنه بسرعة الى نوايكى التى كانت تعيش بجوار شجرة « الأودالا » . كان بفمها حوالى ثلاث أسنان . ولم تكن تنقطع عن تدخين غليونها .

وخفت الأمطار تدريجيا وأصبحت أقل حدوثا ومرة آخرى انفصلت الأرض عن السماء . وسقط المطر فى خطوط مائلة بينما سطعت الشمس وهدأت الرياح . ولم يبق الأطفال داخل المنازل بل راحوا يجرون فى الخارج ويغنون :

« المطر يسقط والشمس ساطعة

وناندى وحده يطبخ ويأكل » .

طالما عجب نوويى من يكون ناندى هذا ولماذا يعيش بمفرده يطبخ ويأكل . وفى النهاية قرر أن ناندى لابد أن يعيش فىأرض حكاية اكيميفونا المفضلة حيث يعيش النمل فى أبهة داخل قصره وحيث ترقص الرمال الى الأبد .

الفصل الخامس

اقترب فصل اليام الجديد وساد أوموفيا جو العيد . كانت فرصة لتقديم الشكر لآنى ، الهة الأرض ومصدر كل خصب . لقد كانت آنى تلعب فى حياة الناس دورا أكبر مما تلعبه أية الهة أخرى . كانت الحكم النهائى للخلق والسلوك . وعلاوة على ذلك كانت على اتصال وثيق بمن انتقل من آباء القبيلة وممن ووريت أجسامهم التراب .

أما عيد اليام الجديد فيحتفل به كل عام قبل بدء الحصاد لتكريم الهة الأرض وأرواح أسلاف القبيلة . ولا يمكن أكل اليام الجديد قبل تقديم بعضه أولا لهذه القوى . وكان الرجال والنساء والصغار والكبار يتطلعون الى عيد اليام الجديد لأنه بداية فصل الوفرة — السنة الجديدة . وفى آخر ليلة قبل المهرجان يتخلص أولئك الذين بقى لديهم يام من العام المنصرم منه . اذ يجب أن يبدأ العام الجديد بيامات جديدة لذيذة الطعم وليس بمحصول العام السابق المنكمش المعروق . وحينئذ تغسل جميع آنية الطهو والقرعات المستخدمة للشرب والطاسات

الخشبية تماما ، وخاصة الوعاء الخشبى الذى يدق فيه اليام ، ويشكل طبق فوفو (١) اليام وحساء الخضروات الطعام الرئيسى فى هذا الاحتفال ، وتطبخ منه كميات كبيرة لدرجة أنه مهما أغرقت الأسرة فى الأكل فان كميات كبيرة تبقى دائما فى نهاية اليوم . وهناك قصة الرجل الغنى الذى وضع أمام ضيوفه تلا من الفوفو بلغ ارتفاعه حدا جعل من المتعذر على أولئك الذين يجلسون على أحد جوانبه أن يروا ما يحدث فى الجانب الآخر وكيف أن أحدهم لم ير نسيبه الذى حضر أثناء الأكل وجلس يتناول طعامه على الجانب الآخر الا فى وقت متأخر من المساء ، بحيث لم يتبادلا التحية ويتصافحا الا فوق ما تبقى من الطعام .

وهكذا كان مهرجان اليام الجديد مناسبة للفرح فى جميع أنحاء أوموفيا . وكان من المتوقع أن يدعو كل رجل ذى ذراع قوية ، كما يقول قوم الايبو ، عددا كبيرا من الضيوف من كل صوب وحدب . كان أوكونكو يدعو دائما أقارب زوجاته . وبما أن عدد زوجاته بلغ الآن ثلاث فان ضيوفه بلغوا عددا لا يستهان به .

غير أن أوكونكو بشكل ما لم يتحمس قط لهذه الأعياد

(١) الفوفو : طبق وطنى يشبه العصيدة ويصنع من اليام المجفف المدقوق .
(المترجمة)

مثل معظم الناس . كان يأكل بشهية ويستطيع أن يشرب ملء قرعة أو قرعتين كبيرتين من خمر النخيل . لكنه يشعر بعدم الارتياح وهو يجلس عدة أيام فى انتظار حلول عيد أو الانتهاء منه . كان يشعر بسعادة أعظم وهو يعمل فى مزرعته .

وحين لم يبق على العيد سوى ثلاثة أيام ، حكت زوجات أوكونكو الجدران والأكواخ بالتربة الحمراء الى أن عكست الضوء . ثم رسمن بعد ذلك الزخارف عليها باللــون الأبيض والأصفر والأخضر الداكن . ثم أخذن فى طلاء أنفسهن بخشب الكام ورسم زخارف سوداء جميلة على بطونهن وظهورهن . كذلك زين الأطفال ، وخاصة شعورهم ، التى قصت فى شكل زخارف جميلة . وتحدثت النساء الثلاث باهتمام عن الأقارب الذين دعوا ، واغتبط الأطفال متوقعين تدليل هؤلاء الزوار من بلد الأم لهم . ولم يقل اكيميفونا حماسا عن الآخرين . بدا له عيد اليام الجديد هنا حدثا أكبر بكثير منه فى قريتــه ، التى صارت الآن مكانا بعيدا غير واضح فى مخيلته .

ثم انفجرت العاصفة . اذ بغتة وجد أوكونكو وهو يسير دون مقصد فى فنائه ، كاتما غيظه ، مخرجا لهذا الغيظ .

سأل « من قتل شجرة الموز هذه ؟ » .

فنزل فى التوسكون على الفناء .

« من قتل هذه الشجرة ؟ أو هل أصـــبتم جميعا بالصمم والبكم ؟ » .

كانت الشجرة فى الواقع حية جدا . كل ما هنالك أن زوجة أوكونكو الثانية قد قطفت بضعة أوراق لتلف شيئا من الطعام واعترفت بذلك . ودون أدنى نقاش ضربها أوكونكو ضربا مبرحا وتركها تبكى هى وابنتها الوحيدة . لم تجرؤ واحدة من زوجتيه الأخريين على التدخل بأكثر من بضعة كلمات على سبيل التجربة، من وقت لآخر مثل « كفى يا أوكونكو » ، قلنها باستعطاف ومن بعد معقول .

وهكذا بعد أن شفى غليـــله ، قرر أوكونكو أن يخـــرج للصيد . كان لديه بندقية قديمة علاها الصدأ ، صنعها حداد ماهر جاء ليعيش فى أوموفيا منذ أمد بعيد . الا أن أوكونكو بالرغم من كونه رجلا عظيما اعترف الجميع له بالشجاعة ، لم يكن صيادا ماهرا . وفى الواقع لم يقتل ولو فأرا ببندقيته . وهكذا عندما دعا اكيميفونا ليحضر بندقيته ، تمتمت الزوجة التى ضربت لتوها بشىء عن البنادق التى لم تطلق قط . سمعها أوكونكو لسوء حظها وجرى كالمجنون الى حجرته لاحضـــار البندقية المحشوة بالبارود ، ثم يجرى مرة أخرى نحو الخارج وصوب نحوها وهى تتسلق حائط المخزن المنخفضة . ضغط على الزناد فسمع صوت طلقة مرتفع يصحبه عويل الزوجـات

والأطفال . رمى البندقية أرضا وقفز الى المخزن حيث رقدت المرأة ، وقد هزها الخوف والرعب هزا عنيفا ولكن دون أن يصيبها أذى . تنهد من الأعماق ثم غادر المكان يحمل البندقية .

وبالرغم من هذا الحدث احتفل بعيد اليام الجديد بفرح عظيم فى بيت أوكونكو . عندما قدم فى صباح اليوم المبكر ضحية من اليام الجديد وزيت النخيل لأسلافه طلب اليهم أن يحموه هو وأولاده وأمهاتهم فى العام الجديد .

عندما يتقدم النهار وصل أنسباؤه من قرى ثلاث مجاورة ، وأحضرت كل جماعة منهم وعــاءا ضخما من خمر النخيــل . واستمر المأكل والمشرب حتى المساء ، عندما بدأ أنسباء أوكونكو فى العودة الى منازلهم .

أما اليوم الثانى من العــام الجــديد فكان موعد مباراة المصارعة الكبرى بين قرية أوكونكو وجيرانها . من الصعب أن يحدد المرء أيهما يستمتع به الناس لدرجة أكبر ـــ التعييد وروح الاخاء التى تميز اليوم الأول أم مباراة المصارعة التى تقام فى اليوم الثانى . لكن امرأة واحدة لم يساورها أدنى شك . تلك هى زوجة أوكونكو الثانية ، التى كادت تصيبها رصاصة . ما من مهرجان أدخل البهجة والسرور الى قلبها فى أى موسم من المواسم مثلما كانت تفعل مباراة المصارعة . منذ سنوات عدة عندما كانت

ملكة جمال القرية فاز أوكونكو بقلبها عندما هزم « القط » فى أعظم مباراة يذكرها الانسان . لم تتزوجه حينذاك لأنه كان فقيرا لدرجة لا تمكنه من دفع مهرها . ولكن بعد بضعة سنوات هربت من زوجها وجاءت لتعيش مع أوكونكو . حدث كل ذلك منذ مدة طويلة . فقد أصبحت أكويفى الآن امرأة فى الخامسة والأربعين من عمرها ، وقد قاست الكثير فى حياتها . لكن حبها لمباريات المصارعة ظل قويا كما كان منذ ثلاثين سنة .

لم يحل الظهر بعد فى اليوم الثانى من مهرجان اليام الجديد . جلست اكويفى وابنتها الوحيدة ، ازنما ، بجوار الموقدة ينتظران غليان الماء بالقدر . كانت الدجاجة التى ذبحتها اكويفى لتوها فى الاناء الخشبى . وأعادت القدر الفارغ الى القاعدة الخشبية المستديرة فى الركن ، ونظرت الى راحتيها اللتين اسودتا من الهباب . طالما دهشت ازنما لمقدرة أمها على رفع القدر من على النار بيديها العاريتين .

قالت « اكويفى ، هل من الصحيح أنه عندما يكبر الناس لا تحرقهم النار ؟ » كانت ازنما ، على غير عادة معظم الأطفال ، تدعو أمها باسمها .

وأجابت اكويفى « نعم » اذ لم يكن لديها وقت للجدل . لم يكن يزيد عمر ابنتها عن العاشرة ولكنها كانت أكبر من سنها.

« لكن أم نوويى سقط منها وعاء الحساء الساخن ذلك اليوم وانكسر على الأرض » .

قلبت اكويفى الدجاجة فى الاناء وبدأت تزيل ريشها .

قالت ازنما التى اشتركت فى شد الريش « اكويفى ، ان عينى ترف » .

أجابت الأم « هذا يعنى أنك ستبكين » .

قالت ازنما « لا ، انه هذا الجفن ، الجفن العلوى » .

« هذا يعنى أنك سترين شيئا » .

وسألت « ماذا سأرى ؟ »

« كيف لى أن أعرف ذلك ؟ » كانت اكويفى ترغب فى أن تحل ازنما هذا الأمر بنفسها .

قالت ازنما فى النهاية « آه ، عرفت — انها مباراة المصارعة »

وأخيرا تم تنظيف الدجاجة . وحاولت اكويفى أن تشد المنقار لكنها لم تستطع ذلك لصلابته . فاستدارت على مقعدها المنخض ووضعت المنقار فى النار بضع لحظات . جذبته مرة أخرى فطاوعها .

وهتف صوت من الأكواخ الأخرى « اكويفى ! » انها أم نوويى ، زوجة أوكونكو الأولى .

هتفت اكويفى ردا عليها « أهذا أنا ؟ » كانت تلك هى الطريقة التى يرد بها على النداء من الخارج . لا يجيبون أبدا بنعم خوفا من أن يكون المنادى روحا شريرة .

« هلا أعطيت ازنما جمرة من النار لتحضرها الى ؟ » فقد خرج أبناؤها واكيميفونا الى المجرى .

وضعت اكويفى بضع قطع من الفحم المتقد فى قطعة من قدر مكسور وحملتها ازنما عبر الفناء النظيف المكنوس جيدا الى أم نوويى .

قالت « شكرا لك يا ازنما » . كانت تقشر اليامات الجديدة وفى سلة بجوارها خضروات وبقول خضراء .

قالت ازنما محاولة تقديم خدماتها «دعينى أشعل لك النار».

قالت « شكرا لك ، ايزيجبو » كثيرا ما كانت تدعوها ايزيجبو أى « الطيبة » .

خرجت ازنما وأحضرت بضعة عصى من حزمة ضخمة من خشب الوقود . وكسرتها الى أجزاء صغيرة على كعب قدمها وبدأت تبنى وهى تنفخها بنفسها .

قالت أم نوويى وقد رفعت رأسها عن اليامات التى كانت تقشرها « ستؤذين عينيك بنفخك هذا . استخدمى المروحة . »

ثم وقفت وجذبت المروحة المثبتة فى أحد قوائم السقف . وحالما وقفت دست العنزة المرضعة المتعبة التى كانت تأكل قشر اليام بأدب ، برأسها فى اليام نفسه وقضمت ملء فيها مرتين وهربت من الكوخ لتأكل فى حظيرة الماعز . لعنتها أم نوويى ثم عادت مرة أخرى الى ما تقوم به من تقشير . أما النـار التى كانت توقدها ازنما فانبعثت منها الآن سـحب كثيفة من الدخان . استمرت فى التهوية لها الى أن انفجر منها اللهب . شكرتها أم نوويى ثم عادت الى كوخ أمها .

فى هذه اللحظة وصل الى سمعها صوت قرع الطبول الآتى من بعيد . أتى من ناحية ساحة القرية . فلكل قرية ساحتها الذى يرجع تاريخها الى تاريخ القـرية ذاتهـا ، وحيث تقام جميع الاحتفالات الكبيرة وحفلات الرقص . قرعت الطبول رقصـة المصارعة التى لا يخطئها أحد ـــ سريعة ، خفيفة ، مرحة ، وجاءت تطفو فوق الريح .

تنحنح أوكونكو وحرك قدميه تبعا لقرع الطبول . أثار قرع الطبول الحمية فى نفسه كما كان يفعل ذلك دائما منذ شبابه . كان يرتجف برغبة النصر والقهر ، رغبة كالرغبة فى النساء .

قالت ازنما لأمها « سنتأخر عن المصارعة » .

« لن يبدأوا قبل أن تغرب الشمس » .

« لكنهم يقرعون الطبول ».

« نعم . تبدأ الطبول عند الظهر لكن المصارعة لا تبدأ حتى تأخذ الشمس فى المغيب . اذهبى وانظرى اذا كان والدك قد أخرج يامات لبعد الظهر » .

« لقد فعل ذلك . وبدأت أم نوويى فى طهوها » .

« اذهبى وأحضرى نصيبنا اذن . يجب أن نطبخ بسرعة والا تأخرنا عن المصارعة . » جرت ازنما نحو المخزن وأحضرت معها يامتين من الحائط القزم .

نزعت اكويفى القشر بسرعة . وشمشمت العنزة المرضعة وهى تأكل القشر . قطعت اكويفى اليامات الى قطع صغيرة وبدأت فى اعداد الحساء مستخدمة شيئا من الدجاجة .

وفى تلك اللحظة سمعتا شخصا يصرخ خارج فنائهم . بدأ الصوت شديد الشبه بصوت أوبياجيلى ، أخت نوويى .

« أليست هذه أوبياجيلى تبكى ؟ » هكذا صاحت اكويفى عبر الساحة لأم نوويى . أجابت تلك « نعم ، لابد أنها كسرت قدر مائها » .

اقترب الآن البكاء وما لبث الأطفال أن دخلوا الواحد بعد الآخر وهم يحملون على رءوسهم أقدارا مختلفة الحجم تتناسب

مع أعمارهم . جاء اكيميفونا أولا يحمل القدر الأكبر ، يتبعه عن قرب نوويى وأخواه الأصغر منه سنا . وجاءت أوبياجيلى فى المؤخرة ، والدموع تنهمر على وجهها . وفى يدها الركيزة المصنوعة من القماش والتى كان من المفروض أن تحمل عليها القدر فوق رأسها .

سألتها أمها « ماذا حدث ؟ » فقصت عليها قصتها الحزينة . طيبت الأم خاطرها ووعدت أن تشترى لها قدرا آخر .

كان أخوا نوويى الأصغر منه سنا على وشك أن يخبرا أمهما بحقيقة الأمر عندما نظر اكيميفونا اليهما نظرة صارمة فلزما الصمت . أما الحقيقة فهى أن أوبياجيلى كانت تخطر بقدرها وقد وضعته فى وسط رأسها وثنت ذراعيها أمامها وبدأت تمايل مثلما تفعل الفتاة البالغة . عندما وقع القدر وانكسر انفجرت ضاحكة . ولم تبدأ فى البكاء الا عندما وصلت قرب شجرة « الايريكو » الموجودة خارج فنائهم .

مازالت الطبول تدق باصرار وانتظام . لم يعد صوتها شيئا منفصلا عن القرية النابضة بالحياة . بل أصبح كنبض قلبها . نبض فى الهواء ، وفى ضوء الشمس بل وفى الأشجار ، وملأ القرية بالبهجة والحماس .

غرفت اكويفى نصيب زوجها من الحساء فى وعاء عميق وغطته . حملته ازنما اليه فى كوخه الخاص .

كان أوكونكو يجلس على جلد ماعز يأكل وجبة زوجته الأولى بينما جلست أوبياجيلى التى أحضرت هذه الوجبة من كوخ أمها على الأرض تنتظر حتى يفرغ من أكلها . وضعت ازنما طبق أمها أمامه وجلست مع أوبياجيلى .

صاح بها أوكونكو « اجلسى كامرأة ! » فوضعت ازنما ساقيها جنبا الى جنب وفردتهما أمامها .

سألت ازنما بعد فترة مناسبة « أبى ، هل تذهب لمشاهدة المصارعة ؟ »

أجاب « نعم ، هل تذهبين أنت ؟ »

« نعم » ثم قالت بعد برهة « أيمكننى أن أحضر لك مقعدك ؟ »

« لا ، هذه مهمة صبى . » كان أوكونكو يؤثر ازنما بحب خاص . كانت كبيرة الشبه بأمها التى كانت ذات يوم ملكة جمال القرية . ولكنه لم يبد حبه لها الا فى مناسبات نادرة .

قالت ازنما « كسرت أوبياجيلى قدرها اليوم » .

قال أوكونكو وفمه مملوء بالطعام « نعم ، أخبرتنى بذلك » .

قالت أوبياجيلى « أبى ، يجب ألا يتكلم الناس وهم يأكلون والا أخطأ الفلفل طريقه فى حلوقهم » .

« هذا صحيح جدا . أتسمعين هذا يا ازنما ؟ انك أكبر سنا من أوبياجيلى ولكنها أعقل منك . » كشف طبق زوجته الثانية وبدأ يأكل . أخذت أوبياجيلى الطبق الأول وعادت الى كوخ أمها . ثم جاءت انكيشى تحمل الطبق الثالث . وانكيشى ابنة زوجة أوكونكو الثالثة .

ومن بعيد كان قرع الطبول لا يزال مستمرا .

الفصل السادس

خرجت القرية بأكملها الى الساحة ، الرجال والنساء والأطفال . ووقفوا فى دائرة ضخمة تاركين وسط الساحة خاليا . جلس كبار القرية وعظماؤها على مقاعدهم التى أحضرها لهم أولادهم أو عبيدهم . وجلس أوكونكو بينهم . أما الباقون فوقفوا ما عدا أولئك الذين حضروا مبكرين فاستطاعوا أن يجدوا لهم أماكن على المنصات التى أقيمت بوضع قطع ملساء من الخشب فوق عواميد متفرعة .

لم يحضر المصارعون بعد واحتل الطبالون الميدان . جلسوا هم أيضا أمام دائرة النظارة الضخمة مباشرة ، فى مواجهة كبار القرية . وخلفهم شجرة القطن الكبيرة القديمة المقدسة حيث تعيش أرواح الأطفال الطيبين فى انتظار مولدهم . وفى الأيام العادية تجىء الأمهات الشابات اللاتى يردن أطفالا للجلوس فى ظلها . كانت هناك سبعة طبول رتبت تبعا لأحجامها فى سفط خشبى طويل . قام بقرع هذه الطبول بالعصى ثلاثة رجال ،

يعملون من الواحدة الى الأخرى كالمحمومين . وكأن بهم مسا من روح الطبول .

أما الشبان الذين يشرفون على النظام فى هذه المناسبات فاندفعوا من مكان الى آخر وهم يتشاورون فيما بينهم ومع قادة فريقى المصارعة ، الذين مازالوا خارج الحلقة ، خلف الجمع . من حين لآخر يجرى شابان يحملان عددا من سعف النخيل حول الحلقة ويمنعان الجمهور من التقدم عن طريق ضرب الأرض أمامهم . أما اذا أصروا على التقدم فيضربون أرجلهم وأقدامهم .

وأخيرا رقص الفريقان الى داخل الحلقة وصاح الجمهور وصفق . جنت الطبول وتدفق الناس الى الأمام . أسرع الشبان المنوط بهم حفظ النظام وهم يلوحون بسعف النخيل الذى يحملونه . هز الشيوخ رءوسهم على ضربات الطبول وتذكروا الأيام التى قاموا بالمصارعة فيها على هذا الايقاع الذى يبعث النشوة فى النفوس .

بدأت المسابقة بصبية فى الخامسة والسادسة عشر من العمر لم يكن هناك سوى ثلاثة صبية فى كل فريق . لم يكونوا هم المصارعين الحقيقيين ولكنهم هيئوا الجو فقط .

سرعان ما انتهت الجولتان الأوليان . لكن الجولة الثالثة أثارت حماسا شديدا حتى بين الشيوخ الذين لا يفصحون عادة عن بهجتهم واهتمامهم . لم تقل هذه الجولة سرعة عن سابقتيها ،

بل لعلها فاقتهما فى ذلك . غير أن هذا النوع من المصارعة لم يره من قبل سوى نفر قليل جـدا . ففى اللحظة التى التحم فيها الصبيان قام أحدهما بشيء لم يتمكن أى فرد من وصفه لأنه كان سريعا كالوميض . ورؤى الصبى الآخر ملقى على ظهره . صاح الجمهور بصوت كالزئير ، وصفق وأغرق الطبول المجنونة برهة من الزمن . جرى ثلاثة شبان من فريق الصبى المنتصر وحملوه على أعناقهم ورقصوا به وسـط الجمهور الذى يحييه ويهتف له . وسرعان ما عرف الجميع من هو هذا الصبى . كان أسمه مادوكا ، ابن أوبيريكا .

توقف الطبالون فترة وجيزة للراحة قبل المباريات الحقيقية . ولمع العرق على أجسامهم ، وتناولوا مراوح وبدأوا فى التهوية لأنفسهم . شربوا أيضا ماء من أقدار صغيرة وأكلوا من ثمـار الكولا . أصـبحوا مـرة أخـرى بشرا عـاديين ، يتكلمون ويضحكون فيما بينهم ومع الآخرين ممن وقفوا بالقرب منهم . وساد الجو مرة أخرى شعور بالراحة بعد أن بلغ التوتر والانفعال حدا بعيدا . وكأن ماء قد سكب على جلد طبلة مشدود . وتلفت كثير من الناس حولهم ربما للمرة الأولى ، ورأوا أولئك الذين يقفون خلفهم أو يجلسون بجوارهم .

« لم أعلم أنك أنت ». هكذا خاطبت اكويفى المرأة التى وقفت الى جوارها وكتفاهما متلاصقان منذ بداية المباريات .

قالت المرأة « انى ألتمس لك العذر ، فلم أر فى حيـاتى جمهورا كبيرا كهذا . هل حقا كاد أوكونكو يقتلك ببندقيته ؟»

« نعم يا صديقتى العزيزة . لا يمكننى بعد أن أجد الكلمات التى أقص بها الحكاية » .

« ان الهك الخاص فى غاية اليقظة يا صديقتى . وكيف حال ابنتنا ايزنما ؟ » .

« ها قد استمر حالها على ما يرام فترة من الزمن . ولعلها جاءت لتبقى » .

« أعتقد ذلك . كم عمرها الآن ؟ »

« انها فى العاشرة تقريبا » .

« أعتقد أنها ستبقى . انهم عادة يبقون اذا لم يموتوا قبل سن السادسة » .

قالت اكويفى وهى تتنهد من الأعماق « أدعو أن تبقى » .

أما المرأة التى كانت تتحدث اليها فتدعى تشيلو ، كاهنة أجبالا ، عراف التلال والكهوف . أما فى الحياة العادية فتشيلو أرملة لها طفلان . تربطها باكويفى مودة ، وتشتركان معا فى حظيرة واحدة فى السوق . وهى مغرمة بوجه خاص بابنة اكويفى الوحيدة ، ايزنما ، التى تدعوها « بابنتى » وكثيرا ما تحضر

كعك بقول وتعطى بعضه لاكويفى لتحمله معها الى الدار لازنما . ومن يرى تشيلو فى الحياة العادية لا يكاد يصدق أنها نفس الشخص الذى يتنبأ عندما تهبط عليها روح أجبالا .

أخذ الطبالون عصيهم مرة أخرى واهتز الهواء وتوتر مثل القوس المشدود .

اصطف الفريقان الواحد مواجها للآخـــر فى طرفى المكان الخالى . رقص رجل من أحد الفريقين عبر الوسط الى الفريق الآخر وأشار الى الشخص الذى رغب فى منازلته . ورقصـــا عائدين معا الى الوسط ثم التحما .

وكان كل فريق يتكون من اثنى عشر شابا وانتقل التحدى من فريق الى الآخر . وسار حكمان حول المصارعين وعندما يريان أنهما متساويان ، يوقفانهما . انتهت خمس مباريات على هذا الوجه . لكن اللحظة المثيرة حقـــا هى تلك التى يلقى فيها برجل أرضا . فعندئذ يرتفع صوت الجمهور الضخم الى السماء وفى كل جهة . لا بل يسمع فى القرى المحيطة أيضا .

أما المباراة الأخيرة فكانت بين قائدى الفريقين . كانا من أحسن المصارعين فى القرى التسع تساءل الجمهور أيهما سيلقى بالآخر هذا العام . قال البعض ان أوكافو هو الأفضل ، وقال آخرون انه لا يعد ندا لاكيزيو . فى السنة السابقة لم يلق أحدهما

بالآخر بالرغم من أن الحكام قد سمحوا للمباراة أن تستمر وقتا أطول من المعتاد . استخدما نفس الأسلوب وكان الواحد يدرك خطط الآخر قبل أن ينفذها . ربما يحدث هذا مرة أخرى هذا العام .

كان الغسق قد اقترب فعلا عندما بدأت المباراة . جنت الطبول وكذلك الجمع . وتدافع الناس نحو الأمام والشابان يرقصان الى داخل الحلقة . وأصبحت أغصان النخيل عديمة الجدوى فى وقف تقدمهم .

رفع اكيزيو يده اليمنى . أمسك بها أوكافو والتحما . كانت مباراة عنيفة وحشية . جاهد اكيزيو أن يغرس كعبه الأيمن خلف أوكافو حتى يلقى به الى الخلف تبعا لأسلوب الايجى ، الماهر . لكن هذا أدرك ما كان يدور بخلد ذاك . كان الجمهور قد أحاط بالطبالين وابتلعهم . أما الطبالون فلم يعد ايقاعهم المجنون مجرد صوت لا جسم له بل أصبح دقات قلب الناس أنفسهم .

وقف المصارعان الآن شبه ساكنين الواحد فى قبضة الآخر . برزت العضلات على أذرعهما وافخذهما وارتعشت . واتسمت المباراة بالندية . وبدأ الحكام فى التقدم لفصلهما عندما هبط اكيزيو ، الذى أصابه اليأس ، بسرعة على ركبة واحدة فى محاولة للالقاء بخصمه الى الخلف فوق رأسه . لكنه أخطأ التقدير بشكل

مؤسف . فبسرعة برق أما ديورا ، رفع أوكافو ساقه اليمنى ولفها حول رأس خصمه . انفجر الجمع فى صياح كالرعد . حمل أوكافو مؤيدوه بسرعة الى الدار على الأكتاف ، وهم يغنون بمدحه والشابات تصفقن بأيديهن :

« من سيصارع لقريتنا ؟

سيصارع أوكافو لقريتنا .

هل القى أرضا بمائة رجل ؟

ألقى أرضا بأربعمائة رجل .

هل ألقى أرضا بمائة « قط » ؟

ألقى بأربعمائة « قط » .

اذن اطلبوا اليه أن يحارب من أجلنا . »

الفصل السابع

عاش اكيميفونا فى كنف أوكونكو ثلاث سنوات وكأنما نسيه شيوخ أوموفيا . كبر بسرعة كنبات اليام فى الفصل الممطر، يملؤه ماء الحياة . واندمج اندماجا تاما فى أسرته الجديدة . كان كأخ أكبر سنا لنوويى ، ومنذ البداية بدا وكأنه أشعل نارا جديدة فى الصبى الأصغر سنا . جعله يشعر بأنه شخص بالغ . لم يعودا يقضيان الأمنيات فى كوخ الأم وهى تقوم بطهى الطعام ، بل يجلسان مع أوكونكو فى كوخه الخاص ، أو يراقبانه يستخرج خمرا للمساء من شجرة النخيل . لم يعد يسر نوويى لشىء الآن أكثر من أن تستدعيه أمه أو احدى زوجات والده ليقوم بأحد تلك الأعمال المنزلية التى تحتاج الى ذكر للقيام بها ، مثل شق الخشب أو دق الطعام . فعندما تصله مثل هذه الرسالة عن طريق أخ أو أخت أصغر منه سنا ، يدعى نوويى المضايقة ويتذكر بصوت مرتفع من النساء ومتاعبهن .

سر أوكونكو فى داخله لتطور ابنه ونموه ، وعلم أن ذلك يرجع الى اكيميفونا . كان يرغب أن ينمو نوويى ويصبح شابا

خشنا ، قادرا على حكم بيت أبيه عندما يموت ويلحق بأسلافه . وكان يرغب أن يصبح رجلا غنيا ، يحوى مخزنه ما يكفى لتغذية أسلافه بأضحيات منتظمة . وهكذا كان يسعده دائما أن يسمعه يتذمر من النساء . اذ يدل ذلك على أنه فى الوقت المناسب سيقدر على حكم نساء بيته . فمهما بلغ ثراء الرجل ، اذا لم يستطع حكم نسائه وأطفاله (وخاصة نسائه) ، فهو ليس رجلا حقا . بل ان مثله مثل الرجل الذى تحكى عنه الأغنية والذى كان له عشر زوجات وزوجة ولم يكن لديه حساء كاف لاعداد طعام الفوفو .

وهكذا شجع أوكونكو الولدين على الجلوس معه فى كوخه الخاص ، وقص عليهما قصصا رجولية عن العنف وسفك الدماء . علم نوويى أنه من الصواب أن يكون المرء ذكرا عنيفا ، ولكنه بشكل ما مازال يفضل القصص التى اعتادت أمه أن تقصها والتى ما زالت تقصها دون شك على الأطفال الأصغر سنا — قصص السلحفاة ودهائها ، والطائر « انكى — انتى — أوبا » الذى تحدى العالم كله للاشتراك معه فى مباراة مصارعة وألقى به « القط » أرضا فى النهاية . كان يذكر القصص التى كثيرا ما قصتها عن النزاع الذى حدث بين الأرض والسماء منذ زمن بعيد ، وكيف حجزت السماء المطر طيلة سبع سنوات ، حتى ذبلت المحاصيل وأصبح من المتعذر دفن الموتى لأن الفؤوس كانت تتكسر على الأرض الحجرية . وأخيرا أرسل الصقر

ليستعطف السماء ويسترق قلبها بأغنية عن آلام بنى البشر . كان يشعر ، كلما غنت أم نوويى هذه الأغنية وكأنه حمل بعيدا الى ذلك المنظر البعيد فى السماء حيث غنى الصقر ، رسول الأرض ، طلبا للرحمة . وأخيرا رق قلب السماء وأعطت الصقر المطر ملفوفا فى أوراق يام الكاكاو . ولكن حدث وهو يطير فى طريقه الى الوطن أن نفذ مخلبه الطويل خلال الأوراق وسقط المطر كما لم يسقط من قبل . وبلغت كثافة الأمطار التى استمرت فى الهطول درجة منعت الصقر من العود ليبلغ الرسالة فطار الى أرض بعيدة حيث لمح نارا . وعندما وصل الى هناك وجد رجلا يقدم ضحية . فاصطلى بالنار وأكل الأحشاء .

كان هذا هو نوع القصص التى يحبها نوويى . لكنه يعلم الآن آنها تصلح للنساء الغريرات والأطفال ، ويعلم أن والده يريده أن يكون رجلا . ولذا يتظاهر بأنه لم يعد يهتم بقصص النساء . ويرى عندما يفعل ذلك أن ذلك يسر والده ، الذى لم يعد يعنفه أو يضربه . وهكذا كان نوويى واكيميفونا ينصتان لقصص أوكونكو عن الحروب القبلية ، أو عن كيف أمسك هو، منذ سنوات مضت ، بغريمه وغلبه وحصل على أول رأس بشرى . يجلسون ، وهو يخبرهم عن الماضى فى الظلام أو فى ضوء الكتل الخشبية الباهت ، فى انتظار انتهاء النساء من طهو الطعام . وعندما ينتهين ، تحضر كل منهن وعاء الفوفو ووعاء

الحساء لزوجها . يوقد مصباح البترول ويذوق أوكونكو كل صنف ثم يناول نويي واكيميفونا نصيبيهما .

وعلى هـذه الوتيرة مضت الشهور والفصول ، ثم جـاء الجراد . لم يحدث هذا منذ أمد بعيد . قال الشيوخ ان الجراد يأتى مرة كل جيل ويعود للظهور كل سنة لمدة سبع سنوات ثم يختفى طيلة مدة حياة أخرى . يعود الى كهوفه فى أرض بعيدة حيث يقوم على حراسته جنس من الرجال الأقزام . ثم بعـد فترة حياة يفتح هؤلاء الرجال الكهوف مرة أخرى ويأتى الجراد الى أوموفيا .

يأتى الجراد فى فصل رياح الهرماتان الباردة بعد أن تجمع المحاصيل ، ويأكل كل العشب البرى فى الحقول .

كان أوكونكو يعمل مع الصبيين فى تغطية جدران الفنـاء الخارجية الحمراء . فهذا أحد الأعمال الخفيفة لفصل ما بعـد الحصاد . يوضع غطاء جديد من أغصان النخيل الكثيفة وأوراق النخيل على الحوائط لحمايتها من الفصل المطير التالى . كان أوكونكو يعمل فى الجانب الخارجى من الجدار ويعمل الصبيان من الداخل . تخترق الطبقات العليا من الجدار فتحات من جانب الى الآخر ، ومن خلال هذه الفتحات مرر أوكونكو الحبـل (أو الربط ـــ ربط) للصبيين ومرراه هما حول العمد الخشبية ثم مرة أخرى اليه ، وبهذه الطريقة يثبت الغطاء على الحائط .

أما النساء فذهبن الى الغابة لجمع خشب للوقود ، وذهب الأطفال لزيارة زملاء اللعب فى الأفنية المجاورة . كانت رياح الهرماتان فى الجو وبدت وكأنها تقطر على العالم ميلا الى النوم. عمل أوكونكو والصبيان فى صمت تام ، لا يبدده سوى صوت رفع غصن نخلة جديد على الجدار أو دجاجة دؤوب تحرك أوراق الشجر الجافة فى بحثها المستمر عن الطعام .

ثم بغتة وقع ظل على العالم ، واختبأت الشمس خلف سحابة كثيفة . رفع أوكونكو بصره الى أعلى وتعجب ما اذا كان المطر سيسقط فى مثل هذا الوقت غير المألوف من السنة . وعلى التو تقريبا دوت صرخة فرح من جميع الجهات ودب النشاط والحياة فى أوموفيا التى كانت تغفو فى حر الظهرة .

« الجراد يهبط » هكذا غنى الجميع فرحين فى كل مكان ، وترك الرجال والنساء والأطفال أعمالهم أو لعبهم وعدوا فى الخلاء ليشاهدوا المنظر الفريد . لم يأت الجراد منذ سنوات عديدة ، عديدة ، ولم يره قبل ذلك غير المسنين من الناس .

ولم تأت فى بادىء الأمر سوى مجموعة صغيرة ، تتكون من الرسل الذين أرسلوا لمعاينة المكان . ثم ظهرت فى الأفق مساحة تتحرك ببطء كصحيفة لا حدود لها من السحاب الأسود ، تتجه نحو أوموفيا . سرعان ما غطت نصف السماء وافترت الكتلة

الصلبة الآن عن عيون صغيرة من النور مثل تراب النجوم اللامع . كان منظرا هائلا ، مفعما بالقوة والجمال .

أصبح الجميع يتحركون الآن ، ويتحدثون بحماس واهتمام ويدعون أن يقضى الجراد تلك الليلة فى أوموفيا . فبالرغم من أن الجراد لم يزر أوموفيا منذ سنوات طويلة ، فقد عرف الجميع بالغريزة أن الجراد طعام شهى . وأخيرا هبط الجراد بالفعل . واستقر على كل شجرة وعلى كل نصل من الحشيش . استقر على الأسطح وغطى الأرض العارية . وتكسرت أغصان ضخمة تحت ثقله ، وأصبحت كلها فى لون الأرض البنية اللون ، لون الجيش الضخم الجائع .

خرج كثير من الناس بالسلال لاقتناص الجراد ، ولكن الشيوخ نصحوهم أن يصبروا حتى يحل الليل . وقد كانوا على صواب ، اذ استقر الجراد على الأشجار لقضاء الليل وابتلت أجنحته بالندى ، وعندئذ خرجت أوموفيا بأجمعها بالرغم من رياح الهرماتان الباردة . فى الصباح التالى قلى الجراد فى آنية فخارية ثم نشر فى الشمس الى أن أصبح جافا هشا . وأكل هذا الطعام النادر طيلة عدة أيام بزيت النخيل المتجمد .

كان أوكونكو يجلس فى كوخه الخاص يمضغ طعامه بصوت مسموع وبسعادة مع اكيميفونا ونوويى ، ويشرب خمر النخيل

بغزارة ، عنـدما دخـل أوجبوفى ايزودو . كان ايزودو أكبر الرجال سنا ، فى هذا الحى من أوموفيا . كان فى أيامه محاربا عظيما مهابا . ويحظى الآن باحترام كبير فى العشيرة كلها . رفض أن يشترك فى تناول الطعام وطلب الى أوكونكو أن يذهب معه الى الخارج ليتحدث اليه . وهكذا خرجا معا ، والرجل المسن يتكىء على عصاه . عندما ابتعـدا عن مرمى السـمع ، قال لأوكونكو :

« هذا الصبى يدعوك أبى . لا تمد يدا فى قتله . لا تشترك فى قتله » . دهش أوكونكو ، وهم بالتفوه بشىء ما عندما أردف الرجل المسن قائلا :

« نعم ، لقد قررت أوموفيا قتله . نطق بذلك عراف التلال والكهوف . سيأخذونه الى خارج أوموفيا كما جرت العادة ، ويقتلونه هناك . ولكن أريد ألا يكون لك يد فى هـذا . انه يدعوك يأبى » .

وفى اليوم التالى حضرت مجموعة من الشيوخ من جميع قرى أوموفيا التسع الى بيت أوكونكو فى الصـباح المبكر ، وقبـل أن يبدأوا فى الكلام بصـوت منخفض أرسـل نويى واكيموفونا الى الخارج . لم يمكثوا طويلا ، ولكن عنـدما انصرفوا جلس أوكونكو ساكنا مدة طويلة جدا وهو يسـند ذقنه على راحتيه . وفيما بعد دعا اكيميفونا وأخبره أنه سيؤخذ

الى منزله فى اليوم التالى . سمع نوويى ذلك فانفجر باكيا ، وعندئذ ضربه والده ضربا مبرحا . أما اكيميفونا فلم يكن يدرى من أمره شيئا . فقد أصبح منزله تدريجيا شيئا باهتا جدا وبعيدا جدا . ما زال يفتقد أمه وأخته وسيفرح لرؤيتهما . لكنه كان يعلم بشكل ما أنه لن يراهما . ما زال يذكر مرة تحدث فيها الرجال لوالده بصوت منخفض ، وبدا الآن وكأن الأمر يتكرر مرة أخرى .

ذهب نوويى بعد ذلك الى كوخ والدته وأخبرها أن اكيميفونا سيذهب الى منزله . وعلى الفور تركت المدق الذى كانت تدق به الفلفل يسقط من يدها ، وعقدت ذراعيها على صدرها ، وتنهدت ، « يا للطفل المسكين » .

وفى اليوم التالى عاد الرجال بقدر من الخمر ، وقد تحلوا جميعا بالثياب الرسمية كما لو كانوا ذاهبين الى اجتماع كبير للعشيرة أو لزيارة قرية مجاورة . مرروا ازاراتهم تحت الابط الأيمن وعلقوا حقائبهم المصنوعة من جلد الماعز وخناجرهم المغمدة على أكتافهم اليسرى . استعد أوكونكو بسرعة وأخذت الجماعة فى المسير ومعهم اكيميفونا . حتى الأطفال الصغار جدا بدوا وكأنهم يعلمون . جلس نوويى طيلة ذلك اليوم فى كوخ أمه والدموع فى عينيه .

فى بداية الرحلة ، تحدث رجال أوموفيا وضحكوا على

الجراد ، وعلى نسائهم وعلى بعض الرجال المخنثين الذين رفضوا المجيء معهم لكن عندما اقتربوا من أطراف أوموفيا هبط الصمت عليهم أيضا .

ارتفعت الشمس ببطء الى كبد السماء ، وأخذ الطريق الرملى الجاف يبعث الى أعلى بالحرارة المخزونة به . وزقزقت بعض الطيور فى الغابات المحيطة . داست أقدام الرجال الأوراق الجافة على الرمل . أما فيما عدا ذلك فساد الصمت . ثم جاء من بعد قرع الطبلة النحاسية الخافت . ارتفع وخفت مع الريح ــ صوت رقصة سلام من عشيرة بعيدة .

« انها رقصة الأوزو »[1] هكذا قال الرجال فيما بينهم ، ولكن أحد لم يعرف بالتأكيد من أين تأتى . قال البعض فى ايزميلى ، والآخرون من آبامى أو أنينتا . استمر الجدل بينهم فترة قصيرة ثم ما لبثوا أن صمتوا مرة أخرى ، والرقصة التى لا يعلم مصدرها تعلو وتهبط مع الريح . وفى مكان ما كان رجل يأخذ أحد ألقاب عشيرته بصحبة الموسيقى والرقص فى احتفال كبير .

أصبح الممر غير الموصوف الآن خطا ضيقا فى قلب الغابة . بدأت الأشجار القصيرة والنباتات التحتية القليلة التى تحيط

---

(1) الاوزو جماعة وطنية ينتمى اليها الشاب فى مرحلة معينة من حياته ويحصل بذلك على أحد القاب العشيرة .

(المترجمة)

بقرية الرجال تتلاشى وتحل محلها أشـجار ضـخمة ونباتات متسلقة لعلها بقيت من بدء الخليقة دون أن يمسها فأس أو حريق نشب فى الغابة . وصنعت الشمس وهى تتخلل أوراقها وغصونها زخرفا من النور والظل على الطريق الرملى .

سمع اكيميفونا همسا قريبا خلفه فاستدار بسرعة . أما الرجل الذى همس فدعا الآخرين الآن بصوت جهورى أن يسرعوا .

قال « ما زالت أمامنا مسافة طويلة » ثم تقدم هو ورجـل آخر اكيميفونا وأسرعا المسير .

وهكذا استمر رجال أوموفيا فى طريقهم ، وهم مسلحون بالخناجر المغمدة ، وسار اكيميفونا بينهم ، وهو يحمل قدرا من خمر النخيل على رأسه . بالرغم مما انتابه من شعور بالقلق فى بادىء الأمر ، الا أن الخـوف قد زايله الآن . سار أوكونكو خلفه . كان من الصعب أن يتصـور أن أوكونكو ليس والده الحقيقى . لم يشعر قط بالحب نحو أبيه الحقيقى وفى نهاية سبع سنوات أصبح الأب بعيدا جدا حقا . أما أمه وأخته البالغة من العمر ثلاث سنوات .. بالطبع لم تعد فى الثالثة الآن ، بل فى السادسة ، هل سيتعرف عليها الآن ؟ لابد أنهـا كبرت كثيرا . كيف ستبكى أمه فرحا ، وتشكر أوكونكو على عنايته به هذه العناية الفائقة واعادته اليها . سترغب فى سماع كل ما حدث له

طيلة هذه السنوات كلها . هل سيذكر كل شيء ؟ سيحدثها عن نوويى وأمه ، وعن الجراد .. ثم بغتة عنت له فكرة . لعل أمه قد توفيت . حاول دون جدوى أن ينحي الفكرة بقوة عن ذهنه . ثم حاول أن يسوى الأمر بالطريقة التى اعتاد أن يسوى بها مثل هذه الأمور عندما كان صبيا صغيرا . ما زال يذكر الأغنية :

لا تأكل أيها الملك ، لا تأكل !

سالا .

اذا جرؤت على الأكل أيها الملك .

ستبدأ فى البكاء كالطفل .

ستبدأ فى البكاء حيث يتوج الأرنب ملكا .

وحيث يرقص الوعل .

سالا .

غناها فى ذهنه ، وسار على ايقاعها . اذا انتهت الأغنية على قدمه اليمنى ، فأمه ما زالت حية . واذا انتهت على اليسرى ، فقد ماتت . لا ، لم تمت ، بل هى مريضة . انتهت على اليمنى. انها حية وبخير . غنى الأغنية مرة أخرى ، وانتهت على اليسرى. لكن المرة الثانية لا تحتسب . يذهب الصوت الأول الى أشوكو ، أو بيت الله . هذا قول مأثور لدى الأطفال . شعر اكيميفونا

وكأنه طفل مرة أخرى . لابد أن ذلك يرجع الى فكرة ذهابه الى منزله والى أمه .

تنحنح أحد الرجال من خلفه . نظر اكيميفونا الى الوراء ، وزمجر الرجل طالبا اليه أن يستمر فى المسير ولا يقف لينظر الى الخلف . أما الطريقة التى قال بهـا ذلك فجعلت البرودة تسرى فى أوصال اكيميفونا . ارتجفت يده رجفة مبهمـة على القدر الأسود الذى يحمله . لماذا ارتد أوكونكو الى المؤخرة ؟ أحس اكيميفونا بساقيه يذوبان من تحته . وخاف أن ينظـر الى الخلف .

وعندما تقدم الرجل الذى تنحنح ورفع فأسه ، أدار أوكونكو رأسه . سمع الضربة . وقع القدر وانكسر على الرمل . سمع اكيميفونا يصرخ « أبى ، لقـد قتلونى » وهو يجرى نحـوه . جذب أوكونكو فأسه وقد استبد به الخوف ، وانقض به عليه . كان يخشى أن يظنه أحد ضعيفا .

عرف نوويى ، عندما دخل أبوه ، فى ذلك المسـاء ، أن اكيميفونا قد قتل ، وشعر كأن شيئا قد تقطع بداخله ، مثـل انقطاع الرمح المشدود . لم يبك . بقى فقـط وقد تفككت أوصاله . لقد أحس بنفس هذا النوع من الاحساس منذ فترة ليست بعيدة ، أثناء موسم الحصاد الأخير . ان كل طفل يحب موسم الحصاد . وهؤلاء الذين يمكنهم حمل حتى بضعة يامات

فى سلة صغيرة يذهبون مع الكبار الى المزرعة واذا لم يستطيعوا أن يساعدوا فى استخراج اليام من الأرض ، فانهم يستطيعون جمع قطع الخشب لقلى اليامات التى ستؤكل هناك فى المزرعة . ان هذا اليام المقلى المغموس فى خمر النخيل الأحمر والذى يؤكل فى الهواء الطلق فى المزرعة أحلى من أية أكلة تؤكل فى البيت . لقد حدث ذلك بعد يوم كهذا فى المزرعة أثناء الحصاد الأخير ، شعر نوويى لأول مرة بتقطع فى داخله مثل هـذا الذى يشعر به الآن .

ففى طريق عودتهم للمنزل وهم يحملون سلال اليـام من مزرعة بعيدة عبر المجرى سمعوا صوت طفل يصرخ فى الغابة الكثيفة . وبغتة خيم الصمت على النساء ، اللاتى كن يتحدثن ، وأسرعن الخطى . كان نوويى قد سـمع أن التوائم توضع فى آنية فخارية ويلقى بها فى الغـابة ، ولكنه لم يكن قد صادف ذلك بعد ـــ هبطت عليـه برودة غامضة وبدت رأسـه وكأنه يدور ، مثل شخص يسير بمفرده فى الليل ويمر بروح شريرة فى الطريق . ثم انهار شيء فى داخله . هبط عليه هـذا الشعور مرة أخرى عندما دخل أبوه ، ذلك المساء بعد قتل اكيميفونا .

الفصل الثامن

لم يذق أوكونكو طعاما طيلة يومين بعد موت اكيميفونا . كان يشرب خمر النخيل من الصباح الى المساء ، وعيناه حمراوان متوحشتان مثل عيني الفأر الذى يمسك من ذيله ويلقى به بشدة على الأرض . دعا ابنه نوويى ليجلس معه فى كوخه الخاص . لكن الصبى كان يشعر بالخوف منه وخرج من الكوخ حالما لاحظ أنه نام .

لم ينم أثناء الليل . حاول ألا يفكر فى اكيميفونا ، لكنه كلما حاول ذلك كلما فكر فيه . ومرة قام من فراشه ومشى فى الفناء . لكنه كان ضعيفا لدرجة أن ساقيه لم يقويا على حمله . أحس وكأنه عملاق مخمور يسير على أطراف بعوضة . وبين الآونة والأخرى تهبط رعشة باردة على رأسه وتسرى فى جسمه.

وفى اليوم الثالث طلب من زوجته الثانية ، اكويفى ، أن تقلى له بعض الموز . فأعدته بالطريقة التى يحبها مع شرائح من البقول والسمك .

قالت ابنته ازنما عندما أحضرت له الطعام « لم تأكل منذ يومين . فعليك اذن ألا تبقى على شيء من هذا » . جلست ومدت ساقيها أمامها . أكل أوكونكو الطعام وهو شارد الذهن « ليتها كانت ولدا » هذا ما مر بخاطره وهو ينظر الى ابنته التى تبلغ العاشرة من عمرها . ناولها قطعة من السمك . وقال :

« اذهبى وأحضرى لى بعض الماء البارد » اندفعت ازنما الى خارج الكوخ ، وهى تمضغ السمك ، وسرعان ما عادت بطاس من الماء البارد ملأته من القدر الفخارى الموضوع فى كوخ أمها.

أخذ أوكونكو الطاس من يدها وشرب ما به فى جرعة واحدة . وأكل بضع قطع أخرى من الموز ثم دفع بالطبق جانبا.

ثم قال لازنما « أحضرى لى حقيبتى » ، فأحضرت حقيبته المصنوعة من جلد الماعز من طرف الكوخ البعيد . بحث فيها عن قارورة النشوق . كانت حقيبة عميقة اختفى فيها ذراعه بأكمله تقريبا . كانت تحوى أشياء أخرى بجانب قارورة النشوق . كان بها قرن للشراب وكذلك قرعة للشراب ، وقرع أحدهما الآخر وهو يبحث عن قارورة النشوق . عندما أخرجها قرعها برفق عدة مرات على قمة ركبته قبل أن يأخذ منها قليلا من النشوق على كفه اليسرى . ثم تذكر أنه لم يخرج ملعقة

النشوق . فبحث فى الحقيبة مرة أخرى وأخرج ملعقة صغيرة ، مسطحة من العاج ، حمل بها النشوق البنى اللون الى أنفه .

حملت ازنما الطبق فى يد ، وطاس الماء الفارغ فى اليد الأخرى وعادت الى كوخ أمها . قال أوكونكو محدثا نفسه مرة أخرى « ليتها كانت ولدا » . عاد ذهنه الى اكيميفونا مرة أخرى فأحس برعشة . لو أنه وجد فقط عملا يشغل به نفسه لأمكنه أن ينسى . لكن ذلك موسم الراحة بين الحصاد وموسم الزرع القادم . العمل الوحيد الذى يقوم به الرجال فى هذا الوقت هو تغطية جدران أفنيتهم بأغصان نخيل جديدة . وقد فعل أوكونكو ذلك من قبل . انتهى من ذلك فى ذات اليوم الذى جاء فيه الجراد ، عندما كان يعمل هو فى جانب من الحائط واكيميفونا ونوويى فى الجانب الآخر .

سأل أوكونكو نفسه «متى أصبحت امرأة عجوزا رعديدة ، أنت ، يا من عرفت فى القرى التسع كلها بشجاعتك فى الحرب ؟ كيف يمكن لرجل قتل خمسة رجال فى المعركة أن ينهار تماما لأنه أضاف صبيا الى هذا العدد ؟ أوكونكو ، لقد أصبحت حقا امرأة » .

هب واقفا على قدميه ، وعلق حقيبته المصنوعة من جلد الماعز على كتفه وذهب لزيارة صديقه أوبيريكا .

كان أوبيريكا جالسا فى الخارج فى ظل شجرة برتقال يصنع نسيجا من الخوص . تبادل التحية مع أوكونكو وتقدمه الى كوخه الخاص .

قال وهو يفرك حبات الرمل العالقة بفخذيه « كنت أنوى المجىء لرؤيتك حالما أنتهى من غطاء السقف هذا » .

« هل الأمور على ما يرام ؟ » .

أجاب أوبيريكا « نعم . سيأتى خطيب ابنتى اليوم وأرجو أن ننتهى من أمر مهر العروس . أود أن تكون حاضرا » .

وفى هذه اللحظة دخل ابن أوبيريكا ، مادوكا ، الى الكوخ من الخارج ، وحيا أوكونكو ثم استدار نحو الفناء .

قال أوكونكو للغلام « تعال وصافحنى . لقد سعدت كثيرا بمشاهدة مصارعتك ذلك اليوم » . ابتسم الصبى ، وصافح أوكونكو ثم خرج الى الفناء .

قال أوكونكو « سيقوم بأعمال عظيمة . كم أكون سعيدا ، لو كان لى ابن كهذا . انى قلق بشأن نوويى . انه اناء من اليام المدقوق يلقى به فى مباراة مصارعة . أما أخواه الأصغر منه فيبشران بخير عظيم . ولكن بوسعى أن أقول لك يا أوبيريكا ان أبنائى لا يشبهوننى . أين النباتات الصغيرة التى ستنمو

عندما تموت شجرة الموز العجوز ؟ لو كانت ازنما ولدا ، لكنت أسعد حالا . فروحها هى الروح الحقيقية » .

قال أوبيريكا « انك تقلق نفسك دون مبرر . فما زال الأبناء صغارا جدا بعد » .

« بلغ نوويى من السن ما يمكنه من أن يصبح أبا . فى مثل سنه كنت قد بدأت الاعتماد على نفسى لكسب عيشى . لا ، يا صديقى ، انه ليس صغيرا . ان الفرخ الذى سيصبح ديكا يمكن معرفته من يوم فقسه . لقد بذلت قصارى جهدى لأجعل من نوويى رجلا ، ولكنه ورث عن أمه أكثر مما ينبغى » .

« بل ورث عن جده أكثر مما ينبغى » . مر هذا الخاطر بخلد أوبيريكا ، لكنه لم يفصح عنه . مرت نفس الفكرة بخلد أوكونكو أيضا . لكنه كان قد تعلم منذ زمن بعيد كيف يقضى على هذا الشبح . كلما أزعجته فكرة ضعف والده وفشله طردها بالتفكير فى قوته ونجاحه هو . وهذا ما فعله الآن . انتقل ذهنه الى آخر مرة أظهر فيها رجولته .

سأل أوبيريكا :

« انى لا أفهم لماذا رفضت المجىء معنا لقتل ذلك الصبى » .

فأجاب أوبيريكا بحدة :

« لأنى لم أرغب فى ذلك . كنت مشغولا بشىء أفضل » .

« تبدو وكأنك تشك فى سلطة وقرار العراف ، الذى قال انه يجب أن يموت » .

« كلا ، لا أشك فى ذلك ، ولماذا أشك ؟ لكن العراف لم يطلب الى أن أنفذ قراره » .

« لكن كان لابد لشخص ما أن ينفذه . فاذا خفنا جميعا من الدم ، لما قام أحد بتنفيذه . وماذا تظن العراف يفعل عندئذ ؟ » .

« انك تعلم جيدا يا أوكونكو أنى لا أخشى الدم ؟ واذا قال لك ذلك قائل فهو كاذب . ودعنى أقول لك شيئا واحدا ، يا صديقى . لو كنت مكانك لما غادرت المنزل . ان ما فعلته لن يسر الهة الأرض . فكم محت الالهة من عائلات بأكملها بسبب عمل مثل هذا » .

قال أوكونكو : « لا تستطيع الأرض عقابى لأنى أطعت رسولها . فأصابع الطفل لا تحرقها قطعة من اليام تضعها أمه فى كفه » .

وافق أوبيريكا قائلا « هذا حق ، ولكن اذا قال العراف أن ابنى يجب أن يقتل فانى لن أعترض على هذا القرار ولكن لن أكون الشخص الذى يقوم بتنفيذه » .

ولولا دخول أوفودو فى تلك اللحظة لاستمرا فى النقاش . كان واضحا من لمعة عينيه أن لديه أخبارا هامة . لكن ليس من اللائق التعجل فى السؤال عنها . قدم له أوبيريكا شقة من ثمرة الكولا التى كسرها مع أوكونكو . فأكل أوفودو بتمهل وتحدث عن الجراد . قال عندما انتهى من الكولا :

« تحدث هذه الأيام أشياء فى غاية الغرابة » .

سأل أوكونكو « ماذا حدث ؟ » .

وسأل أوفودو « أتعرفان أوجبوفى اندولو ؟ » .

فقال أوكونكو وأوبيريكا معا « أوجبوفى اندولو من قرية آير ؟ » .

قال أوفودو « مات هذا الصباح » .

قال أوبيريكا « ليس فى الأمر غرابة . فهو أكبر رجال آير سنا » .

ووافق أوفودو قائلا « انك على حق . لكن يجدر بك أن تسأل لماذا لم تقرع الطبلة لتخبر أوموفيا بموته » .

سأل أوبيريكا وأونكو معا « لماذا ؟ » .

« هذا هو وجه الغرابة فى الأمر . أتعرفان زوجته الأولى التى تسير متكئة على عصا ؟ » .

« نعم . انها تدعى أوزومينا » .

قال أوفودو « هذا صحيح . كانت أوزومينا ، كما تعلمان ، متقدمة فى السن لدرجة لا تسمح لها بالعناية بأندولو أثناء مرضه . فقامت زوجاته الأصغر سنا بذلك . وعندما توفى هذا الصباح ذهبت احدى النسوة لكوخ أوزومينا وأخبرتها . فقامت من فوق حصيرتها ، وأخذت عصاها وسارت الى كوخ رب الأسرة . ركعت على ركبتيها ويديها عند العتبة ودعت زوجها المسجى على الحصير . نادته ثلاث مرات « أوجبوفى أندولو » ، ثم عادت الى كوخها . وعندما ذهبت أصغر الزوجات لتدعوها مرة أخرى لتحضر غسل الجثة ، وجدتها راقدة على حصيرتها وقد فارقت الحياة » .

قال أوكونكو « هذا أمر غريب حقا . ستؤجل جنازة اندولو حتى تدفن زوجته » .

« هذا هو السبب فى أن الطبلة لم تقرع لتخبر أوموفيا ».

قال أوبيريكا « كان يحكى دائما أن اندولو وأوزومنيا لهما عقل واحد . أذكر أنه عندما كنت صبيا صغير السن أن كانت هناك أغنية عنهما . لم يكن يستطيع أن يعمل شيئا دون أن يخبرها » .

قال أوكونكو « لم أكن أعلم ذلك . كنت أظنه رجلا قويا في شبابه » .

قال أوبيريكا « كان بالفعل قويا حقا » .

هز أوكونكو رأسه شكا .

قال أوبيريكا « لقد قاد أوموفيا الى الحرب فى تلك الأيام ».

* * *

أخذ أوكونكو يعود الى سابق عهده مرة أخرى . كل ما كان يطلبه شيء يشغل به ذهنه . لو قام بقتل اكيميفونا أثناء موسم الزرع الغاص بالعمل أو أثناء موسم الحصاد لما كان الأمر بهذا السوء . اذن لشغل ذهنه بعمله . لم يكن أوكونكو رجل فكر بل رجل عمل . لكن اذا انعدم العمل ، فالحديث أفضل الأشياء اليه .

ما كاد أوفودو يمضي ، حتى رفع أوكونكو حقيبته المصنوعة من جلد الماعز استعدادا للذهاب .

قال « يجب أن أذهب لأستخرج الخمر من أشجار النخيل لبعد الظهر » (١) .

---

(١) تسمى هذه العملية : tapping وهى عملية استخراج السائل الأبيض الذى يصنع منه خمر النخيل عن طريق عمل شق بالنخلة توصل به انبوبة يتدلى طرفها الآخر فى وعاء يستقبل هذا السائل .

(المترجمة)

وسأل أوبيريكا « من يستحلب الأشجار العالية لك ؟ » .

أجاب أوكونكو « أوموزولايك » .

قال أوبيريكا « أقول أحيانا ليتنى ما أخذت لقب الأوزو . فقلبى ينفطر لرؤية هؤلاء الشبان يقتلون أشجار النخيل باسم استخراج رحيقها » .

وافق أوكونكو قائلا « هذا صحيح حقـا . ولكن قانون البلاد يجب أن يطاع » .

قال أوبيريكا « لا أعلم من أين جئنا بهذا القانون . ففى كثير من العشائر الأخرى لا يمنع الرجل الذى يحمل اللقب من تسلق شجرة النخيل . أما هنا فنقول اننا لا نستطيع تسلق الشجرة العالية ولكننا نستطيع أن نستخرج الخمر من النخلات القصيرة ونحن وقوف على الأرض . مثلنا فى ذلك مثل « دياما راجانا » الذى رفض أن يقرض زوجته سكينا لتقطع بهـا لحم الكلاب لأن الكلاب محرمة لديه ، ولكنه اقترح أن يستخدم أسنانه لذلك » .

قال أوكونكو « أظن أنه من الخير لعشيرتنا أن تحتفظ للقب الأوزو باحترام كبير . ففى تلك العشائر الأخرى التى تتحدث عنها ، أنحدر شأن لقب الأوزو حتى حصل عليه كل معدم .

قال أوبيريكا « بل كنت أمزح . ففى آبامى وأنينتا تبلغ

قيمة اللقب أقل من كورين . يلبس كل رجل شارة اللقب على ركبته ، ولا يفقدها حتى لو سرق » .

قال أوكونكو وهو يتأهب للانصراف « حقا لقد لطخوا اسم الأوزو » .

قال أوبيريكا « سيصل أنسبائى عما قريب » .

قال أوكونكو وهو ينظر الى موقع الشمس « سأعود حالا » .

* * *

كان هناك سبعة رجال فى كوخ أوبيريكا عندما عاد أوكونكو . كان الخطيب شابا فى حوالى الخامسة والعشرين من عمره ، يصحبه أبوه وعمه . أما من ناحية أوبيريكا فكان هناك أخواه الأكبر منه سنا وابنه البالغ السادسة عشرة من العمر .

قال أوبيريكا لابنه « اطلب من أم اكويكى أن ترسل لنا بعض ثمار الكولا » .

واختفى مادوكا فى الفناء كالبرق . وعلى الفور دار الحديث حوله ، واتفق الجميع على أنه ماض كالموسى » .

قال أوبيريكا بحنان « بل أظنه فى بعض الأحيان حادا أكثر مما ينبغى . انه لا يكاد يسير . فهو متعجل دائما . فاذا أرسلته فى مهمة أسرع طائرا قبل أن يسمع نصف الرسالة » .

قال الأخ الأكبر « هكذا كنت أنت الى حد بعيـد . كما يقول قومنا « عندما تمضغ البقرة الأم الحشيش يلاحظ صغارها فمها ؟ كان مادوكا يلاحظ فمك » .

وبينما هو يتحدث ، عاد الغلام ، تتبعه اكويكى أخته غير الشقيقة ، تحمل طبقا خشبيا عليه ثلاث ثمار من ثمـار الكولا وبعض فلفل التمساح . أعطت الطبق لعمها الأكبر ثم صافحت ـــ بحياء كبير ـــ خطيبها وأقاربه . كانت فى السادسة عشرة من العمر تقريبـا ، وقد نضجت للزواج . راقب خطيبها وأقاربه جسمها الشاب بعيون خبيرة كما لو كانوا يؤكدون لأنفسـهم أنها جميلة وناضجة .

عقصت شعرها فى شكل عرف وسط رأسـها . أما جلدها فقد حك برفق بخشب أرجـوانى اللون وغطى جسـمها كله بزخارف سوداء رسمت بطلاء أسود . ولبست عقدا أسود يتدلى فى ثلاثة فروع فوق ثدييها الممتلئين البضيين مباشرة . وفى ذراعيها أساور حمر وصفر ، وحول خصرها أربعة أو خمسة صفوف من خرز الخصر .

وبعد أن صافحت أو بالحرى مدت يدها لتصافح الضيوف ، عادت الى كوخ أمها لتساعدها فى اعداد الطعام .

قالت أمها محذرة « اخلعى خرزك أولا » وذلك عنـدما اتجهت نحو الموقد لاحضار المدق الذى أسند الى جانب الجدار .

« أقول لك كل يوم ان الخرز والنار ليسا أصدقاء . ولكنك لا تنصتين . وكأن أذنيك قد خلقتا للزينة ، لا للسمع . سيشتعل خرزك حول خصرك يوما ما وعندئذ ستعرفين » .

وتقدمت اكويكى نحو الطرف الآخر من الكوخ وأخذت تخلع الخرز عن خصرها . يجب أن تفعل ذلك ببطء وعناية ، ممسكة بكل عقد على حدة لئلا ينقطع ويصبح من الضرورى أن تلضم الألف حلقة معا مرة أخرى . أخذت كل عقد الى أسفل براحتيها الى أن يمر بالردفين وينزلق الى الأرض حول قدميها .

كان الرجال فى كوخ رب الأسرة قد بدأوا فى احتساء خمر النخيل الذى أحضره خطيب أكويكى . كان خمرا من نوع جيد وقوى جدا ، اذ بالرغم من ثمرة النخيل التى سدت بها فوهة القدر لتحجز المشروب الحى ، فقد ارتفعت رغوة بيضاء وفاضت على الجوانب .

قال أوكونكو « هذا الخمر من صنع مستحلب ماهر » .

ابتسم خطيب اكويكى ، الذى يدعى ايبى ابتسامة عريضة وقال لوالده « أتسمع هذا ؟ » ثم قال للآخرين « انه لا يعترف أبدا بأننى أستخرج الخمر بمهارة فائقة » .

فقال والده أوكيجيو « لقد استخرجت الخمر من ثلاث من خيرة نخيلى حتى قضيت عليها » .

قال ايبى الذى بدأ فى صب الخمر « حدث هذا منذ خمس سنوات ، قبل أن أتعلم كيفية استخراج الخمر من النخيل . » ملأ القرن الأول وأعطاه لوالده . ثم صب الخمر للآخرين . أخرج أوكونكو قرنه الكبير من حقيبته المصنوعة من جلد الماعز، ونفخ عليه ليفض أى غبار عالق به ، ثم أعطاه لايبى ليملأه .

تحدث الرجال وهم يشربون عن كل شىء ما عدا الشىء الذى اجتمعوا بشأنه . اذ لم يتنحنح والد الخطيب ويعلن الهدف من الزيارة الا بعد أن فرغ القدر .

وعندئذ قدم له أوبريكا حزمة صغيرة من العصى القصيرة ، عدها أوكيجبو وسأل :

« أهى ثلاثون ؟ »

فهز أوبيريكا رأسه موافقا .

قال أوكيجبو « أخيرا بدأنا نعالج الموضوع . » والتفت نحو أخيه وابنه وقال « لنخرج الى الخارج ونهمس معا » . قام الثلاثة وخرجوا وعندما عادوا ناول اكويجبو حزمة العصى مرة أخرى لأوبيريكا . عدها هذا فوجد بدلا من الثلاثين خمس عشرة فقط الآن . ناولها لأخيه الأكبر ، ماتشى ، الذى عدها أيضا بدوره وقال :

« لم نفكر فى النزول عن الثلاثين . لكن مثلما قال الكلب ـ اذا سقطت أرضا لك ، وسقطت أنت أرضا لى ، أمكننا اللعب ، يجب أن يكون الزواج لعبا وليس قتالا ، وهكذا سننزل نحن مرة أخرى . » ثم أضاف عشر عصى الى الخمس عشرة وأعطى الحزمة لأوكيجبو .

وبهذه الطريقة استقر الرأى فى نهاية الأمر على أن يكون المهر الذى يدفع لاكويكى عشرين حقيبة من عملة الكورى . كان الغسق قد حل عندما وصل الطرفان الى هذا الاتفاق .

قال أوبيريكا لابنه مادوكا « اذهب وقل لأم اكويكى اننا انتهينا . » وعلى الفور تقريبا دخلت المرأة بوعاء كبير من طعام الفوفو . تبعتها زوجة أوبيريكا الثانية بقدر من الحساء وأحضر مادوكا قدرا من خمر النخيل .

تحدث الرجال وهم يأكلون عن عادات جيرانهم .

قال أوبيريكا « كنا نتحدث صباح اليوم فقط ، أوكونكو وأنا عن آبامى وأنينتا ، حيث يتسلق الرجال ذوو الألقاب الأشجار ، ويدقون الفوفو لزوجاتهم . »

ـــ « ان جميع عاداتهم مقلوبة رأسا على عقب . فهم لا يقرون مهر العروس كما نفعل نحن بالعصى . انهم يساومون

ويطيلون الأخذ والرد كما لو كانوا يشترون عنزة أو بقرة فى السوق » .

وقال أخو أوبيريكا الأكبر « هذا أمر سيء للغاية . لكن ما هو طيب فى مكان ما سيء فى مكان آخر . ففى أومنسو لا يساومون مطلقا ، ولا حتى عن طريق العصى . بل يستمر الشاب المتقدم للزواج فى تقديم أكياس من النقود حتى يوقفه انسباؤه . انها عادة سيئة لأنها تفضى دائما الى العراك » .

قال أوكونكو « العالم مكان كبير . لقد سمعت ما هو أغرب من ذلك ففى بعض القبائل ينتمى أبناء الرجل الى زوجته وعائلتها » .

قال ماتشى « مستحيل » !

وقال أوبريكا « ان هذا كقصة الرجال البيض الذين ، يقال ، ان بياضهم يبلغ بياض هذه القطعة من الطباشير » . ورفع قطعة من الطباشير التى يحتفظ بها كل رجل فى كوخه الخاص ليرسم بها ضيوفه خطوطا على الأرض قبل تناول ثمار الكولا . « يقال ان هؤلاء الرجال البيض ليس لهم أصابع فى أقدامهم » .

وسأل ماتشى « ألم ترهم مطلقا » ؟

وسأل أوبيريكا « وهل رأيتهم أنت ؟ »

فقال ماتشى « يمر واحد منهم كثيرا هنا . اسمه أمادى » .

وضحك أولئك الذين يعرفون أمادى . فأمادى أبرص . واللفظ الذى يطلق على الأبرص من قبيل الأدب هو « الجلد الأبيض » .

الفصل التاسع

لأول مرة منذ ثلاث ليال استطاع أوكونكو أن ينام . وصحا مرة واحدة فى منتصف الليل وعاد بذهنه الى الأيام الثلاثة الأخيرة دون أن يشعر بقلق . وبدأ يعجب لماذا شعر بالقلق على الاطلاق . كان مثل الرجل الذى يعجب فى وضح النهار لماذا بدا له الحلم الذى حلمه مخيفا الى هذا الحد فى الليل . تمطى وحك فخذه حيث عضته بعوضة أثناء نومه . كانت هناك أخرى تطن فى أذنه اليمنى . ضرب بكفه الأذن راجيا أن يكون قد قتل البعوضة . لماذا تتجه دائما نحو أذنى المرء ؟ عندما كان طفلا قصت له أمه عن ذلك . ولكنها كانت قصة ساذجة ككل قصص النساء . قالت ان ذكر البعوضة طلب من الأذن أن تتزوجه وعندئذ سقطت الأذن على الأرض من شدة الضحك . وسألت « كم من الوقت تظن أن حياتك ستطول بعد هذا ؟ لقد أصبحت بالفعل هيكلا عظيما » . مضى ذكر البعوضة وقد نالت الأذن من كرامته، وأصبح كل مرة يمر بطريق الأذن يقول لها أنه ما زال حيا .

استدار أوكونكو على جنبه وعاد للنوم . أيقظه فى الصباح شخص يقرع بابه بشدة .

صاح بصوت كالزئير « من هذا ؟ » عرف أنه لا بد أن تكون اكويفى . اذ كانت هى الوحيدة بين زوجاته الثلاث التى تأتيها الجرأة أن تقرع بابه . »

جاءه صوتها يقول « ازنما تحتضر . » وكأن مأساة حياتها وحزنها قد جمعت فى تلك الكلمات .

قفز أوكونو من فراشه ، ودفع مزلاج بابه الى الخلف وجرى الى داخل كوخ اكويفى .

كانت ازنما راقدة ترتعش على حصيرة الى جانب نار ضخمة عملت أمها طوال الليل على الاحتفاظ بها مشتعلة .

قال أوكونكو « انها الملاريا » وأخذ فأسه وذهب الى الغابة ليجمع الأوراق والحشائش وقشور الأشجار التى تستخدم فى عمل دواء الملاريا .

ركعت اكويفى الى جانب الطفلة المريضة وهى تتحسس من وقت لآخر الجبهة المبتلة الملتهبة بكفها .

كانت ازنما ابنتها الوحيدة وحولها يدور عالمها . فى أحيان كثيرة كانت ازنما هى التى تقرر نوع الطعام الذى على الأم أن

تعده . بل كانت اكويفى تعطيها بعض المأكولات الخاصة مثل البيض ، الذى قلما يسمح للأطفال بأكله لأن هذا الطعام يغريهم بالسرقة . وذات يوم وازنما تأكل بيضة جاء أوكونكو من كوخه على غير انتظار . وهاله الأمر بشدة ، وأقسم أن يضرب اكويفى اذا جرؤت أن تعطى الطفلة بيضا مرة أخرى . الا أن اكويفى عرفت أنه من المستحيل أن ترفض لازنما طلبا . خاصة وقد ازدادت رغبتها فى أكل البيض بعد تعنيف والدها . وكانت تستمتع أكثر ما تستمتع بالسرية التى تحوط أكلها للبيض . اذ كانت أمها تأخذها دائما الى حجرة نومها وتغلق الباب .

لم تكن ازنما تدعو أمها واننى ، مثل باقى الأطفال ، كانت تدعوها باسمها اكويفى ، كما يدعوها أبوها وغيره من الكبار . لم تكن العلاقة بينهما مجرد علاقة أم بابنتها . بل اتسمت بشىء يشبه رفقة الأنداد ، وقويت عن طريق مثل هذه المؤامرات الصغيرة كأكل البيض فى حجرة النوم .

قاست اكويفى الشىء الكثير فى حياتها . ولد لها عشرة أطفال مات منهم تسعة فى طفولتهم ، وقبل أن يبغلوا الثالثة من العمر عادة . وعندما استمرت فى دفن الواحد تلو الآخر حل بها اليأس محل الحزن ثم تلاه الاستسلام القاسى . أصبح مولد أطفالها ، الذى يجب أن يكون أسمى أمجاد المرأة ، مجرد عذاب جسمى خال من الأمال ، بالنسبة لاكويفى . وأصبح حفل التسمية

الذى يقام بعد سبعة أسابيع سوقية من الطقوس الخاوية التى لا تحمل معنى . وعبرت عن يأسها الذى ازداد عمقا بواسطة الأسماء التى أطلقتها على أطفالها . كان أحد هذه الأسماء صرخة حزينة اذ أسمته « أونومبيكو » — أى « أيها الموت ، أضرع اليك » . ولكن الموت لم يأبه لذلك . اذ مات أونومبيكو فى شهره الخامس عشر . وكان الطفل التالى بنتا ، «أوزومنيا» أو «ليته لا يحدث مرة أخرى » . ماتت فى الشهر الحادى عشر وتبعها اثنان آخران . أصبحت اكويفى الآن انسانة مفعمة بالتحدى وسمت طفلها التالى « أونوما » ، أى « للموت أن يفعل ما يشاء » . وفعل ما يشاء .

بعد موت طفل اكويفى التالى ، ذهب أوكونكو لأحد رجال الطب ، وكان أيضا من قراء الغيب التابعين للعراف آفا ، ليسأل عن سبب ذلك . قال له هذا الرجل ان الطفل كان «أوجبانجى»، أى أحد أولئك الأطفال الأشرار الذين يدخلون بطون أمهاتهم، عند موتهم ، ليولدوا مرة أخرى .

قال الرجل « عندما تحمل زوجتك مرة أخرى ، لا تدعها تنام فى كوخها . دعها تذهب وتقيم عند أهلها . وبهذه الطريقة ستتجنب هذا الشرير الذى يعذبها وتكسر دورة الميلاد والموت الشريرة التى يقوم بها » .

فعلت اكويفى كما طلب اليها . فحالما حملت ذهبت لتعيش

مع أمها العجوز فى قرية أخرى . وهناك ولد طفلهـا الثالث ، وختن فى اليوم الثامن . ولم تعد الى بيت أوكونكو الا قبل حفل التسمية بثلاثة أيام . وسمى الطفل « أونومبيكو » .

ولم تتبع مراسم الدفن المعروفة عندما مات أونومبيكو . كان أوكونكو قد استدعى رجل آخر من رجال الطب اشتهر فى العشيرة بمعرفته العظيمة عن « الأوجبانجى » ، أو الأطفال الذين يولدون ثانية بعد موتهم . اسمه أوكاجبو أويانو . وكان أوكاجبو أويانو ذا منظر يلفت النظر ، طويل القامة ، ذا لحية كثيفة ورأس أصلع . فاتح لون البشرة وعيناه حمراوان تقدحان شررا . يطحن أسنانه دائما وهو ينصت لمن يأتى لاستشارته . سأل أوكونكو بضعة أسئلة عن الطفـل المتوفى . بينما التفت حولهما جميع الجيران والأقارب الذين جاءوا للعزاء .

سأل « فى أى يوم من أيام السوق ولد » ؟

أجاب أوكونكو « فى اليوم الثالث » .

« ومات هذا الصباح ؟ »

قال أوكونكو نعم وأدرك عندئذ فقط وللمرة الأولى أن الطفـل مات فى نفس اليوم الذى ولد فيه . رأى المصـادفة الجيران والأقارب أيضا وقالوا فيما بينهم ان لهذا دلالة كبيرة .

سأل رجل الطب « أين تجتمع بزوجتك ، فى كوخك الخاص برب الأسرة أم فى كوخها » ؟

« فى كوخها » .

« استدعها فى المستقبل الى كوخك الخاص » .

ثم أمر رجل الطب ألا يكون هناك حزن على الطفل الميت. وأخرج موسى حادا من حقيبته المصنوعة من جلد الماعز المعلقة بكتفه اليسرى وبدأ فى تشــويه الطفل . ثم أخــذه ليدفنه فى « الغابة الشريرة » ، وهو يمسك به من كعب رجله ويجره وراءه على الأرض . فبعد مثل هذه المعاملة سيتردد الطفل كثيرا قبل أن يعود مرة أخرى ، اللهم الا اذا كان أحد هؤلاء الأطفــال العنيدين ـــ الذين يعودون وهم يحملون علامة تشويههم ـــ كأصبح ناقص أو ربما خطـــا قاتما حيث جرحهم رجل الطب بموســه .

وبوفاة أونومبيكو أصبحت اكويفى تشعر بالمرارة . كان لضرتها الأولى الآن ثلاثة أولاد ، أقوياء أصحاء جميعا . ولمــا كانت قد أنجبت ثلاثة أولاد على التوالى فقد ذبح لها أوكونكو عنزة عند مولد الابن الثالث ، كما هو متبع . ولم تكن لهــا اكويفى سوى الأمانى الطيبة ، ولكنها أصبحت تشعر بالمرارة نحو الهها الخاص لدرجة أنه لم يكن بوسعها أن تشــــارك الآخرين الفرح لحسن حظهم . وهكذا فى اليوم الذى احتفلت

فيه أم نوويى بمولد أبنائها الثلاثة بالولائم والموسيقى ، كانت اكويفى الوحيدة فى الجماعة السعيدة الذى يحمل وجهها سحابة قاتمة . وعدت ضرتها ذلك سوء طوية ، على عادة زوجات الأزواج . كيف يتسنى لها أن تعرف أن مرارة اكويفى لا تفيض الى الخارج نحو الناس ، بل الى الداخل نحو الهها الخاص ، وأنها لم تلم الآخرين لحظهم الحسن بل لامت الهها الخاص الذى حرمها من أى حظ طيب .

وأخيرا ولدت ازنما ، وبالرغم من ضعفها بدت وكأنها مصممة على الحياة . تقبلتها اكويفى أخيرا ، كما تقبلت الآخرين ــ بتسليم خال من الاهتمام . لكن عندما بلغت الرابعة والخامسة والسادسة من عمرها ، عاد الحب مرة أخرى الى أمها ، ومع الحب عاد القلق . صممت على العناية بابنتها حتى تعود اليها الصحة ، وأقبلت على ذلك بكل كيانها . فكان جزاؤها فترات متقطعة من الصحة تفور فيها ازنما بالنشاط كخمر النخيل الطازج . فى مثل هذه الأوقات كانت تبدو بمأمن من الخطر . لكن بغتة يرقدها المرض مرة أخرى . كان الجميع يعلمون أنها أحد أولئك الأطفال الذين يعودون بعد موتهم ليولدوا مرة أخرى . فهذه الفترات المفاجئة من المرض والصحة من سمات هذا النوع من الأطفال . لكنها عاشت هذه المدة الطويلة ، فلعلها قررت البقاء . فبعض هؤلاء الأطفال يصيبهم التعب فعلا

من جراء دورات الموت والميلاد التى يقومون بها ، أو تحدوهم الشفقة بأمهاتهم فيبقون .

آمنت اكويفى ايمانا عميقا أن ازنما جاءت لتبقى . آمنت بذلك لأن هذا الايمان وحده هو الذى أعطى حياتها شيئا من المعنى . وقوى هذا الايمان واشتد عندما وجد أحد رجال الطب منذ ما يقرب من العام طلسم ازنما . عرف كل امرىء عندئذ أنها ستعيش لأن رباطها بعالم هؤلاء الأطفال الأشرار قد فصم . اطمأنت اكويفى . لكن قلقها على ابنتها كان قد بلغ درجة جعلتها لا تستطيع التخلص كلية من مخاوفها . وبالرغم من أنها كانت تؤمن أن الطلسم الذى استخرج من الأرض كان حقيقيا ، الا أنها لم تستطع أن تتجاهل أن بعض الأطفال الأشرار حقا يخدعون الناس أحيانا ويجعلونهم يحفرون الأرض ويخرجون طلسما يبدو حقيقيا ولكنه كاذب .

ولكن طلسم ازنما كان يبدو حقيقيا فعلا . كان زلطة ملساء لفت فى خرقة قذرة . أما الرجل الذى أخرجها من الأرض فلم يكن سوى أوكاجبو ، الشهير فى العشيرة كلها بمعرفته بهذه الأمور . لم ترغب ازنما التعاون معه فى بادىء الأمر . لكن هذا كان متوقعا . فما من طفلة من هذا النوع تسلم أسرارها بسهولة ، ومعظم هؤلاء الأطفال لا يفعلون ذلك قط لأنهم يموتون فى سن مبكرة جدا ــ قبل أن يمكن توجيه أية أسئلة اليهم .

سأل أوكاجبو ازنما وكان عمرها حينذاك تسع سنوات وكانت قد شفيت لتوها من مرض خطير . «أين دفنت طلسمك ؟»

فسألت بدورها « وما هو الطلسم ؟ »

« أنت تعرفين ما هو . وقد قمت بدفنه فى الأرض فى مكان ما حتى يمكنك الموت والرجوع مرة ثانية لتعذبى أمك » .

نظرت ازنما الى أمها التى ثبتت عليها عينيها المفعمتين بالحزن والرجاء .

« أجيبى على السؤال على الفور » هكذا صرخ أوكونكو وهو يقف بجوارها . كانت الأسرة بأجمعها هناك وكذلك بعض الجيران أيضا .

وقال رجل الطب لأوكونكو بصوت واثق خال من الانفعال « اتركها » . ثم اتجه مرة أخرى لازنما «أين دفنت طلسمك ؟ »

فأجابت « حيث يدفنون الأطفال » ، وتمتم المتفرجون الساكتون لأنفسهم .

وقال رجل الطب « هلمى معى اذن وأرينى المكان » .

بدأ الجميع المسير وازنما على رأسهم وأوكاجبو يسير خلفها مباشرة . يتبعه أوكونكو ثم اكويفى . عندما وصلت ازنما

الى الطريق الرئيسى ، اتجهت يسارا كما لو كانت فى طريقها الى المجرى .

فسأل رجل الطب « ولكنك قلت حيث يدفنون الأطفال » .

قالت ازنما « لا » وقد بدا شعورها واضحا فى مشيتها المتسمة بالحيوية والمرح . كانت تجرى أحيانا ثم تقف بغتة . لكن الجمع تبعها فى صمت . تعجب النساء والأطفال العائدون من المجرى بأقدار الماء فوق رءوسهم متسائلين عما حدث الى أن رأوا أوكاجبو وحدسوا أن الأمر يتعلق بأحد الأطفال الأشرار . ثم هم جميعا يعرفون اكويفى وابنتها تمام المعرفة .

عندما وصلت ازنما الى شجرة الأودالا ، الكبيرة اتجهت يسارا الى الغابة يتبعها الجمع . ونظرا لصغر حجمها فقد شقت طريقها بين الأشجار والنباتات المتسلقة بسرعة أكبر من أولئك الذين يتبعونها . ودبت الحياة فى الغابة والأقدام تطأ الأوراق الجافة والعصى وتحرك أغصان الأشجار جانبا . استمرت ازنما فى التوغل فى الغابة والجمع يصحبها . ثم بغتة استدارت وأخذت فى العودة الى الطريق . توقف الجميع وأفسحوا لها لتمر ثم تبعوها الواحد خلف الآخر .

قال أوكونكو مهددا « اذا أتيت بنا كل هذه المسافة دون جدوى ، فسأضربك ضربا يرد اليك صوابك » .

قال أوكاجبو « قلت لك أن تتركها وشأنها . انى أعـرف كيف أتعامل معهم » .

قادت ازنما الجمع الى الطريق ، وتلفتت يمينا وشمالا ثم اتجهت نحو اليمين وهكذا وصلوا المنزل مرة أخرى .

وسألهـا أوكاجبو عندما وقفت ازنمـا أخيرا خارج كوخ والدها الخاص . ـــ « أين دفنت طلسمك » . لم يتغير صوت أوكاجبو . كان هادئا واثقا .

قالت ازنما : « انه بجوار شجرة البرتقال هذه » .

قال أوكونكوو هو يسبها « ولماذا لم تقولى ذلك ، يا ابنة أكالاجولى الشريرة » ؟ لكن رجل الطب تجاهله .

قال بهدوء لازنما « تعالى وأرينى البقعة بالضبط » .

قالت عندما وصلوا الى الشجرة « انه هنا » .

قال أوكاجبو « أشيرى الى البقعة بأصبعك » .

قالت ازنما وهى تلمس الأرض بأصبعها « انه هنـا » . ووقف أوكونكو بجوارها وهو يربد كالرعد فى موسم المطر

وقال أوكاجبو « احضر لى فأسا » .

وعندما أحضرت اكويفى الفأس ، كان قد تجرد من حقيبته

المصنوعة من جلد الماعز ومن ازاره الكبير ووقف فى ملابسه الداخلية ، وهى شريط طويل رفيع من القماش لف حول الوسط كالحزام ثم مر بين الساقين ليثبت الى الحزام من الخلف . بدأ على الفور فى حفر حفرة حيث أشارت ازنما . جلس الجيران حوله يرقبون الحفرة وهى تزداد وتزداد عمقا . وسرعان ما اختفت التربة السطحية الداكنة وظهرت مكانها التربة الحمراء الزاهية ، التى تدعك بها النساء أرض الأكواخ وجدرانها . عمل أوكاجو دون كلل وفى صمت ، والعرق يلمع على ظهره . وقف أوكونكو بجوار الحفرة . طلب الى أوكاجبو أن يصعد الى أعلى ويستريح بينما يعمل هو . لكن أوكاجبو قال انه لم يتعب بعد.

دخلت اكويفى الى الكوخ لتطهو اليام . كان زوجها قد أحضر قدرا أكبر من المعتاد من اليام لأن رجل الطب سيتناول الطعام معه . ذهبت ازنما معها لتساعدها فى اعداد الخضروات .

وقالت « ان الخضروات الخضراء تزيد عن الحاجة » .

فسألت اكويفى « ألا ترين القدر مليئا باليام ؟ وأنت تعلمين كيف تضمر الأوراق بعد الطهو » .

قالت ازنما « نعم . كان هذا هو السبب الذى من أجله قتل ثعبان السحلية أمه » .

وقالت اكويفى « هذا صحيح جدا » .

قالت ازنما « أعطى أمه سبع سلال من الخضروات لتطهوها وفى النهاية لم يكن هناك سوى ثلاث . ولذا قتلها » .

« ليست هذه نهاية القصة » .

قالت ازنما « آه . أتذكر الآن . أحضر سبع سلال أخرى وطهاها بنفسه . ومرة أخرى لم يبق منها سوى ثلاث . فقتل نفسه أيضا » .

أما خارج الكوخ فكان أكاجبو وأوكونكو يواليان الحفر ليعرفا أين دفنت ازنما طلسمها . جلس الجيران يرقبون مايجرى وقد بلغ عمق الحفرة حدا تتعذر معه رؤية الشخص الذى يقوم بالحفر . كل ما أمكنهم رؤيته هو التربة الحمراء التى كان يلقى بها الى أعلى والتى ارتفعت وارتفعت الى أعلى . وقف ابن أوكونكو ، نوويى بجوار حافة الحفرة حتى لا يفوته شىء مما يجرى .

تولى أوكاجبو الحفر مرة أخرى بدلا من أوكونكو . عمل ، كعادته ، فى صمت . كان الجيران وزوجات أوكونكو يتحدثون الآن . أصاب السأم الأطفال فراحوا يلعبون .

وفجأة قفز أوكاجبو الى السطح بسرعة الفهد ورشاقته .

قال « لقد اقتربت جدا الآن . لقد أحسست بها » .

ثار الاهتمام على الفور وهب الجالسون وقوفا .

قال أوكاجبو « ادع زوجتك وابنتك » . ولكن اكويفى وازنما سمعتا الجلبة وخرجتا جريا لتعرفا الخبر .

عاد أوكاجبو الى الحفرة وقد أحاط بها المتفرجون الآن . وبعد بضعة ضربات أخرى بالفأس ، أصاب الطلسم . رفعه بعناية بالفأس ورمى به الى السطح . جرت بعض النساء خوفا عندما ألقاه . لكنهن سرعان ما عدن وحدق الجميع فى الخرقة البالية من مسافة معقولة . خرج أوكاجبو ودون أن ينبس بكلمة أو حتى ينظر الى المتفرجين ذهب الى حقيبته المصنوعة من جلد الماعز ، أخرج ورقتين وأخذ يمضغهما . وعندما بلعهما تناول الخرقة بيده اليسرى وبدأ فى فكها . ثم سقطت الزلطة الملساء اللامعة . فالتقطها .

وسأل ازنما « أهذا لك ؟ » .

أجابت « نعم » وصرخت النساء كلهن فرحات لأن متاعب اكويفى قد انتهت .

حدث كل هذا منذ أكثر من عام ، ولم تمرض ازنما منذ ذلك الوقت . ثم فجأة بدأت ترتعش فى الليل . أحضرتها اكويفى الى المدفأة وفرشت حصيرتها على الأرض وأوقدت نارا . ولكن حالتها ساءت أكثر وأكثر . صلت ألف مرة وهى تركع بجوارها ، وتجس بيدها الجبهة المبتلة المتقدة . بالرغم

من أن ضراتها قلن ان ما بهـا ليس سوى الملاريا فانهـا لم تسمعهن .

***

عاد أوكونكو من الغابة يحمـل على ذراعه الأيسر حزمة كبيرة من الحشائش وأوراق الأشجار والجذور والقشور من الأشجار والشـجيرات الطبية . دخـل كوخ اكويفى ووضع ما يحمله وجلس .

قال « احضرى لى قدرا واتركى الطفلة وشأنها » .

ذهبت اكويفى لتحضر القدر واختار أوكونكو خير ما فى حزمته من أشياء ، تبعا للنسب المطلوبة ، وقطعها . ثم وضعهـا فى القدر وصبت اكويفى شيئا من الماء .

سألته عنـدما صبت حوالى نصف المـاء الموجود بالوعاء « أيكفى هذا ؟ » .

« أكثر قليلا » ثم صاح أوكونكو فى وجهها « قلت قليلا ، أمصابة بالصمم أنت ؟ » .

وضعت القدر على النار بعناية وأخذ أوكونكو فأسـه وعاد الى كوخه الخاص .

قال فى طريقه « يجب أن تراقبى القدر بعناية ، ولا تسمحى للماء أن يفور على الجوانب . فاذا فعلت ذلك ستضيع قـوة الدواء » . مضى الى كوخه وبدأت اكويفى تراقب قدر الدواء

كما لو كانت تراقب الطفلة المريضة ذاتها تقريبا . وعيناها لا تنيان عن التنقل من ازنما الى القدر الذى يغلى ومنه الى ازنما مرة أخرى .

عاد أوكونكو عندما شعر أن الدواء قد طهى لمدة كافية . ألقى عليه نظرة وقال انه نضج .

قال « احضرى مقعدا منخفضا لازنما وحصيرة سميكة » .

أنزل القدر من فوق النار ووضعه أمام المقعد . ثم أيقظ ازنما ووضعها على المقعد ، وساقاها على جانبى القدر والبخار يتصاعد منه . ثم ألقى بالحصيرة السميكة حولها . جاهدت ازنما للتخلص من البخار الخانق القوى ، ولكنه أمسك بها فى مكانها . فأخذت فى البكاء .

عندما رفع الحصير أخيرا كانت تتصبب عرقا . جففتها اكويفى بقطعة من القماش ورقدت على حصيرة وما لبثت أن نامت .

الفصل العاشر

أخذت جموع كبيرة تتجمع فى ساحة القرية بمجرد أن خفت حرارة الشمس وأصبحت لا تؤلم الجسم . كان ذلك الوقت من النهار موعد اقامة معظم الاحتفالات الجماعية ، فحتى عندما يقال ان الحفل سيبدأ « بعد وجبة الظهر » يفهم كل امرىء أنه سيبدأ بعد ذلك بوقت طويل عندما تهدأ حرارة الشمس .

اتضح من الطريقة التى وقف بها الجمع أو جلس أن الاحتفال للرجال . فهناك كثير من النساء . ولكنهن يرقبن الحفل من بعد كالغرباء . جلس ذوو الألقاب والشيوخ على مقاعدهم فى انتظار بدء المحاكمات . وأمامهم صف من المقاعد لم يجلس عليه أحد . وبالصف تسعة مقاعد . وقفت جماعتان صغيرتان من الناس على بعد مناسب من المقاعد فى مواجهة الشيوخ . تتكون احداهما من ثلاثة رجال والأخرى من ثلاثة رجال وامرأة . أما المرأة فهى امبجافو والرجال الثلاثة اخوتها . وفى المجموعة الأخرى زوجها وأزولو وأقاربه . وقفت امبجافو واخوتها فى سكون تام كالتماثيل التى رسم الفنان التحدى على وجوهها.

أما أوزولو وأقاربه فكانوا يهمسون معا . بدوا وكأنهم يهمسون ولكنهم فى الحقيقة يتحدثون بأعلى أصواتهم . كان كل الجمع يتحدث ، والمكان كالسوق . بدت الجلبة من بعد كهزيم الرعد تحمله الريح .

دق ناقوس حديدى فأثار فى الجمع موجة من التوقع . ونظر الكل فى اتجاه بيت « الأوجوجو » أو الأرواح المقنعة . جوم، جوم ، جوم ، جوم ، دق الناقوس ونفخ مزمار قوى فأصدر نغمة حادة عالية . ثم جاءت أصوات الأرواح المقنعة عميقة مخيفة لطمت الموجة النساء والأطفال فهرول الجميع الى الخلف فى تقهقر غير نظامى ، ولكن ذلك لم يدم سوى لحظات . فقد وقفوا فعلا على بعد كاف بحيث كان هناك مكان للهرب اذا اتجهت احدى الأرواح المقنعة نحوهم .

قرعت الطبلة مرة أخرى ونفخ المزمار . وساد بيت الأرواح الآن فوضى من الأصوات المرتعشة : « ان لحمى مخيف دى دى دى دى » ! ملأ هذا الهتاف الجو بينما حيت أرواح الأسلاف التى خرجت لتوها من الأرض ، بعضها البعض الآخر بلغتها الخاصة . أما بيت الأرواح الذى خرجت منه فيواجه الغابة ، بعيدا عن الجمع الذى لا يرى سوى ظهره وعليه الزخارف والرسوم المتعددة الألوان التى يقوم برسمها نساء مختارات فى فترات منتظمة . ولم تر هؤلاء النساء داخل الكوخ قط . لم

تحظ امرأة بذلك قط . اذ تقوم النساء بحك الجدران الخارجية وطلائها تحت اشراف الرجال . واذا تخيلن ما بالداخل ، فانهن يحتفظن بتخيلاتهن لأنفسهن . لم تسأل امرأة قط آية أسـئلة عن أقوى عقائد العشيرة وأكثرها سرية .

« ان لحمى مخيف دى دى دى ! » طاف الهتاف حـول الكوخ المظلم المقفل مثل ألسنة النـار . ها قد خرجت أرواح أسلاف العشيرة . واستمر دق الجرس المعدنى الكبير الآن ، وطغا صوت المزمار حادا قويا فوق الفوضى .

ثم ظهـر « الأوجوجو » أو الأرواح المقنعة ، فنـدت عن النساء والأطفال صرخة عالية وأخذوا فى الجرى . كان هذا عملا غريزيا . اذ تهرب المرأة حالما تظهر احدى هذه الأرواح . وعندما تظهر معها ، كما هو الحال ذلك اليوم ، تسع من أعظم أرواح العشيرة المقنعة ، فان المنظر يكون مخيفا . حتى امجبافو جرت واضطر اخوتها الى الامساك بها .

يمثل كل من الأرواح المقنعة التسع قرية من قرى العشيرة . يدعى قائدها « الغابة الشريرة » ويتصاعد الدخان كثيفا من رأسه .

نشأت قرى أوموفيا التسع عن الأبناء التسعة لأب العشيرة

الأول . ويمثل « الغابة الشريرة » قرية أوميرو ، أو أبناء أيرو ، أكبر الأبناء .

— « يا أهل أوموفيا » هكذا صاح قائد الأوجوجو وهو يدفع الهواء بذراعيه المصنوعتين من الخوص .

— « يا . » هكذا أجابه شيوخ العشيرة .

— « يا أهل أوموفيا » .

— « يا ! »

— « يا أهل أوموفيا »

— « يا ! »

ثم غرس « الغابة السوداء » الطرف المدبب لعصاه ذات الشخاشيخ فى الأرض . فبدأت فى الاهتزاز والشخشخة كشىء تحركه حياة معدنية . جلس على أول المقاعد الخالية وبدأ « الأوجوجو » الثمانية الآخرون فى الجلوس بعده تبعا لمراتبهم . ولعل زوجات أوكونكو ، بل وربما بعض النساء الأخريات أيضا قد لاحظن أن « الأوجوجو » الثانى يشبه أوكونكو فى مشيته الزنبركية . ولعلهن قد لاحظن أيضا أن أوكونكو لم يكن بين ذوى الألقاب والشيوخ الذين جلسوا خلف صف «الأوجوجو» . ولكنهن اذا فكرن فى هذه الأشياء فانهن يحتفظن

بها لأنفسهن . كان « الأوجوجو » صاحب المشـية الزنبركية أحد آباء العشيرة الراحلين . كان منظره مخيفا بجسمه المصنوع من الخوص المدخن ، ووجهـه الخشبى الضخم المطلى باللون الأبيض فيما عـدا العينين المسـتديرتين المجوفتين والأسـنان المسودة والتى بلغ طولها طول أصابع الرجل . وعلى رأسـه قرنان قويان .

عندما جلس جميع «الأوجوجو» وسكنت أصوات الأجراس الصـغيرة الكثيرة والشخاشيخ المعلقة على أجسامهم ، خاطب « الغابة الشريرة » المجموعتين من الناس اللتين تواجهانهم .

قال : « يا جسم أوزولو ، أحييك » . اذ تخاطب الأرواح الآدميين دائما كأجسام . انحنى أوزولو ولمس الأرض بيـده اليمنى علامة على الخضوع .

قال : « يا أبانا ، قد لمست يدى الأرض » .

وسألت الروح « يا جسم أوزولو ، أتعرفنى ؟ » .

ـــ « كيف يتسنى لى أن أعرفك ، يا أبى ؟ انك أجل من أن نعرفك » .

ثم اتجه « الغابة الشريرة » نحو الجماعة الأخرى وخاطب أكبر الاخوة الثلاثة سنا .

قال « يا جسم أودوكوى ، أحييك » ، وانحنى أودوكوى ولمس الأرض . ثم بدأ سماع القضية .

تقدم أوزولو وشرح قضيته .

« تلك المرأة التى تقف هناك زوجتى ، امجبافو . تزوجتها بمالى ويامى ولست مدينا لأنسبائى بشىء ، لست مدينا لهم بأية يامات . ولست مدينا لهم بأية يامات كاكاو . وذات صباح جاء ثلاثة منهم ، وضربونى وأخذوا زوجتى . وأخيرا ذهبت الى أهل زوجتى وقلت لهم لقد أخذتم أختكم . انى لم أطردها . أنتم بأنفسكم أخذتموها . يقضى قانون العشيرة بأن تعيدوا مهرها ، ولكن اخوة زوجتى قالوا انه ليس لديهم ما يقولنه لى . وهكذا عرضت الأمر على آباء العشيرة . هذه قضيتى بأكملها . أحييكم » .

قال قائد « الأوجوجو » كلماتك طيبة . لنسمع أودوكوى فقد تكون كلماته طيبة أيضا .

كان أودوكوى قصيرا ربعة . خطا الى الأمام ، وحيا الأرواح ثم بدأ قصته .

« قال لكم نسيبى اننا ذهبنا الى بيته ، وضربناه ثم أخذنا أختنا وأطفالها معنا . كل هذا حق . قال لكم انه جاء ليسترد مهر العروس ورفضنا أن نعطيه اياه . هـــذا أيضا حق . ان

نسيبى ، أوزولو ، وحش . عاشت أختى معه تسع سنوات . وأثناء تلك السنوات لم يمض يوم واحد دون أن يضرب المرأة. حاولنا أن نسوى خلافاتهما عددا لا يحصى من المرات وفى كل مناسبة كان أوزولو هو المذنب » .

صاح أوزولو « هذا كذب » .

واستمر أودوكوى « منذ سنتين ، عندما كانت حاملا ، ضربها حتى أجهضت » .

ــ « هــــذا كذب . أجهضت بعد أن ذهبت للاجتماع بحبيبها » .

قال الغابة الشريرة ، مسكتا له « يا جسم أوزولو ، أحييك. ما نوع هــــذا الحبيب الذى يجتمع بامرأة حامل ؟ » وجاءت من الجمع همهمة عالية تنم عن الموافقة . واستمر أودوكوى :

« السنة الماضية عندما كانت أختى فى دور النقاهة من أحد الأمراض ضربها مرة أخرى حتى كاد يقتلها لو لم يدخل الجيران ليخلصوها . سمعنا بذلك وفعلنا كما قال لكم . يقضى قانون أوموفيا بأنه اذا هربت امرأة من وزجها يعاد مهرها . ولكنهـــا فى هذه الحالة هربت لتنقذ حياتها . أما طفلاها فينتميان لأوزولو. اننا لا ننكر ذلك ، ولكن حداثة سنهما لا تسمح لهمـــا بترك أمهما . ومن ناحية أخرى ، اذا شفى أوزولو من جنونه وجاء

بالطريق السوى ليرجو زوجته أن تعود فستفعل ذلك علما بأنه اذا عاود ضربها مرة أخرى فسنقطع له أعضاءه الجنسية » .

قهقه الجمهور ضاحكا . فوقف « الغابة السوداء » وعاد النظام على الفور . تصاعدت سحابة الدخان من رأسه دون انقطاع . جلس مرة أخرى ودعا شاهدين . كانا كلاهما جيرانا لأوزولو فأيدا واقعة الضرب . ثم وقف « الغابة السوداء » وجذب عصاه وغرسها فى الأرض مرة أخرى . جرى بضعة خطوات نحو النساء ، فهربن جميعا فى فزع ، ليعدن الى أماكنهن مرة أخرى على الفور تقريبا . ثم مضى « الأوجوجو » التسعة ليتشاوروا فى منزلهم . ساد الصمت فترة طويلة . ثم دق الناقوس المعدنى الكبير ونفخ المزمار . خرج « الأجوجو » مرة أخرى من منازلهم من تحت الأرض . حيوا أحدهم الآخر ثم ظهروا مرة أخرى فى الساحة .

صاح « الغابة السوداء » وهو يواجه شيوخ العشيرة وكبرائها « يا أهل أوموفيا » !

وأجاب الجمع بصوت كالرعد « يا ! » ثم هبط السكوت من السماء وابتلع الجلبة .

بدأ « الغابة الشريرة » الكلام بينما التزم الجميع الصمت

طوال الوقت الذى تكلم فيه . وبقى « الأوجوجو » الثمانية الآخرون بلا حراك كالتماثيل .

قال « الغابة الشريرة » لقد سمعنا طرفى القضية . وليس من واجبنا أن نلوم هذا الرجل ونمتدح ذاك ، بل أن نسوى الخلاف . ثم اتجه نحو جماعة أوزولو وتمهل فترة من الوقت .

قال « يا جسم أوزولو ، أتعرفنى ؟ » .

فأجاب أوزولو « كيف يتسنى لى أن أعرفك ؟ أنت أجل من أن نعرفك » .

« أنا الغابة الشريرة » . أقتل الرجل فى اليوم الذى تصبح فيه حياته أحلى ما يكون .

أجاب أوزولو « هذا حق » .

« اذهب الى أنسبائك بقدر من الخمر وأرج زوجتك أن تعود اليك . ليس من الشجاعة أن يتشاجر رجل مع امرأة » . ثم اتجه نحو أودوكوى وسمح لفترة من الزمن أن تمر .

قال « يا جسم أودوكوى ، أحييك » .

أجاب أودوكوى « ان يدى على الأرض » .

« أتعرفنى ؟ »

أجاب أودوكوى « لا يستطيع رجل أن يعرفك ! » .

« أنا الغابة السوداء ، أنا اللحم الجاف الذى يملأ الفم . أنا النار التى تشتعل دون وقود . اذا أحضر لك نسيبك خمرا ، دع أختك تذهب معه ، أحييك » . جذب عصــاه من الأرض الصلبة ثم عاد فغرسها .

وصاح « يا أهل أوموفيا ! » وأجاب الجمع .

قال أحد الشيوخ للآخر « لا أعرف لماذا يعرض أمر تافه كهذا على « الأوجوجو » . فأجاب الآ خر « ألا تعرف أى نوع من الرجال أوزولو ؟ انه لن ينصت الى أى قرار آخر » .

وبينما هما يتحدثان اتخذت مجموعتان أخريان من الناس مكان المجموعتين الأوليين أمام « الأوجوجو » ، وبدأت قضية كبيرة من قضايا النزاع على الأرض .

الفصل الحادى عشر

كان الليل حالك الظلمة . تأخر ظهور القمـــر شيئا فشيئا حتى أصبح الآن لا يرى الا فى الفجر . كلما هجر القمر السماء ولم يبزغ الا عند صياح الديك كلما أصبحت الليالى سوداء كالفحم .

جلست ازنما وأمها على حصيرة على الأرض بعـــد تناول العشاء المكون من حساء اليام وحساء الورقة المـــرة . أمدهم مصباح زيت النخيل بضوء يميل الى الاصفرار . بدونه ماكانوا ليتمكنوا من الأكل . اذ كان يتعذر على المرء أن يعرف مكان فمه فى ظلمة الليلة . كان بكل واحد من الأكواخ الأربعة بفناء أوكونكو مصباح زيت ، وبدا كل كوخ للأكواخ الأخرى كعين رقيقة من الضوء الأصفر غير الكامل موضوعة فى كثافة الليل التى لا يخفف منها شيء .

كان العالم صامتا فيما عدا صوت الحشرات الحـــاد الذى يكون جزءا لا يتجزأ من الليل وصوت المدق والمضرب الخشبى ونوايكى تدق الفوفو . تعيش نوايكى على بعد أربعة أفنية ،

وهى معروفة بتأخرها فى القيام بالطهو . تعرف كل امرأة فى الناحية صوت مدق نوايكى ومضربها . فهذا أيضا جزء لا يتجزأ من الليل .

أكل أوكونكو من أطباق زوجاته الثلاث وجلس الآن متكئا بظهره الى الحائط . وبحث فى حقيبته وأخرج قارورة النشوق ثم قلبها فى راحته اليسرى لكن شيئا لم يخرج منها . قرع القارورة على ركبته ليهز التبغ . هذا هو عيب نشوق أوكيكى . تفسده الرطوبة بسرعة ، ويحوى أملاحا أكثر مما ينبغى . « ايديجو » هو الرجل الذى يعرف كيف يطحن النشوق الجيد ولكنه مرض أخيرا .

وصل الى سمع أوكونكو من أكواخ زوجاته أصوات منخفضة يتخللها الغناء بين الحين والآخر بينما تحكى كل امرأة وأطفالها القصص الشعبية . جلست اكويفى وازنما على حصيرة فوق الأرض . وكان الدور دور اكويفى لتقص قصة .

بدأت قائلة « ذات يوم دعيت الطيور جميعا الى وليمة فى السماء . شعرت بسعادة كبيرة وأخذت فى اعداد العدة لليوم العظيم . طلت أجسامها بخشب الكام الأحمر ورسمت زخارف جميلة على أجسامها بالطلاء الأسود » .

« رأى ذكر السلحفاة كل هذه الاستعدادات وسرعان ما

اكتشف كنهها . لم يكن يحدث شيء قط فى عالم الحيوانات دون أن يسترعى انتباهه ، كان مليئا بالدهاء . لم يكد يسمع بالوليمة الكبيرة فى السماء حتى سال لعابه لمجرد التفكير فيها . كانت هناك مجاعة فى تلك الأيام ولم يكن ذكر السلحفاة قد أكل أكلة شهية منذ شهرين . صار جسمه يشخشخ فى غطائه الحجرى الفارغ كقطعة من عصا جافة . وهكذا بدأ يضع خطة للذهاب الى السماء .

قالت ازنما « لكنه لا يملك أجنحة . »

أجابت أمها « صبرا . تلك هى القصة . لم يكن للسلحفاة أجنحة ولكنه ذهب الى الطيور وطلب أن تسمح له بالذهاب معها.

« قالت الطيور عندما سمعت ذلك أننا نعرفك جيدا . أنت غاية فى الدهاء كما أنك لا تحفظ المعروف . فاذا سمحنا لك بالمجيء معنا فسرعان ما تبدأ مقالبك » .

« قال ذكر السلحفاة وأنتم لا تعرفوننى . لقد تغيرت تماما . تعلمت أن الرجل الذى يسبب المتاعب لغيره يسبب المتاعب لنفسه أيضا ؟

« كان للسلحفاة لسان معسول ، وبعد فترة وجيزة اتفقت جميع الطيور أنه تغير بالفعل ، وأعطاه كل منها ريشة حتى صنع من مجموعها جناحين .

« أخيرا حل اليوم العظيم وكان السلحفاة أول من وصل الى مكان الاجتماع . عندما اجتمعت الطيور ، أخذت تطير والسلحفاة معها . كان السلحفاة سعيدا جدا لا يكف عن الكلام وهو يطير وسط الطيور ، وسرعان ما اختير ليكون المتكلم باسم الجماعة لأنه كان خطيبا مفوها .

« قال والجماعة تطير فى طريقها ؛ هناك أمر هام يجب ألا يفوتنا . عندما يدعى الناس لوليمة كبيرة كهذه ، يتخذون لأنفسهم أسماء جديدة لهذه المناسبة . سيتوقع مضيفونا فى السماء أن نحترم هذه العادة القديمة .

« لم يسمع أحد من الطيور بهذه العادة ولكنها تعرف أن السلحفاة ، بالرغم من نقائصه فى نواح أخرى رجل سافر كثيرا ويعرف عادات الشعوب المختلفة وهكذا اتخذ كل اسما جديدا لنفسه . وعندما انتهى الجميع ، اتخذ السلحفاة أيضا اسم هو وأنتم جميعا » .

« أخيرا وصلت الجماعة الى السماء وأبدى مضيفوها سعادة كبيرة لرؤيتها . ووقف السلحفاة فى ريشه المتعدد الألوان وشكرهم على دعوتهم . كان خطابه بليغا لدرجة جعلت الطيور تشعر بالسرور لاحضاره معها ، وهزت رؤوسها موافقة على كل ما قال . ظنه المضيفون ملكا ، خاصة وأن منظره كان يختلف بعض الشىء عن الطيور الأخرى .

« بعد أن تم تقديم ثمار الكولا وأكلها ، قدم أهل السماء لضيوفهم أشهى أطعمة حلم بها السلحفاة فى أى وقت من الأوقات. أحضر الحساء ساخنا من النار فى القدر الذى طهى فيه . كان مليئا باللحم والسمك . بدأ السلحفاة فى الشمشمة بصوت مرتفع. قدم يام مدقوق وحساء اليام بزيت النخيل والسمك الطازج . كما قدمت قدور من خمر النخيل . عندما وضع كل شيء أمام الضيوف ، تقدم أحد أهل السماء وذاق قليلا من كل قدر . ثم دعا الطيور للأكل . لكن السلحفاة هب واقفا على قدميه وسأل: « لمن أعددتم هذه الوليمة ؟ » .

« فأجاب الرجل أنتم جميعا » .

« والتفت السلحفاة الى الطيور وقال تذكرون أن اسمى هو أنتم جميعا » .

العادة هنا أن يقدم الطعام للمتكلم باسم الجماعة أولا ثم للباقين . سيقدمون لكم الطعام عندما انتهى من الأكل » .

« وبدأ يأكل بينما أخذت الطيور تتذمر غاضبة . وظن أهل السماء أن من عادة الطيور أن تترك الطعام كله لملكها . وهكذا أكل السلحفاة معظم الطعام وشرب قدرين من خمر النخيل ، حتى امتلأ بالطعام والشراب وملأ جسمه غطاءه » .

« التفت الطيور حول المائدة لتأكل ما تبقى من الطعام وتنقر

العظام التى ألقى بها على الأرض . لكن بعضها بلغ به الغضب حدا رفضت معه أن تأكل . وفضلت أن تطير الى ديارها ببطون خاوية . ولكن قبل أن تمضى استرجع كل طائر الريشة التى كان قد أقرضها للسلحفاة . ووقف هو فى غطائه الصلب وهو مليء بالطعام والشراب ولكن بغير جناحين يطير بهما الى منزله . طلب الى الطيور أن تحمل رسالة الى زوجته ، ولكنها رفضت جميعا . وفى النهاية وبغتة راجع الببغاء الذى كان أكثر غضبا من الآخرين نفسه وقبل أن يحمل الرسالة » .

« قال السلحفاة ، قل لزوجتى أن تخرج كل الأشياء اللينة التى فى المنزل وتغطى بها الفناء حتى يتسنى لى أن أقفز من السماء الى الأرض دون خطر كبير جدا » .

« ووعده الببغاء بتسليم الرسالة ، ثم طار . ولكن عندما وصل منزل السلحفاة قال لزوجته أن تخرج كل الأشياء الصلبة التى فى المنزل . وهكذا أخرجت فؤوس زوجها وخناجره ، وحرابه وبنادقه ، وحتى مدفعه . ونظر السلحفاة من السماء الى أسفل ورأى زوجته تخرج أشياء . لكنه كان على بعد لا يسمح له برؤية ماهية هذه الأشياء . وعندما بدا كل شيء معدا ، ترك نفسه يسقط . فسقط وسقط الى أن بدأ يساوره خوف من أنه لن يتوقف عن السقوط . ثم اصطدم بفنائه بصوت كصوت مدفعه » .

سألت ازنما « هل مات ؟ » .

وأجابت اكويفى « لا . تحطم غطاؤه الى أجزاء صغيرة . لكن كان بالمنطقة رجل طب عظيم . استدعته زوجة السلحفاة فجمع قطع الغطاء الصغيرة كلها ولصقها معا . وهذا هو السبب فى أن غطاء السلحفاة ليس أملسا » .

وأشارت ازنما الى أن « القصة ليس بها أية أغنية » .

فقالت اكويفى « لا . سأفكر فى أخرى بها أغنية . ولكن الدور دورك الآن » .

وبدأت ازنما « ذات مرة ، ذهبت السلحفاة والقط ليصارعا اليام ـــ لا ، ليست هذه هى البداية . ذات مرة حدثت مجاعة عظيمة فى بلاد الحيوانات ، أصاب الهزال الجميع ما عدا القط ، الذى كان سمينا ، لامع الجسم كما لو كان مدهونا بالزيت .. » .

وتوقفت عند ذلك ، لأنه فى تلك اللحظة عينها فرق سكون الليل الخارجى صوت عال حاد النبرات . كان صوت تشيلو ، كاهنة أجبالا ، تتنبأ . لم يكن فى ذلك جديد فمن آن لآخر تحل روح الاله على تشيلو فتأخذ فى النبوءة . ولكنها الليلة توجه نبوءتها وتحياتها الى أوكونكو وهكذا أنصت كل أفراد الأسرة وتوقفت القصص الشعبية .

« عفوا أجبالا ! أحييك أجبالا » هكذا جاء الصوت كالسكين

الحاد يشق حجاب الليل . « أجبالا انى أحبيك ! أجبالا ، يريد أن يرى ابنته ازنما و ــــ ووو ! » .

وعند ذكر اسم ازنما سحبت اكويفى رأسها بشدة كالحيوان الذى يشم الموت فى الجو . وقفز قلبها بداخلها مسببا لها ألما .

وصلت الكاهنة الآن الى فناء أوكونكو ووقفت تتحدث اليه خارج كوخه . كانت تردد المرة تلو الأخرى أن أجبالا يريد أن يرى ابنته ازنما . وما فتىء أوكونكو يضرع اليها أن تعود فى الصباح لأن ازنما نائمة . لكن تشيلو تجاهلت ما كان يحاول أن يقوله واستمرت تصرخ قائلة ان أجبالا يريد أن يرى ابنته . كان صوتها صافيا كالمعدن ، وسمع نساء أوكونكو وأبناؤه فى أكواخهم كل ما تقول . ما زال أوكونكو يحاول اقناعها أن الفتاة كانت مصابة بالمرض فى الفترة الأخيرة وأنها نائمة . أخذتها اكويفى بسرعة الى حجرة النوم ووضعتها على سريرها المرتفع المصنوع من الخيزران .

وبغتة صرخت الكاهنة محذرة « حذار أوكونكو . حذار من الجدل مع أجبالا . هل يتكلم رجل عندما يتكلم اله ؟ حذار ! » .

اخترقت كوخ أوكونكو الى الفناء المستدير وذهبت رأسا الى كوخ اكويفى يتبعها أوكونكو .

نادت « اكويفى ، أجبالا يحييك . أين ابنتى ازنما ؟ أجبالا يرغب فى رؤيتها » .

خرجت اكويفى من كوخها تحمـل مصباح زيت فى يدها اليسرى . وهبت نسمة خفيفة ، فثنت يدها اليمنى لتحمى اللهب. كذلك خرجت أم نوويى من كوخها تحمل مصباح زيت ، ووقف أبناؤها فى الظلام خارج كوخهم يرقبون الحدث الغريب . خرجت زوجة أوكونكو الصغرى أيضا وانضمت الى الآخرين .

سألت اكويفى « أين يرغب أجبالا أن يراها » .

فأجابت الكاهنة « وأين تظنين سوى فى بيته فى التـلال والكهوف ؟ » .

قالت اكويفى بثبات « سآتى أنا معك أيضا ! » .

« اتفو ! » بصقت الكاهنة وهى تلعن ، وصـوتها يقرقع كنباح الرعد الغاضب فى الفصل الجـاف . « كيف تجرئين ، يا امرأة ، أن تذهبى الى حضرة أجبالا العظيم دون أن يدعوك . احذرى أيتها المرأة ، لئلا يضربك فى غضبه . احضرى لى ابنتك» .

دخلت اكويفى الى كوخها وخرجت مرة أخرى ومعها ازنما .

وقالت الكاهنة « تعالى يا ابنتى ، سأحملك فوق ظهرى . اذا امتطى طفل ظهر أمه فلن يعرف أن الطريق طويل » .

أخذت ازنما فى البكاء . اعتادت أن تسمع تشيلو تدعوها « بابنتى » . ولكن تشيلو التى تراها الآن فى النور الأصفر غير الكامل كانت شخصا مختلفا .

فقالت الكاهنة « لا تبكى يا ابنتى ، لئــلا يغضب منك أجبالا » .

وقالت اكويفى « لا تبكى . ستعود بك قريبا . وسأعطيك شيئا من الســمك تأكلينه » . ثم دخلت الى الكوخ وأنزلت السلة التى كساها الدخان بلون أسود والتى تحتفظ فيها بالسمك المجفف وبعض المواد الأخرى التى تستخدمها فى عمل الحساء . كسرت قطعة نصفين وأعطتها لازنما ، التى تشبثت بها .

قالت اكويفى « لا تخافى » وربت على رأســها المحلوقة فى بعض الأماكن التى بدت فى شكل زخرف منتظم فى شــعرها . خرجا معا . انحنت الكاهنة على ركبة واحدة وتسلقت ازنمـا ظهرها ، ويدها اليسرى مطبقة على سمكتها والدموع تلمع فى عينيها .

« عفوا أجبالا ! أحييك أجبالا ! » هكذا أخذت تشيلو ترنم التحيات لالهها . ثم استدارت بحدة واخترقت كوخ أوكونكو وهى تنحنى بشدة عند السقوف المنخفضة . بكت ازنما بصوت مرتفع الآن ، وهى تنادى أمها . ثم اختفى الصوتان فى الظلمة الحالكة .

وهبط على اكويفى ضعف غريب مفاجىء وهى تقف محملقة فى اتجاه الصوتين كالدجاجة التى خطفت الحدأة فرخها الوحيد. وسرعان ما خفت صوت ازنما وانقطع وما عاد يسمع سوى صوت تشيكو وهى تبتعد شيئا فشيئا .

سأل أوكونكو وهو يعود الى كوخه « لماذا تقفين هكذا كما لو كانت قد خطفت ؟ » .

وقالت أم نوويى « ستعود بها حالا » .

ولكن اكويفى لم تسمع هذه الأقوال التى قصد بها التسرية عنها . وقفت برهة ثم ، فجأة ، قررت أمرا . أسرعت تخترق كوخ أوكونكو وخرجت الى الخارج .

سأل « أين تذهبين ؟ » .

فأجابت « سأتبع تشيلو » واختفت فى الظلام . تنحنح أوكونكو ، وأخرج قارورة النشوق من حقيبته المصنوعة من جلد الماعز التى بجانبه .

لقد خفت صوت الكاهنة على البعد . أسرعت اكويفى الى الطريق الرئيسى غير المرصوف واتجهت يسارا فى اتجاه الصوت. لم تجد عيناها نفعا فى الظلام . لكنها تحسست طريقها بسهولة على الطريق الرملى الذى تحيط به الأغصان والأوراق المبتلة على

الجانبين . أخــذت تجرى وهى تمسك ثدييها بيــديها لتوقف تلاطمهما مع جسمها . واصطدمت قدمها اليسرى بجــذر بارز وتملكها الفزع . كان ذلك نذير سوء . جرت أسرع من قبل . لكن صوت تشيلو ما زال على بعد كبير منها . هل كانت تجرى هى أيضا ؟ كيف يمكنها أن تسرع بهذه الدرجة وازنمــا على ظهرها ؟ بالرغم من أن الليل كان مائلا الى البرودة فقد أخذت اكويفى تشعر بالحرارة من جراء الجرى . وما فتئت تجرى نحو الحشائش الغزيرة والنباتات المتسلقة التى تسيج الممر . ومرة تعثرت قدمها ووقعت . وعندئذ فقط أدركت بفزع أن تشيلو توقفت عن الترنم . دق قلبها بعنف ووقفت لا تبدى حراكا . ثم جاء صوت تشيلو من جديد كالانفجار على بعد بضع خطوات فقط أمامها . لكن اكويفى لم تستطع رؤيتها . أغمضت عينيها برهة ثم فتحتهما مرة أخرى فى محاولة لترى . لكن دون جدوى. لم تستطع أن ترى أبعد من أنفها .

لم يكن فى السماء نجوم اذ كانت هناك ســحابة مطــر . وتحركت الذبابات النارية بمصابيحها الصغيرة الخضراء ، التى لم تبدد الظلام بل جعلته يبدو أكثر كثافة . وبين انفجارات تشيلو بالغناء كان الليل حيا باهتزازات حشرات الغابة الحارة المنسوجة فى الظــلام .

« عفوا أجبالا ! أحبيك أجبالا ! » سارت اكويفى بخطى

ثقيلة خلف الصوت ، دون أن تقترب أكثر مما ينبغى ولا تتأخر الى الوراء أكثر مما ينبغى . ظنت أنهما لابد ذاهبتان نحـو الكهف المقدس . أصبح لديها الآن وهى تسير ببطء ، متسع من الوقت للتفكير . ماذا تفعل عندما يصلن الى الكهف ؟ لن تجرؤ على الدخول . ستنتظر عند المدخل ، وحدها تماما فى ذلك المكان المخيف . فكرت فى كل مخاوف الليل . تذكرت تلك الليلة ، فى الماضى البعيد ، عندما رأت « أوجبو ـــ أوجالى ـــ أودو » ، أحد تلك الأرواح الشريرة التى أطلقت على العالم بواسـطة العقاقير القوية التى صنعتها القبيلة فى الماضى البعيد ضد أعدائها ولكنها نسيت الآن كيف تتحكم فيها . كانت اكويفى عائدة من المجرى مع أمها فى ليلة مظلمة تشبه هذه الليلة عندما رأيتا وهجه وهو يطير نحوهما . ألقتا بقدور الماء التى تحملانها ورقدتا بجانب الطريق وهما تتوقعان أن يهبط النور الشرير عليهما ويقتلهما . كانت تلك هى المرة الوحيدة التى رأت فيها اكويفى « أوجبو ـــ أوجالى ـــ أودو » . ولكن بالرغم من أن هذا حدث منذ وقت بعيد جدا ، ، فان البرودة ما زالت تدب فى أوصالها كلما تذكرت تلك الليلة .

جاء صوت الكاهنة على فترات أكثر تبـاعدا الآن ، لكن قوته لم تتناقص . كان الهواء مائلا الى البرودة ، يرطبه الندى. عطست ازنما وتمتمت اكويفى « لك الحياة » . وفى نفس الوقت

قالت الكاهنة أيضا « لك الحياة يا ابنتى » . بعث صوت ازنما الآتى من الظلام بالدفء الى قلب أمها . تقدمت ببطء بخطى ثقيلة .

ثم صرخت الكاهنة قائلة « ان شخصا يسير خلفى ! سواء كنت روحا أو رجلا ، ليلحق أجبالا رأسك بموسى غير ماض ! ليلو رقبتك حتى ترى عقبيك ! » .

ووقفت اكويفى وقد تسمرت فى مكانها . قال لها جزء من عقلها أيتها المرأة ، اذهبى الى منزلك قبل أن يمسك أجبالا بسوء . ولكنها لم تستطع أن تذهب . ووقفت الى أن ضاعفت تشيلو المسافة بينهما . ثم بدأت فى المتابعة مرة أخرى . كانت قد سارت فترة طويلة . حتى بدأت تشعر ببرودة وتجمد فى أطرافها ورأسها . ثم عن لها أنه من المستحيل أن يكن متجهات نحو الكهف . اذ لابد أنهن مررن به من مدة طويلة . لابد أنهن فى طريقهن الى أوموانشى ، أبعد قرية فى العشيرة . وجاء صوت تشيلو الآن على فترات طويلة .

وبدا لاكويفى الليل وقد خفت ظلمته بعض الشىء . لقد انقشعت السحابة وظهرت بضعة نجوم . لابد أن القمر يستعد للبزوغ بعد أن انتهى عبوسه . فعندما يطلع القمر متأخرا فى الليل ، يقول الناس انه كان يرفض الطعام ، كما يرفض الزوج العبوس طعام زوجته عندما يتشاجران .

« عفوا أجبـالا ! أوموواشى ! أحبيك أجبـالا ! » كانت اكويفى على صواب . فالكاهنة الآن تحيى قرية أوموواشى . انه لمن غير المعقول ، كل هذه المسافة التى قطعنها . وعندما خرجتا الى القرية المفتوحة من طريق الغابة الضيق ، خف الظلام وأصبح فى وسعها أن ترى أشكال الأشجار غير واضحة . ضيقت اكويفى عينيها فى محاولة لرؤية ابنتها والكاهنة . لكن كلما خيل اليها أنها رأت شكلهما فسرعان ما يتلاشى ككتلة منصهرة فى الظلام . سارت الى الأمام بأطراف باردة ثقيلة .

ارتفع صوت تشيلو الآن بصفة مستمرة ، كما كان فى البداية . شعرت اكويفى أنها فى مكان متسع مكشوف ، وظنت أنهن لابد فى ساحة القرية ، أو ملعبها . وأدركت أيضا بشىء يشبه الرجة أن تشيلو لم تعد تتحرك الى الأمام . كانت ، فى الواقع ، عائدة . تحركت اكويفى بسرعة من طريق عودتها . مرت بها تشيلو ، وبدأن فى العودة من حيث أتين .

كانت رحلة طويلة شاقة وشعرت اكويفى أنها كالسائرة فى نومها معظم الطريق . كان القمر يطلع بالتأكيد ، وبالرغم من أنه لم يظهر بعد فى السماء الا أن نوره كان قد أذاب الظلام فعلا ، استطاعت اكويفى أن تميز شكل الكاهنة وحملها . قللت من سرعة سيرها حتى تزيد المسافة بينهما . كانت تخشى ما يمكن أن يحدث اذا استدارت تشيلو بغتة ورأتها .

كم صلت أن يطلع القمر . أما الآن فانها تجد القمر الذى لم يكتمل ضوؤه ، والذى بزغ لتوه أكثر اثارة للفزع من الظلام . أصبح العالم الآن مأهولا بأشكال غامضة غريبة . استبد الخوف باكويفى حتى كادت تدعو تشيلو بصوت مرتفع طالبة الصحبة والمشاركة الانسانية : أما ما رأته فكان شكل انسان يتسلق شجرة نخيل ، تشير رأسه الى الأرض ورجلاه الى السماء . ولكن فى هذه اللحظة عينها ارتفع صوت تشيلو فى ترنمها كما لو كان بها مس . تراجعت اكويفى ، لأن هذا الصوت كان خاليا من الانسانية . لم تكن تلك تشيلو التى تجلس معها فى السوق وتشترى أحيانا شيئا من كعك الفول لازنما ، التى تدعوها ابنتى . كانت امرأة مختلفة — كاهنة أجبالا ، عراف التلال والكهوف . سارت اكويفى متثاقلة يتناهبها خوفان . بدا لها كأن وقع خطواتها الثقيلة الحذرة صادر عن شخص آخر يسير خلفها . وكان ذراعاها معقودين على ثدييها العاريين . وسقط الندى بغزارة وكان الجو باردا . فلم تعد تقوى على التفكير ، ولا حتى فى مخاوف الليل . وهكذا سارت تتخبط الى الأمام فيما يشبه النوم ، لا تصحو وتصبح حية تماما الا عندما تغنى تشيلو .

وأخيرا عرجن جانبا وبدأن فى الاتجاه نحو الكهف . منذ هذه اللحظة لم تتوقف تشيلو قط عن الترنم . دعت الهها بأسماء

عدة ــ صاحب المستقبل ، رسول الأرض ، الاله الذى يقطع الانسان من الأرض عندما تصبح حياته أحلى ما تكون . صحت اكويفى أيضا وعادت اليها مخاوفها التى كانت قد سكنت .

طلع القمر الآن واستطاعت اكويفى أن ترى تشيلو وازنما بوضوح . انها لمعجزة أن تستطيع امرأة أن تحمل طفلة بهــذا الحجم بهذه السهولة وطيلة هذه المدة . لم تكن تفكر فى ذلك . لم تكن تشيلو امرأة تلك الليلة .

« عفوا أجبالا ! أحبيك أجبالا ! أيها الاله الذى يقتــل الانسان عندما يأخذ فى الاستمتاع بالحياة ، أشكرك ! » .

أصبحت اكويفى ترى التلال تلوح فى ضوء القمر . وتكون حلقة دائرية مفتوحة عند نقطة واحــدة ، يخترقها الممر الذى يؤدى الى وسط الدائرة .

وحالما خطت الكاهنة الى داخل هذه الدائرة من التلال فان صوتها لم تتضاعف قوته فحسب بل تردد صــداه من جميع الجهات . انه حقــا هيكل يليق باله عظيم . تحسست اكويفى طريقها بحرص وهدوء شديدين . كانت قد بدأت فعلا تشك فى صواب فكرة مجيئها . فكرت فى أن ازنما لن يصيبها سوء . واذا أصابها شىء فهل بوسعها أن تمنع ذلك ؟ لن تجرؤ على دخول

الكهوف التى تحت الأرض . ظنت أن مجيئها كان عديم الجدوى تماما .

لم تدرك وهذه الأفكار تدور فى ذهنها كم اقتربن من فم الكهف . وهكذا عندما اختفت الكاهنة وازنما فوق ظهرها من خلال فتحة لا تكاد تسمح بمرور دجاجة ، أخذت اكويفى تجرى وكأنها تريد أن توقفهما . وبينما وقفت تحملق فى الظلمة المستديرة التى ابتلعتهما ، تساقطت الدموع بغزارة من عينيها ، وأقسمت فى داخلها أنها اذا سمعت ازنما تصرخ فستندفع الى داخل الكهف لتدافع عنها ضد جميع آلهة العالم . لا بل تموت معها .

وبعد أن أقسمت هـذا القسم ، جلست على حافة صخرة وانتظرت . اختفت مخاوفها . كانت تسمع صوت الكاهنة ، وقد اختفت حدته فى فراغ الكهف الواسع . دفنت رأسها فى حجرها وانتظرت .

لم تدر كم طال انتظارها . لابد أنها انتظرت وقتا طويلا ، كانت قد أدارت ظهرها للممر المؤدى الى خارج التلال . لابد أنها سمعت صوتا خلفها فاستدارت بحدة ، لتجد رجلا يقف حاملا خنجره فى يده . ندت عن اكويفى صرخة وهبت واقفة .

قال صوت أوكونكو « لا تكونى حمقاء » ثم أضاف ساخرا « ظننتك ذاهبة الى داخل الهيكل مع تشيلو . »

لم تجب اكويفى وملأت دموع الشكر عينيها . كانت تعلم أن ابنتها بخير .

قال أوكونكو « اذهبى الى البيت ونامى . سأنتظر أنا هنا . »

« سأنتظر أنا ايضا . ها قد بدأ الفجر يلوح . لقد صاح الديك الأول . »

وبينما هما يقفان معا ، عادت اكويفى بذهنها الى الوراء عندما كانا شابين . كانت قد تزوجت أنينى لأن أوكونكو كان حينئذ فقيرا لا يستطيع الزواج . وبعد عامين من زواجها من أنينى لم تعد تطيق أكثر من ذلك فهربت الى أوكونكو . حدث ذلك فى صباح مبكر والقمر مضيىء . كانت فى طريقها لتحضر ماء . كان منزل أوكونكو يقع فى طريقها الى المجرى . دخلت وطرقت بابه فخرج . فحتى فى تلك الأيام لم يكن رجلا كثير الكلام . لم يزد عن أن حملها الى فراشه وفى الظلام أخذ يتحسس خصرها بحثا عن طرف ازارها .

الفصل الثانى عشر

وفى اليوم التالى ســاد الناحية كلها جو من المرح ، لأن صديق أوكونكو ، أوبيريكا كان يحتفل « بأورى » ابنته ، أى باليوم الذى يحضر فيه الخطيب خمر النخيل (بعد أن يكون قد دفع الجزء الأكبر من مهرها) لا لوالديها فقط وأهلها المقربين بل للجماعة الواسعة الممتدة من الأقارب الذين يدعون « أمونا ». لقد دعى الجميع رجالا ونساء وأطفالا . ولكن الحقيقة أن هذا الاحتفال احتفال نسائى تقوم فيه العروس وأمها بالدور الرئيسى.

وما كاد النهار يطلع ، حتى تناول الناس افطارهم بسرعة وبدأ النساء والأطفال فى التجمع فى فناء أوبيريكا لمساعدة أم العروس فى عملها الصعب السعيد ألا وهو طهو الطعام لقرية بأجمعها .

نشطت أسرة أوكونكو كغيرها من أسر الناحية . كانت أم نوويى وزوجة أوكونكو الصغرى على استعداد للذهاب الى فناء أوبيريكا مع كل أولادهما . حملت أم نوويى سلة من يام الكاكاو وكعكة من الملح وبعض السمك المدخن لتقدمها هدية لزوجة أوبيريكا . كذلك أخذت زوجة أوكونكو الصغرى سلة

من الموز ويام الكاكاو وقدرا صغيرا من زيت النخيل وحمل أبناؤهما قدورا من الماء .

كانت اكويفى متعبة يغلب عليها النوم نتيجة لما عانته من اجهاد فى الليلة السابقة . اذ لم يمض وقت طويل منذ عودتهم . فقد زحفت الكاهنة على بطنها من الكهف وازنما نائمة فوق ظهرها . لم تعر أوكونكو واكويفى أى التفات ولم تبد أية دهشة لرؤيتهما عند فم الكهف . لم تلتفت يمينا أو يسارا وسارت عائدة الى القرية . وتبعها أوكونكو وزوجته على مسافة مناسبة. لقد ظنا أن الكاهنة قد تكون ذاهبة الى بيتها ، ولكنها ذهبت الى فناء أوكونكو ، مارة بكوخه الخاص الى كوخ اكويفى وسارت الى حجرة نومها . وهناك وضعت ازنما بحرص على الفراش وعادت من حيث أتت دون أن تنبس ببنت شفة لأحد .

كانت ازنما لا تزال نائمة عندما نهض الآخرون ، وطلبت اكويفى من أم نوويى وأوجيجو أن يخبرا زوجة أوبيريكا أنها ستتأخر قليلا .وكانت قد أعدت سلة من يام الكاكاو والسمك ، ولكن يجب أن تنتظر الى أن تصحو ازنما .

قالت أم نوويى « انك تحتاجين الى شىء من النوم . اذ يبدو عليك الارهاق الشديد » .

وبينما هما تتحدثان خرجت ازنما من الكوخ ، وهى تدعك

عينيها وتفرد جسمها الرقيق . وحين رأت الأطفال الآخرين يحملون قدور الماء تذكرت أنهم ذاهبون لاحضار الماء لزوجة أوبيريكا . عادت الى الكوخ وأحضرت قدرها .

وسألتها أمها « هل نلت قدرا كافيا من النوم ؟ »

فأجابت « نعم . لنذهب » .

وقالت اكويفى « لن نذهب قبل أن تتناولى افطارك ».

وذهبت الى الكوخ لتدفىء حساء الخضر الذى أعدته فى الليلة السابقة .

قالت أم نوويى « سنذهب الآن وسأخبر زوجة أوبيريكا أنك ستأتين فيما بعد . »

وهكذا ذهب الجميع ليساعدوا زوجة أوبيريكا — أم نوويى وأبناؤها الأربعة وأوجيجو وابناها .

وعندما مر الطابور بكوخ أوكونكو سأل : « من الذى سيعد لى وجبة بعد الظهر ؟ »

فقال أوجيجو « سأعود أنا لأعدها » .

كان أوكونكو أيضا يشعر بالتعب والحاجة الى النوم ، اذ لم يعلم أحد غيره أنه لم ينم الليلة السابقة قط . لقد شعر بالقلق ولكنه لم يبد قلقه . عندما تبعت اكويفى الكاهنة ، سمح لفترة

اعتبرها معقولة وتليق برجل مثله أن تمر ثم حمل خنجره وذهب الى الهيكل ، حيث كان متأكدا من وجودهن . ولم يخطر بباله الا عندما وصل الى هناك أن الكاهنة قد تفضل أن تطوف بالقرى أولا . وحينئذ عاد الى المنزل وجلس ينتظر . وعندما ظن أنه قد انتظر فترة كافية عاد مرة أخرى الى الهيكل . لكن « التلال » و « الكهوف » كانت ساكنة سكون الموت . لم يجد اكويفى الا فى المرة الرابعة ، وبعد أن كان القلق قد استبد به كل الاستبداد.

كان فناء أوبيريكا يموج بالحياة كعش النمل وقد أقيمت مواقد مثلثة مؤقتة للطهى فى كل شبر من الأرض يمكن الحصول عليه ، بوضع ثلاث كتل من التربة المجففة فى الشمس جنبا الى جنب واشعال النار فى وسطها . كانت قدور الطهو ترفع وتنزل من على المواقد المثلثة ، وطعـام الفوفو يدهك فى مائة مدق خشبى . وقد قام بعض النساء بطهو اليام والكاساقا ، وأعدت أخريات حساء الخضر . قام الشبان بدق الفوفو أو شق الخشب للوقود . وقام الأطفال بالذهاب الى المجرى مرات لا حصر لها .

عاون ثلاثة شـبان أوبيريكا فى ذبح عنزتين ليصنع منهما الحساء . كانتا عنزتين سمينتين ، لكن أسمنها جميعا ربطت الى وتد بجوار حائط الفناء . كانت تضارع البقرة حجما . لقد أرسل أوبيريكا أحـد أقاربه بعيدا الى أوموبكى ليبتاع تلك العنزة . كانت هى العنزة التى سيقدمها حية هدية الى أنسبائه .

قال الشاب الذى أرسله أوبيريكا ليشترى العنزة العملاقة « ان سوق أومويكى مكان مدهش . به عدد كبير من الناس حتى أنك اذا ألقيت حبة من الرمل فلن تجد لها طريقا لتسقط ثانية الى الأرض » .

قال أوبيريكا « هذا نتيجة عقار عظيم . أراد أهل أومويكى أن يكبر سوقهم ويبتلع أسواق جيرانهم . فصنعوا عقارا قويا . كل يوم من أيام السوق ، قبل أن يصيح الديك ، يقف هذا العقار على أرض السوق فى شكل امرأة عجوز تحمل مروحة . بهذه المروحة السحرية تدعو الى السوق جميع العشائر المجاورة — تشير أمامها وخلفها وعن يمينها وعن يسارها » .

قال رجل آخر « وهكذا يحضر الجميع ، الرجال الأمناء واللصوص . وبوسعهم أن يسرقوا ازارك من على وسطك فى ذلك السوق » .

قال أوبيريكا « نعم . لهذا حذرت نوانكو أن يكون حاد العين ، حاد الأذن . حدث مرة أن ذهب رجل ليبيع عنزة . سحبها فى نهاية حبل سميك ربطه الى معصمه . لكنه أدرك وهو يسير خلال السوق أن الناس يشيرون اليه كما يشيرون الى رجل معتوه . لم يستطع أن يفهم السبب الا عندما التفت وراءه ورأى أنه لا يجر فى نهاية الحبل عنزة بل كتلة ثقيلة من الخشب » .

قال نوانكو « أتظن أن سارقا يستطيع أن يفعل مثل هذا الأمر بمفرده ؟ » .

قال أوبيريكا « كلا . انهم يستخدمون العقاقير » .

عندما ذبحوا العنزتين وجمعوا الدم فى وعاء ، أمسكوا بهما على نار مكشوفة ليحرقوا الشعر ، فاختلطت رائحة الشعر المحروق برائحة الطهو . ثم غسلوهما وقطعوهما للنساء لاعداد الحساء .

كان هذا النشاط الذى يشبه نشاط عش النمل يسير سيرا طبيعيا ، عندما توقف فجأة ، سمعت صرخة عن بعد : تلك التى تستخدم ذيلها لتهش الذباب ! ، وعلى الفور تركت كل امرأة ما كانت تعمله واندفعت تجاه الصرخة .

صاحت تشيلو الكاهنة « لا نستطيع أن نندفع كلنا هكذا ونترك ما نطهوه يحترق على النار . يجب أن يبقى ثلاث أو أربع منا هنا » .

قالت امرأة أخرى « هذا حق . سنسمح لثلاث أو أربع أن يبقين هنا » .

بقيت خمس نساء للعناية بقدور الطعام ، واندفعت الباقيات ليرين البقرة التى أفلتت . وعندما رأينها أعدنها الى صاحبها ، الذى دفع على الفور الغرامة الكبيرة التى فرضتها القرية على

كل من تغير بقرته على محاصيل جيرانه . وعندما وقع العقاب ، راجعت النساء عددهن ليرين اذا ما كانت أية امرأة قد تخلفت عن الخروج عندما سمع النداء .

سألت احداهن « أين مجبوجو ؟ » .

قالت الجارة التى تسكن بجوارها مباشرة « انها مريضة وملازمة للفراش . فهى تعانى من الملاريا » .

قالت امرأة أخرى « المرأة الوحيدة الأخرى هى أودنكو ، وطفلها لم يبلغ ثمانية وعشرين يوما بعد » .

عادت النساء اللاتى لم تطلب اليهن زوجة أوبيريكا أن يساعدنها الى بيوتهن ، أما الباقيات فعدن معا الى فناء أوبيريكا .

سألت النساء اللاتى سمح لهن بالبقاء « بقرة من هذه ؟ » .

قالت ايزيلاجبو « بقرة زوجى . فتح أحد الأطفال حظيرة البقـر » .

ومع مطلع العصر وصل القدران الأولان من خمر النخيل من أنسباء أوبيريكا . وقدما كما هى العادة للنسـاء ، اللاتى شربت منهن كأسا أو اثنتين ليساعدهن ذلك على الطهو . قدم بعضه أيضا للعروس والفتيات اللاتى معهـا ، واللاتى يضعن

اللمسات الأخيرة لتسريحة شعرها ، وخشب الكام الملون لجلدها الناعم الملمس .

وعندما بدأت حرارة الشمس تخف ، أخذ ابن أوبيريكا ، مادوكا مكنسة وكنس الأرض أمام كوخ والده الخاص . وكما لو كانوا ينتظـرون الى أن يتم ذلك ، بدأ أقارب أوبيريكا وأصدقاؤه فى الوصول ، يعلق كل رجل حقيبته المصنوعة من جلد الماعز على كتفه ويحمـل بساطا من جلد المـاعز تحت ذراعه . صحب بعضهم أبناءهم ليحملوا لهم مقاعد خشبية منقوشـة . كان أوكونكو أحـد هؤلاء . جلسـوا فى نصف دائرة وبدأوا يتحدثون فى أمور شتى . لن يطول الوقت الآن قبل أن يحضر أهل العريس .

أخرج أوكونكو قارورة نشوقه وقدمها «لأوجبوفى ازنوا»، الذى يجلس بجواره . أخذها ازنوا وهزها على قمة ركبته ، مسح كفه اليسرى على جسمه ليجففها قبل أن يصب فيها قليلا من النشوق . كانت حركاته متعمدة ، تكلم وهو يقوم بها قائلا :

« أرجو أن يحضر أنسباؤك كثيرا من قدور الخمر . بالرغم من أنهم يأتون من قرية عرفت ببخلها ، الا أن من واجبهم أن يعرفوا أن اكويكى جديرة بأن تكون عروسا لملك » .

قال أوكونكو « لن يجرؤوا على احضـار أقل من ثلاثين قدرا . والا فسأخبرهم صراحة برأيى فيهم » .

فى تلك اللحظة جر ابن أوبيريكا ، مادوكا ، العنزة العملاقة من الفناء الداخلى الى الخارج ، ليراها أقارب والده . أعجب بها الجميع وقالوا ان هذه هى الطريقة التى تعمل بها الأشياء . ثم أعيدت العنزة مرة أخرى الى الفناء الداخلى .

وبعد ذلك ببرهة قصيرة ، أخذ الأنسباء يصلون . جاء أولا الشبان والأولاد فى طابور واحد ، يحمل كل قدرا من الخمر . عد أقارب أوبيريكا القدور أولا بأول . عشرون ، خمسة وعشرون . ثم مرت فترة طويلة توقف فيها ظهور القدور ، ونظر المضيفون كل الى الآخر وكأنهم يقولون « ألم أقل لك ؟ » ثم جاءت قدور أخرى . ثلاثون ، خمسة وثلاثون ، أربعون ، خمسة وأربعون . هز المضيفون رؤسهم علامة الرضا وبدوا وكأنهم يقولون « الآن يسلكون مسلك الرجال » . بلغ مجموع القدور فى النهاية خمسين قدرا من الخمر . ثم جاء بعد حاملى القدور ايبى ، العريس ، وكبار أسرته . جلسوا فى نصف دائرة ، مكونين بهذا الشكل دائرة كاملة مع مضيفيهم وقدور الخمر فى وسطهم . ثم خرجت العروس وأمها وست من النساء والفتيات الأخريات من الفناء الداخلى ودرن حول الدائرة يصافحن الجميع تتقدمهن أم العروس تتبعها العروس والنساء الأخريات . لبست النساء المتزوجات أفضل ازاراتهن ولبست الفتيات خرزا أبيض وأحمر حول خصورهن وخلاخيل من النحاس .

وعندما انسحبت النساء الى الداخل ، قدم أوبيريكا ثمار الكولا لأنسبائه . كسر أخوه الأكبر الثمرة الأولى . قال وهو يكسرها « الحياة لنا جميعا ، ولتكن صداقة بين أسرتكم وأسرتنا » .

أجاب الجمع « ايى ! » .

« اننا نعطيكم ابنتنا اليوم . ستكون زوجة صالحة لكم . وستنجب لكم تسعة أبناء مثل أم مدينتنا » .

« أيى ! » .

أجاب أكبر رجال معسكر الزوار سنا « سيكون ذلك خيرا لكم ولنا » .

« أيى ! » .

« ليست هذه المرة الأولى التى يأتى فيها قومى ليتزوجوا ابنة لكم . كانت أمى أيضا منكم » .

« أيى ! » .

« ولن تكون هذه المرة الأخيرة ، لأنكم تفهموننا ونحن نفهمكم . انكم أسرة عظيمة » .

« أيى ! » .

« رجال ناجحون ومحاربون عظام » ونظر نحو أوكونكو « ستنجب لنا ابنتكم أبناء مثلكم » .

« أيى ! » .

أكلت الكولا وبدأ شرب الخمر . جلس الرجال فى مجموعات تتكون كل منها من أربعة أو خمسة رجال يتوسطهم قدر من الخمر . وعندما تقدم المساء ، قدم الطعام للضيوف . قدمت آنية ضخمة من الفوفو وآنية من الحساء يتصاعد منها البخار . كما قدمت أيضا قدور من حساء اليام . كانت وليمة عظيمة .

وعندما حل الليل وضعت شعلات موقدة على حوامل خشبية وقدم الشبان أغنية . جلس الكبار فى دائرة كبيرة وطاف المغنون حول الدائرة ينشدون المديح لكل رجل عندما يصلون اليه . كان لديهم شيئا يقولونه لكل رجل . فالبعض مزارعون عظام ، والبعض خطباء يتحدثون باسم العشيرة ، وأوكونكو أعظم مصارع ومحارب على وجه الأرض . وعندما أتموا الدائرة ، جلسوا فى الوسط ، وجاءت الفتيات من الفناء الداخلى ليرقصن . لم تكن العروس بينهن فى بادىء الأمر . ولكن عندما ظهرت أخيرا تحمل ديكا فى يدها اليمنى ، ند عن الجمع هتاف عال . وتنحت جميع الراقصات ليفسحن لها . قدمت الديك للموسيقيين وأخذت ترقص . شخشخت خلاخيلها النحاسية وهى ترقص ولمع جسمها المدهون بخشب

الكام فى الضوء الأصفر الهادىء . وانتقل الموسيقيون بآلاتهم الخشبية والفخارية والمعدنية من أغنية الى أخرى . وساد المرح الجميع . غنوا أحدث أغنية من أغانى القرية :

« اذا أمسكت بيدها

قالت لا تلمس !

اذا أمسكت بقدمها

قالت لا تلمس !

أما اذا أمسكت بخرز خصرها

فانها تتظاهر بأنها لا تعرف » .

كان قد مضى جزء كبير من الليل عندما نهض الضيوف للانصراف ، آخذين عروسهم الى منزلهم لتقضى سبعة « أسابيع سوق » مع أسرة عريسها . كانوا يغنون الأغانى وهم ذاهبون ، وفى الطريق قاموا بزيارات قصيرة لمجاملة المبرزين من الرجال مثل أوكونكو ، قبل أن يمضوا فى النهاية متجهين نحو قريتهم . قدم لهم أوكونكو ديكين هدية .

الفصل الثالث عشر

جو ـ دى ـ دى ـ جو ـ جو ـ دى ـ جو . دى ـ جو ـ جو ـ دى جو . هكذا خاطبت الطبلة العشيرة . ان لغة هذه الآلة الخشبية المفرغة من الأشياء التى يتعلمها كل رجل وكذلك دوى المدفع من آن لآخر .

لم يكن الديك الأول قد صاح بعد ، وما زالت أوموفيا يلفها النوم والسكون عندما بدأت الطبلة تتحدث ، ومزق المدفع السكون . تحرك الرجال على أسرتهم المصنوعة من الخيزران وأنصتوا بقلق . مات شخص ما . بدا المدفع وكأنه يشق السماء . دى ـ جو ـ جو ـ دى ـ جو ـ دى ـ جو ـ جو ـ علا الصوت فى هواء الليل المحمل بالرسالة . استقر عويل النساء الخافت البعيد على الأرض كرواسب الحزن . وبين آونة وأخرى ترتفع ندبة قوية فوق العويل كلما دخل رجل الى مكان الموت . يرفع صوته مرة أو مرتين فى حزن رجالى ثم يجلس مع الرجال الآخرين ينصت الى عويل النساء الذى لا ينتهى وصوت الطبلة تتحدث بلغتها الخاصة وبين آونة وأخرى يدوى المدفع . لن

يسمع عويل النساء فيما وراء القرية ، لكن الطبلة تحمل الأنباء الى جميع القرى التسع بل وفيما وراءها . بدأت بتسمية العشيرة: « أوموفيا أرض الشجعان ! أوموفيا أرض الشجعان . أوموفيا أرض الشجعان ! » قالت هذا وكررته مرات ومرات ، وكلما عاودت ذلك ، كلما ازداد القلق فى كل قلب يعلو وينخفض على سرير من الخيزران فى تلك الليلة . ثم اقتربت وسمت القرية . « اجويدو ذات حجـر الرحى الأصـفر ! » كانت تلك قرية أوكونكو . وتكرر نداء أجويدو المرة تلو المرة وانتظر الرجال وهم يكتمون أنفاسهم فى جميع القرى التسع . أخـيرا سمى الرجل وتنهد الناس « أ ــ و ــ و ، مات ايزودو » . سرت رعشة باردة فى أوصال أوكونكو وهو يتذكر آخـر مرة زاره فيها الرجل العجوز . لقد قال « هـذا الصبى يدعوك بأبى . لا تشترك فى قتله » .

كان أوزودو رجلا عظيما ، ولذا اشتركت العشيرة بأكملها فى تشييعه . قرعت طبول الموت القـديمة ، وأطلقت البنادق والمدافع ، اندفع الرجال بجنون يقطعون كل شجرة وحيوان يرونه ، يقفزون على الجدران ويرقصون على السقوف . كانت جنازة محارب ومن الصباح حتى المساء جاء المحاربون وذهبوا فى مجموعات تبعا لسن كل منهم . كانوا جميعا يرتدون أزرهم المصنوعة من الخوص المدخن وأجسامهم مطلية بالطباشير والفحم

الخشبى وبين الحين والآخر تظهر احدى أرواح الأســلاف أو الأوجوجو . من تحت الأرض ، ويتحدث صاحبها بصوت مرتعش لا ينتمى الى الأرض ، وهو مغطى تماما بالخوص . كان بعضهم غاية فى العنف ، وحدث تدافع مجنون للاختباء قرب مطلع النهار عندما ظهر أحدهم ومعه خنجر حاد ، ولم يمنعه من التسبب فى ايقاع أضرار بالغة سوى تصدى رجلين له كبحا جماحه بأن ربطا حبلا قويا حول وسطه . كان يستدير أحيانا ويطارد هــذين الرجلين . وهما يجريان خوفا على حياتهما . ولكنهما لا يلبثا أن يعودا الى الحبل الطويل الذى يجره خلفه . كان يغنى ، بصوت مخيف ، قائلا ان اكوينسو ، أو « الروح الشرير » دخل عينه .

أما الروح الذى كان يخشاه الجميع أكثر من غيره فلم يأت بعد . كان دائما بمفرده وشكله شكل صندوق الموتى . تعلق بالجو رائحة تبعث على الغثيان أينما ذهب ، ويذهب معــه الذباب . حتى أعظم رجال الطب يختبئون عندما يقترب . منذ سنوات عدة اجترأ أحد الأرواح الأخرى أن يصمد فى مكانه أمامه ، فتسمر فى المكان يومين كاملين . أما هذا الروح فكان ذا يد واحدة يحمل بها سلة مملوءة بالماء .

ولكن بعض الأجوجو أو أرواح الأسلاف لا ينزلون بأحد ضررا مطلقا . كان أحدهم عجوزا وضعيفا لدرجة جعلته يتكىء بشدة على عصا . وسار يتعثر فى طريقه الى حيث وضعت الجثة ،

فأخذ يطيل النظر اليها برهة ثم مضى مرة أخرى الى العــالم السفلى .

لم تكن أرض الأحياء شديدة البعد عن أرض الأسلاف . فالذهاب والمجىء بينهما لا ينقطع وخاصة أثناء الاحتفالات ، وأيضا عندما يموت رجل مسن ، لأن الرجل المسن قريب جدا من الأسلاف . فحياة الرجل من الميلاد حتى الوفاة سلسلة من طقوس الانتقال التى تقترب به شيئا فشيئا من أسلافه .

كان أوزودو أكبر رجال قريته سنا ، وعند موته لم يكن هناك فى العشيرة كلها سوى ثلاثة رجال أكبر منه سنا ، وأربعة أو خمسة فى مثل سنه . كلما ظهر أحد هؤلاء الرجال المعمرين فى الجمع ليرقص بصعوبة خطوات القبيلة الجنائزية ، أفسح له الرجال الأصغر سنا الطريق وهدأت الضوضاء .

كانت جنازة عظيمة ، تليق بمحارب نبيل . وعندما اقترب المساء ، ارتفع الصياح وازداد اطلاق البنادق ، وقرع الطبول وقعقعة الخناجر والتلويح بها .

كان ايزودو قد اتخذ ثلاثة ألقاب فى حياته . ومن النادر أن يحقق شخص ذلك لم يكن للعشيرة أكثر من أربعة ألقاب ، ولم يحصل على اللقب الرابع سوى رجل أو اثنين فى أى جيل . ومن يحقق ذلك يصبح من أسياد البلاد . وبما أن ايزودو يحمل ألقابا ، لذا يدفن بعد حلول الظلام ولا يضىء الاحتفال المقدس سوى شعلة مضيئة .

ولكن قبل اقامة المراسيم الهادئة النهائية ، تزداد الضوضاء عشرة أضعاف . فتقرع الطبول بعنف ويقفز الرجال الى أعلى وأسفل بجنون وتطلق البنادق من كل صـــوب ويتطاير الشرر عندما تقعقع الخناجر بينما يحيي المحاربون بعضهم البعض . امتلأ الجو بالغبار وبرائحة البارود . وعندئذ جاء الروح ذو اليد الواحدة ، يحمل سلة مملوءة بالماء . أفسح الناس له الطريق من جميع الجهات وهدأت الضوضاء حتى رائحة البارود ابتلعتها الرائحة التى تبعث على الغثيان والتى ملأت الجو الآن . رقص بضع خطوات على دقات الطبول الجنائزية ثم ذهب ليرى الجثة .

« ايزودو ! » هكذا صاح مناديا بصوته الحلقى « لو كنت فقيرا فى حياتك الأخيرة ، لطلبت اليك أن تكون غنيا عندما تأتى ثانية . لكنك كنت غنيا . لو كنت جبانا ، لطلبت اليك أن تعود شجاعا . لكنك كنت محاربا لا تخاف . لو كنت قد مت شابا ، لطلبت اليك أن تعود الى الحياة . لكنك عشت طويلا . واذا سأطلب اليك أن تعود كما كنت من قبـــل . واذا كان موتك طبيعيا ، فلتذهب فى سلام . أما اذا سببه انسان ، فلا تسمح له بلحظة من الراحة » ثم رقص بضعة خطوات أخرى ومضى .

وبدأ قرع الطبول والرقص مرة أخـــرى وبلغت حرارتها درجة الحمى . كاد الظلام يحل واقترب موعد الدفن . أطلقت

البنادق التحية وشق المدفع عنان السماء . ثم اخترقت هـذه الحمى الجنونية صرخة ألم وصيحات فزع . وكأن لمسة سحرية أصابت الجمع فساد الصمت . وفى الوسط رقد صبى فى بركة من الدم . كان هذا ابن الرجل المتوفى البالغ من العمر السادسة عشرة ، والذى كان يرقص مع اخوته الأشقاء وغير الأشقاء تحية الوداع التقليدية لوالدهم . لقـد انفجـرت بندقية أوكونكو واخترقت شظية من الحديد قلب الصبى .

أما الفوضى التى تبعت ذلك فلم يكن لها مثيـل فى تاريخ أوموفيا . وكثيرا ما كانت تحدث الموتات العنيفـة ، ولكن ما حدث لم يكن له مثيل من قبل .

لم يكن أمام أوكونكو من مخرج سوى الهرب من العشيرة فقتل أحد رجال العشيرة جريمة ضد الهة الأرض ، يجب على من يرتكبها أن يهرب من البلاد . والجريمة من نوعين ، مذكرة ومؤنثة . ارتكب أوكونكو الجريمة المؤنثة ، اذ وقعت الجريمة دون قصد ، ولذا يمكنه العودة الى العشيرة بعد سبع سنوات .

وفى تلك الليلة جمع أثمن حاجياته فى ربطات يمكن حملها فوق الرأس . بكت وزجاته بمرارة وبكى أبناؤهن معهن دون أن يعرفوا السبب . جاء أوبيريكا وستة من الأصـدقاء الآخرين ليسـاعدوه ويهونوا عليه . قام كل منهم بالذهاب الى بيت أوبيريكا تسع أو عشر مرات حاملا يام أوكونكو لخزنه فى مخزن

أوبيريكا . وقبل أن يصيح الديك كان أوكونكو وأسرته يهربون الى وطن أمه . كان ذلك فى قرية صغيرة تدعى امباتنا ، خارج حدود امبينو مباشرة .

وحالما طلع النهـار هاجم جمع كبير من الرجال ، من حى ايزودو ، يلبسون لباس الحرب ، فناء أوكونكو . أشعلوا النار فى منازله ، وحطموا جدرانه الحمراء ، قتلوا ماشيته وهدموا مخزنه . كان ذلك حكم الهة الأرض ولم يكونوا هم سوى رسلها . فهم لا يكنون كرها لأوكونكو فى قلوبهم . فقد كان خير أصدقائه ، أوبيريكا ، واحدا منهم . كانوا فقط يطهرون الأرض التى لوثها أوكونكو بدم أحد رجال العشيرة .

كان أوبيريكا رجلا كثير التأمل . وبعد أن نفذت ارادة الالهة ، جلس فى كوخه الخاص وبكى مصيبة صديقة . لماذا يقاسى رجل بهذه القسوة لخطأ اقترفه عن غير عمد ؟ لكن هذا لم يؤد به الا الى أمور أكثر تعقيدا . تذكر التوأمين الذين رزقت بهما زوجته ، وكيف اضطر الى الالقاء بهما بعيدا . أى جرم ارتكباه ؟ قررت « الأرض » أنهما وصمةفى جبين البلاد ويجب أن يقضى عليهما . واذا لم توقع العشيرة القصاص عن خطأ ارتكب ضد الالهة العظيمة ، فان غضبها ينطلق على الأرض كلها وليس على المذنب فقط . كما يقول الشيوخ اذا أفرز أصبع واحد صديدا فانه يلوث الأصابع الأخرى .

الجزء الثانى

الفصل الرابع عشر

استقبل أوكونكو استقبالا حسنا من جانب أهـل أمه فى امباتنا . أما الرجل المسن الذى استقبله فكان أخ أمه الأصغر، وأكبر عضو لا يزال على قيد الحياة من تلك العائلة . اسـمه أوشندو ، وهو الذى استقبل أم أوكونكو منذ عشرين سنة ، عندما نقلت الى وطنها لتدفن مع أهلها . كان أوكونكو مجرد صبى حينذاك ، وما زال أوشندو يذكره وهـو يصيح مرددا تحية الوداع التقليدية « أمى ، أمى ، أمى ذاهبة » .

حـدث هذا منذ سـنوات عديدة . أما اليوم فلم يحضر أوكونكو أمه لتدفن مع أهلها . بل أحضر أسرته المكونة من ثلاث زوجات وأحد عشر ولدا ليجد لهم مأوى فى وطن أمه . وخمن أوشندو ما حدث حالما رآه مع صحابه الحزانى المتعبين. ولم يسأل أية أسئلة . لم يخبره أوكونكو بالقصة الكاملة الا فى اليوم التالى . أنصت الرجل المسن فى صمت الى النهاية ثم قال بشىء من الارتياح « انهـا جريمة أنثوية » . ثم قام باعداد الطقوس والضحايا المطلوبة .

أعطى أوكونكو قطعة من الأرض ليبنى عليها فناءه ، وقطعتين أو ثلاثا من الأرض ليزرعها أثناء موسم الزرع التالى . بنى بمساعدة أقارب آمه كوخا لنفسه ، وثلاثة أكواخ لزوجاته . ثم وجد مكانا لالهه الخاص ورموز آبائه الراحلين . وساهم كل من أبناء أوشندو الخمسة بثلاثمائة من بذور اليام ليمكنوا ابن عمتهم من اقامة مزرعة ، اذ حالما تأتى الأمطار الأولى يبدأ الزرع .

وأخيرا جاء المطر . جاء فجأة وبغزارة شديدة . واستمرت الشمس تستجمع قوتها طوال قمرين أو ثلاثة الى أن بدت وكأنها تلسع الأرض بأنفاس من نار . واحترق العشب كله وجف واشتدت حرارة الرمال حتى بدت كقطع الفحم الملتهبة تحت الأقدام . واكتست الأشجار الدائمة الخضرة بطبقة داكنة من الغبار . سكتت الطيور فى الغابات ورقد العالم يلهث تحت وطأة الحر الشديد . ثم جاءت قصفة رعد غضبى ، معدنية الصوت عطشى ، لا تشبه فى شىء قعقعة الرعد العميق السائل فى الفصل المطير . وهبت ريح عاتية وملأت الجو بالغبار . وتمايلت أشجار النخيل والريح تثنى أوراقها كالخصلات الطائرة لتسريحات غريبة خيالية .

عندما جاءت الأمطار أخيرا ، سقطت فى شكل نقط كبيرة صلبة من الماء المتجمد التى يطلق عليها الناس « جوزات ماء

السماء » . كانت هذه النقط صلبة تؤلم الجسم عندما تسقط عليه ، ولكن الصغار سعداء يلتقطون هـذه الجوزات الباردة ويلقون بها فى أفواههم لتذوب .

وسرعان ما دبت الحيـاة فى الأرض ورفرفت الطيور فى الغابات تزقزق مرحبة وانتشرت فى الجو رائحة غامضة للحيـاة والزرع الأخضر . وعندما بدأ المطر يسقط بتعقل أكبر وفى نقط سائلة أصغر من ذى قبل ، آوى الأطفال الى بيوتهم وهم سعداء ، متجددى النشاط شاكرين .

كد أوكونكو وأفراد أسرته وكدحوا ليزرعوا مزرعة ناجحة. لكن هذا كان كبدء حياة جديدة بعد أن ولى الشباب بعنفوانه وحماسه ، أو كتعلم استعمال اليد اليسرى بدل اليمنى فى الكبر. لم يشعر أثناء عمله بنفس السرور الذى كان يشعر به من قبل، وكان عندما يفرغ من العمل ، يجلس صامتا فى شبه غيبوبة .

لقد سيطرت على حياته رغبة عارمة عظيمة ـــ أن يصبح أحد عظماء العشيرة . كانت هذه الرغبة مبعث حياته . وكان على وشك تحقيقها . ثم انهار كل شيء . طرد من عشيرته مثل سمكة ألقيت على شاطىء رملى جاف ، وهى تلهث . من الواضح أن الهه الشخصى لم يخلق ليكون عظيما . لا يستطيع الرجل أن يعلو عن مصير الهه الشخصى . لم يصدق الشيوخ عندما قالوا

اذا قال الرجل نعم قال الهه نعم أيضا . فها هو ذا رجل قال الهه الشخصى لا بالرغم من أنه هو قال نعم .

رأى أوشندو ، الرجل المسن ، بوضوح أن أوكونكو قد استسلم لليأس وأقلقه ذلك أشد القلق . قرر أن يتحدث اليه بعد احتفال « الايسا آفى » (١) .

كان أصغر أبناء أوشندو الخمسة ، أميكو ، بصدد الزواج من زوجة جديدة . وكان مهر العروس قد دفع ولم يبق سوى الاحتفال الأخير . فقد أخذ أميكو وأهله خمر النخيل لأهل العروس قبل وصول أوكونكو الى امبانتا بحوالى شهرين . وهكذا حل موعد الاحتفال النهائى للاعتراف .

اجتمع جميع بنات الأسرة ، وقد قطع بعضهن مسافات طويلة من منازلهم فى قرى بعيدة . جاءت ابنة أوشندو الكبرى من أوبودو بعد سفر نصف يوم تقريبا . كذلك جاءت بنات أخوة أوشندو . واكتمل اجتماع نساء الأسرة ، كما يكتمل عندما تحدث وفاة فى الأسرة . وبلغ عددهن اثنين وعشرين .

جلسن فى نصف دائرة على الأرض وجلست العروس فى الوسط تمسك دجاجة بيدها اليمنى . وجلس أوشندو بجوارها، حاملا عصا الأسلاف الخاصة بالأسرة ، ووقف جميع الرجال

(١) احتفال وطنى .

الآخرين خارج الدائرة ، يراقبون ما يجرى . كما وقفت زوجاتهم تشاهدن ذلك أيضا . كان الوقت مساء وقد أخـذت الشمس فى المغيب .

قامت ابنة أوشندو الكبرى ، انجيدى بتوجيه الأسـئلة للعروس :

فبدأت بقـولها « تذكرى أنك ان لم تتوخى الصـدق فى اجابتك فستتعذبين ، بل قد تموتين أثناء الوضع . كم رجـل اجتمع بك منذ عبر أخى عن رغبته فى الزواج منك لأول مرة ؟ » .

أجابت ببساطة « لا أحد » .

وحثتها النساء الأخريات قائلات « أجيبى بالحق » .

وسألت انجيدى « لا أحد ؟ » .

وقال أوشندو « أقسمى بعصا آبائى » .

فقالت العروس « أقسم » .

ومنذ ذلك اليوم أخذ أميكو العروس الشابة الى كوخـه وأصبحت زوجة له . ولم تعد بنات الأسرة مباشرة الى منازلهن بل قضين يومين أو ثلاثة مع أقاربهن .

وفى اليوم الثانى جمع أوشندو أبناءه وبناته وابن أخته ، أوكونكو . أحضر الرجال أبسطتهم المصنوعة من جلود الماعز ،

وجلسوا عليها على الأرض ، وجلست النســاء على حصر من نبات السيزال فرشت على مصطبة . شد أوشندو بلطف لحيته التى اختلط فيها الأبيض بالأسود وطحن أســنانه . ثم بدأ فى الكلام بهدوء وتمعن ، منتقيا الكلمات بحرص شديد :

« أود أن أوجه كلامى فى المكان الأول الى أوكونكو . لكنى أود أن تنصتوا جميعا الى ما أقول . أنا رجل مسن وأنتم جميعا أطفال . وأعرف عن العالم أكثر من أى منكم . فاذا ظن أحــد منكم أنه يعرف عن ذلك أكثر منى فليتكلم » . ثم توقف عن الكلام ، ولكن أحدا لم يتكلم .

« ما السبب فى وجود أوكونكو معكم اليوم ؟ ليست هذه عشيرته . فلسنا سوى أقارب أمه . وهو لا ينتمى الينا هنا . انه منفى ، محكوم عليه أن يعيش سبع سنوات فى أرض غريبة . ولذا أثقل كاهله الحزن . لكنى أود أن أوجه اليه سؤالا واحدا . أتستطيع أن تخبرنى ، يا أوكونكو ، السبب فى أن اسم أنينكا أو « الأم فوق الجميع » ، من أكثر الأسماء التى نطلقها على أبنائنا شيوعا ؟ ، فنحن جميعا نعرف أن الرجل رأس الأسرة وتأتمر زوجاته بأمره . وينتمى الطفل لأبيه وأسرته وليس لأمه وأسرتها . وينتمى الرجل لأرض أبيه وليس لأرض أمه . ولكن بالرغم من ذلك نقول انينكا ـــ « الأم فوق الجميع . لماذا ؟ » .

ساد الصمت . وقال أوشندو .

« أريد أن يجيبنى أوكونكو » .

وأجاب أوكونكو :

« لا أعرف الجواب »

ـــ « لا تعرف الجــواب ؟ ها أنت ترى أنك طفــل . لك زوجات كثيرات وأبناء كثيرون . لك من الأولاد أكثر مما لى . انك رجل عظيم فى عشيرتك . لكنك ما زلت طفــلا ، يا بنى . اصغ الى وسأخبرك . لكن هناك سؤال واحد آخر سأسألك اياه . لماذا تؤخذ المرأة عند موتها الى وطنها لتدفن بين أهلها ؟ انها لا تدفن مع أهل زوجها . لماذا أحضرت أمك الى وطنها الى ودفنت مع أهلى ؟ لماذا ؟ » .

هز أوكونكو رأسه .

قال أوشندو « انه لا يعرف ذلك أيضا ، ومع ذلك فهــو حزين جدا لأنه جاء ليعيش فى وطن أمه بضع سنوات » . ثم ضحك ضحكة خالية من المرح ، واتجــه نحو أبنائه وبنــاته « وأنتم ؟ هل تستطيعون الاجابة على أسئلتى ؟ » .

وهز الجميع رءوسهم .

قال « اذن أنصتوا الى » . ثم تنحنح « حقا ينتمى الطفل الى أبيه . لكن عندما يضرب الأب ابنه ، يلتمس العطف فى كوخ أمه . ينتمى الرجل الى وطن أبيه فى السراء وعندما تكون الحياة حلوة المذاق . أما فى الضراء وفى حالة الحزن والمرارة فانه يجد المأوى فى وطن أمه . فأمك وجدت لتحميك . وهذا هو السبب فى قولنا « الأم فوق الجميع » . فهل من الصواب ، يا أوكونكو، أن تأتى الى أمك بوجه حزين وأن ترفض السلوى ؟ احترس والا أغضبت الموتى . فمن واجبك أن تسرى عن زوجاتك وبنيك وتعود بهم الى أرض أبيك بعد سبع سنوات . أما اذا سمحت للحزن أن يثقل كاهلك ويقتلك ، فسيموتون جميعا فى المنفى » .

ثم سكت فترة طويلة « هؤلاء هم أهلك الآن » . وأشار الى أبنائه وبناته « انك تظن أنك أكثر من يقاسى فى هذا العالم . أتعلم أن الرجال ينفون أحيانا طيلة الحياة ؟ أتعلم أن الرجال يفقدون أحيانا كل ما لديهم من يام ، بل كل ما لهم من أبناء ؟ كان لى ست زوجات فى وقت من الأوقات . وليس لى الآن سوى تلك الفتاة الصغيرة التى لا تعرف يمينها من يسارها . أتعلم كم دفنت من الأطفال الذين أنجبت فى شبابى وقوتى ؟ اثنين وعشرين . لكنى لم أشنق نفسى ، وما زلت حيا . اذا خيل اليك أنك أكثر

من يقاسى فى العالم ، فســل ابنتى ، أكوينى ، كم من التوائم ولدت وألقت بعيدا . ألم تسمع الأغنية التى يغنونها عندما تموت امــرأة ؟

لمن تسير الأشياء على ما يرام ؟ .

لا يوجد من تسير له الأشياء على ما يرام .

ليس لدى أكثر من ذلك لأقوله لك .

الفصل الخامس عشر

وفى السنة الثانية لنفى أوكونكو جاء صديقه أوبيريكا لزيارته . أحضر معه رجلين يحمل كل منهما حقيبة ثقيلة على رأسه . ساعدهما أوكونكو فى انزال حمليهما . كان من الواضح أن الحقائب مليئة بالنقود .

شعر أوكونكو بسعادة كبيرة لاستقبال صديقه . كما سعدت زوجاته أيضا وأولاده جدا ، وكذلك أبناء خاله وزوجاتهم عندما أرسل ليخبرهم بشخصية ضيفه » .

قال أحد أبناء خاله « لابد أن تأخذه ليحيى والدنا »

وأجاب أوكونكو « نعم ، سنذهب على الفور » . لكنه قبل أن يذهب همس بشىء فى أذن زوجته الأولى . هزت هذه رأسها موافقة ، وسرعان ما أخذ الأطفال فى مطاردة أحد ديوكهم .

كان أحد أحفاد أوشندو قد أبلغه أن ثلاثة رجال أغراب جاءوا الى بيت أوكونكو . لذلك وجدوه فى انتظارهم . مد لهم

يديه عندما دخلوا الى كوخه الخاص ، وبعد أن صافحهم سأل أوكونكو عمن يكونوا .

— « هذا أوبيريكا ، صديقى الحميم ، الذى حدثتك عنه من قبل » .

وقال الرجل المسن « نعم » واستدار نحو أوبيريكا مردفا « نعم حدثنى ابنى عنك . وأنا سعيد لمجيئك لزيارتنا . أعرف والدك أويكا . كان رجلا عظيما . كان له أصدقاء كثيرون هنا وكان كثيرا ما يأتى لزيارتهم . ما أطيب تلك الأيام حين كان للرجل أصدقاء فى عشائر بعيدة . أما جيلك فلا يعرف ذلك . فالمرء يجلس فى داره ، ويخشى جاره الذى يسكن بجواره مباشرة . حتى وطن أمه لا يعرفه الرجل فى هذه الأيام » . ونظر الى أوكونكو . « اعذرنى فأنا رجل عجوز وأحب الكلام . هذا كل ما أصلح له الآن » . وقام بصعوبة وذهب الى حجرة داخلية ثم عاد يحمل ثمرة من ثمار الكولا .

سأل وهو يجلس مرة أخرى على جلد عنزته « من يكون الشابان اللذان معك ؟ » فأخبره أوكونكو .

قال « آه ، أهلا بكم يا أبنائى » . قدم لهم الكولا ، فشكروه عندما رأوها ، ثم كسرها وأكلوا .

وخاطب أوكونكو قائلا وهو يشير بأصبعه « اذهب الى تلك الحجرة ، ستجد قدرا من الخمر هناك » .

وحين أحضر أوكونكو الخمر أخذوا يشربون . كان خمرا معتقا قويا جدا .

قال أوشندو بعد فترة صمت طويلة « نعم كان النـاس يسافرون فى تلك الأيام أكثر مما يفعلون الآن . فما من قبيلة واحدة فى هذه الأجزاء لا أعرفها جيـدا . أنينتا ، أوموازا ، ايكيوشا ، ألوميلو ، أعرفها جميعا » .

سأل أوبيريكا « أتعلم أن آبامى قد انتهت ؟ » .

فسأل أوشندو وأوكونكو معا « كيف كان هذا ؟ » .

قال أوبيريكا « لقد محيت آبامى . انها قصة غريبة مخيفة . فان لم أكن قد رأيت بعينى من تبقى منهم على قيد الحيـاة وسمعت بأذنى قصتهم ، لما صدقت » . ثم أضاف سائلا رفيقيه « ألم يكن اليوم الثانى من أيام الأسبوع عنـدما هربوا الى أوموفيا ؟ » فهزا رأسيهما موافقين .

قال أوبيريكا « منذ ثلاثة شهور ، فى سـوق ايكى أو اليوم الثانى من أيام الأسبوع جاءت الى مدينتنا شرذمة صغيرة من اللاجئين . كان معظمهم من أبناء وطننا الذين دفنت أمهاتهم عندنا . لكن بعضهم جاءوا أيضا لأن لهم أصدقاء فى مدينتنا ، وبعضهم الآخر ممن لم يكن لهم مكان آخر يهربون اليـه . وهكذا لجأوا الى أوموفيا بقصة تدعو الى الأسى » . شرب

أوبيريكا ما فى قرنه من خمر النخيل ، فملأه أوكونكو له مرة أخرى . ثم استطرد قائلا :

« أثناء فصل الزرع الأخير ظهر رجل أبيض فى قبيلتهم »

قال أوكونكو « رجل أبرص ؟ » .

« لم يكن أبرصا . كان مختلفا تمام الاختلاف » . رشف رشفة من كأسه وأضاف : « وكان يركب حصانا من الحديد . جرى أول من رأوه من الناس مبتعدين لكنه وقف يشير اليهم داعيا اياهم أن يقتربوا . وفى النهاية اقترب ذوو الجرأة منهم بل وقاموا بلمسه . وحين استشار الشيوخ العراف قال لهم ان الرجل الغريب سيقضى على قبيلتهم وينشر الدمار بينهم » . شرب أوبيريكا قليلا من الخمر مرة أخرى وقال : « وهكذا قتلوا الرجل الأبيض وربطوا حصانه الحديدى الى شجرتهم المقدسة لأنه بدا وكأنه سيجرى ليدعو أصدقاءه . نسيت أن أخبركم بشىء آخر قاله العراف . قال ان رجالا بيضا آخرين فى الطريق اليهم . قال انهم جراد وان هذا الرجل الأول هو رسولهم ، أرسل ليستكشف الأرض . وهكذا قتلوه » .

سأل أوشندو « ماذا قال الرجل الأبيض قبل أن يقتلوه ؟ » .

قال أحد رفيقى أوبيريكا « لم يقل شيئا » .

قال أوبيريكا « قال شيئا ولكنهم لم يفهموه . كان يبـدو وكأنه يتكلم من أنفه » .

قال رفيق أوبيريكا الآخر « أخبرنى أحد الرجال أنه كرر عدة مرات كلمة تشبه امبينو . ربما كان فى طريقه الى امبينو وضل السبيل » .

عاود أوبيريكا الحديث « على أية حـال ، قتلوه وربطوا حصانه الحديدى . حدث هذا قبل بدء فصل الزرع . ومضت مدة طويلة ولم يحدث شىء . جاءت الأمطار وزرع اليام . ظل الحصان الحديدى مربوطا الى شجرة القطن الحريرى المقدسة. ثم ذات صباح جاء الى القبيلة ثلاثة رجال بيض تتقدمهم شرذمة من الرجال العاديين من أمثالنا . رأوا الحصان الحديدى ومضوا مرة أخرى . كان معظم رجال ونساء آبامى قد ذهبـوا الى المزارع . لم ير هؤلاء الرجال البيض وأتباعهم سوى نفر قليل منهم . مضت أسابيع سوق عديدة ولم يحدث شىء آخر . يقام سوق كبير فى آبامى فى يوم آفو أو اليوم الرابع من أيام الأسبوع مرة كل أسبوعين ، وكما تعلم تجتمع القبيلة بأسرها هناك . كان هذا هو اليوم الذى حدث فيه ما حدث . أحاط الرجال الثلاثة وعدد كبير جدا من الرجـال الآخرين بالسوق . لابد أنهـم استخدموا عقارا قويا ليخفوا أنفسهم عن العيون الى أن امتلأ السوق . ثم أخذوا فى اطلاق النار . ووقع الجميع قتلى ما عدا

سأل نوويي « أهو بخير ؟ » .

قال أوبيريكا « كلنا بخير » .

أحضرت ازنما وعاءا من الماء ليغسلوا أيديهم . ثم أخذوا في تناول الطعام واحتساء الخمر .

سأل أوكونكو « متى بدأتم رحلتكم من أرض الوطن ؟ »

قال أوبيريكا « كان من المقرر أن نبدأ السير من منزلي قبل صياح الديك . لكن لويكي لم يصل الا بعد أن سطع النور . لا يجب أن يتفق الانسان على موعد للصباح المبكر مع رجل تزوج لتوه من زوجة جديدة » . وضحك الجميع .

سأل أوكونكو « هل تزوج نويكي ؟ » .

وقال أوبيريكا « تزوج ابنة أوكاديجو الثانية » .

فقال أوكونكو « حسن جدا . انى ألتمس لك العذر لعدم سماعك صياح الديك » .

وعندما فرغوا من الأكل أشار أوبيريكا الى الحقيبتين الثقيلتين .

قال « هذه هي النقود التي بيع بها يامك . بعت اليامات الكبيرة بعد أن تركتنا مباشرة . ثم بعت بعض بذور اليام

وأعطيت البعض الآخر لمن يزرعه مشاركة . سأفعل ذلك كل سنة حتى تعود . لكنى فكرت أنك قد تحتاج الى المــال الآن ولذا أحضرته . من يدرى ماذا يحدث فى الغد ؟ ربما يأتى رجال خضر الى قبيلتنا ويطلقون علينا النار » .

قال أوكونكو « لن يسمح الله بذلك . انى لا أدرى كيف أشكرك » .

قال أوبيريكا « بوسعى أن أخبرك . أقتل لى أحد أبنائك » .

قال أوكونكو « ولا هذا يكفى » .

قال أوبيريكا « اذن أقتل نفسك » .

قال أوكونكو مبتسما « اعذرنى ، لن أحاول شكرك مرة أخــرى » .

الطريقة الغريبة التي استعمل بها الكلمات . فبدلا من أن يقول « أنا » كان دائما يقول « أردافى » . لكنه كان رجلا قوى الشخصية فأنصت اليه رجال العشيرة . قال انه واحد منهم ، كما يرون من لونه ولغته ، كذلك فالرجال السود الأربعة الآخرون اخوتهم ، بالرغم من أن أحدهم لا يتكلم لغة الايبو . والرجل الابيض أيضا أخوهم لأنهم جميعا أبناء الله . أخبرهم عن هذا الاله الجديد ، خالق العالم كله والرجال والنساء جميعا . قال لهم انهم يعبدون آلهة من الخشب والحجر . سرت فى الجمع همهمة عميقة عندما قال ذلك . قال لهم ان الاله الحقيقى يعيش فى العلا وان جميع البشر عندما يموتون يذهبون اليه للدينونة . أما الأشرار والوثنيون الذين يحنون الهامات للخشب والحجر فيلقى بهم فى النار التى تشتعل كزيت النخيل . أما الأخيار الذين يعبدون الاله الحقيقى فيحيون الى الأبد فى مملكته السعيدة . قال « لقد أرسلنا هذا الاله العظيم لنطلب اليكم أن تتركوا طرقكم الشريرة وآلهتكم المزيفة وتتجهوا اليه لكى تخلصوا عند موتكم » .

قال شخص ما مازحا « ان أردافك تفهم لغتنا » ، وضحك الجميع .

وسأل الرجل الأبيض المترجم « ماذا قال ؟ » لكن قبل أن يتمكن هذا من الاجابة ، سأل رجل آخر سؤالا . سأل « أين

حصان الرجل الأبيض ؟ » تشاور المبشرون الايبو فيما بينهم وقرروا أنه من المحتمل أن الرجل يعنى الدراجة . أخبروا الرجل الأبيض فضحك بطيبة قلب .

قال « أخبرهم أنى سأحضر كثيرا من الأحصنة الحديدية عندما يستقر بنا المقام بينكم . بل سيركب بعضهم بأنفسهم الأحصنة الحديدية . » نقل المترجم هذا القول لهم لكن لم يسمعه منهم الا نفر قليل جدا . كانوا يتحدثون باهتمام فيما بينهم لأن الرجل الأبيض قال انه سيعيش بينهم . اذ لم يخطر لهم ذلك على بال من قبل .

وعند هذه النقطة قال رجل مسن ان لديه سؤالا : « من الهكم هذا ، الهة الأرض أم اله السماء أم أما ديورا اله الصاعقة أم ماذا ؟ »

تحدث المترجم الى الرجل الأبيض فأجابه هذا على الفور : « جميع الآلهة التى ذكرتها ليست آلهة على الاطلاق . انها آلهة غش تقول لكم ان تقتلوا اخوتكم وتقضوا على أطفال أبرياء . لا يوجد سوى اله حقيقى واحد ، له الأرض ، والسماء ، وأنتم وأنا وجميعنا . »

قال رجل آخر « اذا تركنا آلهتنا وتبعنا الهك ، من يحمينا من غضب آلهتنا وأسلافنا الذين نهملهم ؟ » .

الفصل السابع عشر

قضى المبشرون لياليهم الأربع أو الخمس الأولى فى ساحة السوق ، وفى الصباح كانوا يذهبون الى القرية للتبشير بالانجيل. سألوا عمن يكون ملك القرية ، لكن أهل القرية أخبروهم بأنه ليس للقرية ملك . قالوا « لدينا رجال ذوو ألقاب رفيعة ، ولدينا كبار الكهنة والشيوخ » .

لم يكن من السهل جمع ذوى الألقاب الرفيعة والشيوخ بعد أحداث اليوم الأول المثيرة . لكن المبشرين لم ينثنوا عن عزمهم وفى النهاية استقبلهم حكام امباتنا . طلبوا قطعة من الأرض ليبنوا عليها كنيستهم .

كان لكل عشيرة وقرية « غابتها الشريرة » . وبها يدفن كل من ماتوا نتيجة أمراض خبيثة حقا ، مثل البرص والجدرى . كذلك كانت المكان الذى يلقى فيه بأعمال السحر القوية الخاصة بكبار رجال الطب عندما يموتون . لذا فان أى « غابة شريرة » تموج بالقوى الشريرة ، وقوى الظلام . كانت الغابة التى أعطاها

حكام امباتنا للمبشرين غابة من هذا النوع . لم يريدوا لهم فى الحقيقة أن يبقوا فى عشيرتهم ، ولذا قدموا لهم تلك الأرض التى ما كان ليقبلها أى شخص يتمتع بقواه العقلية كاملة .

قال أوشندو لزملائه وهم يتشاورون فيما بينهم « انهم يريدون قطعة من الأرض ليبنوا عليها هيكلا لهم . سنعطيهم قطعة من الأرض » . توقف برهة ، وسمعت همهمة من الدهشة والاعتراض « لنعطيهم جزءا من « الغابة الشريرة ؟ » انهم يفاخرون بالغلبة على الموت . لنعطهم ميدانا حقيقيا للحرب يظهرون فيه نصرهم » . ضحكوا موافقين وأرسلوا فى طلب المبشرين ، الذين كانوا قد طلب اليهم أن يتركوا الشيوخ برهة « ليهمسوا معا » . عرضوا عليهم أن يأخذوا من« الغابة الشريرة» ما يرغبون . ومما أثار دهشتهم الكبرى أن المبشرين شكروهم وانطلقوا يرتلون .

قال بعض الشيوخ « انهم لا يفهمون . لكنهم سيفهمون عندما يذهبون الى قطعة الأرض فى صباح الغد » . ثم تفرقوا .

وفى الصباح التالى أخذ الرجال المجانين فعلا فى اعداد جزء من الغابة وبناء منزل لهم . توقع سكان امباتنا أن يموتوا جميعا فى ظرف أربعة أيام . مر اليوم الأول والثانى والثالث والرابع ، ولم يمت أحد منهم . تحير الجميع . ثم عرفوا أن معبود الرجل

يعبرون عن سخطهم على هذه المرأة ، ولم يقلقهم كثيرا هربها لتنضم الى المسيحيين . وكأنهم يقولون «شكرا لخلاصنا منها» .

وذات صباح بينما كان ابن خال أوكونكو ، أميكو يمر بالكنيسة فى طريقه من قرية مجاورة اذا به يرى نوويى بين المسيحيين . دهش أيما دهشة ، وعندما وصل الى البيت توجه مباشرة الى كوخ أوكونكو وقص عليه ما رأى . أخذت النساء فى الحديث بانفعال ، لكن أوكونكو جلس لا يبدى حراكا .

لم يعد نوويى الا قبل نهاية العصر . دخل الى كوخ رب الأسرة وحيا والده ، ولكن هذا لم يرد التحية . استدار نوويى متجها نحو الفناء الداخلى الا أن الأب الذى غلبه الغضب هب واقفا وانقض على عنقه .

قال متأتئا « أين كنت ؟ » .

وحاول نوويى بشدة أن يخلص نفسه من القبضة الخانقة .

وزأر أوكونكو قائلا « أجبنى قبل أن أقتلك ! » ثم أمسك بعصا ثقيلة من على الحائط المنخفض وضربه ضربتين أو ثلاث ضربات وحشية .

وزأر مرة أخرى « أجبنى » . ووقف نوويى ينظر اليه ولا ينبث ببنت شفة ، بينما صرخت النساء فى الخارج ، دون أن يجرؤن على الدخول .

ثم جاء صوت من الفناء الخارجى قائلا « اترك هذا الصبى فى الحال ! » وكان ذلك هو خال أوكونكو ، أوشندو الذى قال « هل جننت ؟ » .

لم يجب أوكونكو . ولكنه فك قبضته عن نوويى الذى مضى دون عودة .

عاد الى الكنيسة وأخبر السيد كياجا أنه قرر أن يذهب الى أوموفيا حيث أقام المبشر الأبيض مدرسة لتعليم صغار المسيحيين القراءة والكتابة .

فرح السيد كياجا فرحا عظيما وقال مرتلا « طوبى لمن يترك أباه وأمه من أجلى . ان من يسمع كلامى هو أبى وأمى » .

ولم يفهم نوويى تماما . لكنه كان سعيدا لتركه والده . سيعود فيما بعد لأمه واخوته وأخواته ويدعوهم لاعتناق الدين الجديد .

جلس أوكونكو فى كوخه تلك الليلة ، يحدق فى النار المشتعلة فى كتل الخشب ، ويقلب الأمر على جميع وجوهه . شب فى داخله غضب مفاجىء ، وشعر برغبة قوية فى أن يأخذ خنجره ويذهب الى الكنيسة ويمحو الشرذمة الشريرة الآثمة . لكنه عندما أنعم النظر فى الأمر قال لنفسه : ان نوويى لا يستحق أن يحارب من أجله . صرخ فى قرارة قلبه لماذا تحل على دون

الفصل الثامن عشر

ألمت بالكنيسة الشابة فى امبانتنا فى بدء حياتها بضع أزمات . ففى بادىء الأمر افترضت العشيرة أنها لن تبق طويلا على قيد الحياة . لكنها استمرت فى الحياة وازدادت قوة تدريجيا وعندئذ ألم القلق بالعشيرة وان لم يستبد بها . فاذا قررت عصابة من الغوغاء أن تعيش فى « الغابة الشريرة » فهذا شأنها . فاذا فكر المرء فى الأمر ، لوجد أن « الغابة الشريرة » مكان سكن مناسب لمثل هؤلاء غير المرغوب فيهم من الناس . حقا انهم يخلصون التوائم من الغابة ، لكنهم لم يحضروهم قط الى القرية . فبالنسبة لأهل القرية ، ما زال التوائم حيث ألقوا بهم .

لم يحاول المبشرون أن يتخطوا الحدود الا فى مناسبة واحدة . ذهب ثلاثة من الرجال الذين اعتنقوا الدين الجديد الى القرية وفاخروا أمام الجميع بأن جميع الآلهة ميتة عديمة القدرة. وأنهم على استعداد لتحديها بحرق جميع هياكلها .

قال أحد الكهنة « اذهبوا واحرقوا عورات أمهاتكم » .

وقبض على الرجال وضربوا حتى سالت الدماء من أجسامهم . بعد ذلك لم يحدث احتكاك بين الكنيسة والعشيرة لمدة طويلة.

لكن الألسن أخذت تتناقل قصصا مؤداها أن الرجل الأبيض لم يحضر دينا فقط بل أحضر حكومة أيضا . قيل أن البيض بنوا مكانا للمحاكمة فى أوموفيا لحماية أتباع دينهم . بل قيل : انهم شنقوا رجلا قتل مبشرا .

بالرغم من كثرة تناقل هذه القصص الا أنها بدت فى امبانتا كقصص الحوريات ، ولم تؤثر على العلاقة بين الكنيسة الجديدة والعشيرة . لم يفكر أحد هنا فى قتل أحد من المبشرين ، فالسيد كياجا ، رغم جنونه ، لم يكن ليؤذى بعوضة . أما المتحولون الى دينه ، فلن يستطيع أحد أن يقتلهم دون أن يضطر الى الهرب من العشيرة ، اذ رغم تفاهتهم ما زالوا ينتمون الى العشيرة . وهكذا لم يعر أحد اهتماما جديدا لتلك القصص التى كانت تحكى عن حكومة الرجل الأبيض أو نتائج قتل المسيحيين . فاذا ما أصبح هؤلاء أكثر اثارة للمتاعب عما هم فعلا فكل ما هنالك أن يطردوا خارج العشيرة .

لكن الكنيسة الصغيرة شغلت فى هذا الوقت تماما عن مضايقة العشيرة بمتاعبها الخاصة . بدأت هذه المتاعب بشأن المنبوذين .

قال السيد كياجا « ان لم تحلقوا علامة ايمانكم الوثنى ، فلن أقبلكم فى الكنيسة . تخشون أن تموتوا . لماذا تموتون ؟ وهل تختلفون فى شيء عن غيركم من الرجال الذين يحلقون شعورهم ؟ لقد خلقكم جميعا نفس الاله . ولكنهم نبذوكم كالبرص . هذا لا يتفق مع ارادة الله ، الذى وعد كل من يؤمن باسمه المقدس بالحياة الأبدية . يقول عبدة الأوثان انكم تموتون اذا فعلتم هذا أو ذاك ، فتخافون . قالوا أيضا انى سأموت اذا بنيت كنيستى على هذه الأرض . هل مت ؟ قالوا سأموت اذا عنيت بالتوائم . وما زلت حيا . لا يتكلم الوثنى الا كذبا . « كلمة الهنا فقط هى الحق . » .

حلق المنبوذان شعرهما ، وسرعان ما أصبحا من أقوى المنتمين الى الدين الجديد بل والأكثر من ذلك أن اقتفى أثرهما كل منبوذى امبانتا تقريبا . وفى الحقيقة ، بلغ حماس أحدهم حدا سبب نزاعا جديا بين الكنيسة والعشيرة بعد ذلك بعام ، حين قتل الحية المقدسة ، النابعة من اله الماء .

كانت الحية المقدسة تحظى بأكبر قدر من الاحترام يحظى به حيوان فى امبانتا وجميع العشائر المحيطة . كانت تخاطب بلقب « أبانا » ، ويسمح لها بالذهاب أينما شاءت حتى الى فراش الناس . تأكل الفئران فى البيت وتبتلع بيض الدجاج أحيانا . فاذا قتل أحد رجال العشيرة حية مقدسة عن طريق الصدفة ،

يقدم ضحايا للتكفير ويقيم مراسم جنائزية باهظة التكاليف كالتى تقام لرجل عظيم . ولم يفرض عقاب لمن يقتل حية عمدا اذ لم يعتقد أحد أن مثل هذا الشيء يمكن أن يحدث .

ولعله لم يحدث قط . فهكذا اعتقدت العشيرة أول الأمر . اذ لم ير أحد فعلا الرجل وهويفعل ذلك . بل بدأت القصة بين المسيحيين أنفسهم .

على أية حال ، اجتمع حكام امباتنا وشيوخها ليقرروا ما يفعلون . تكلم بعضهم باستفاضة وبغضب شديد . تقمصتهم روح الحرب . قال أوكونكو الذى كان قد بدأ فى الاشتراك فى شئون وطن أمه انه لن يستقر السلام حتى تطرد العصابة الكريهة من القرية بالسياط .

لكن كان هناك كثيرون ينظرون الى الموقف نظرة مختلفة ، وسادت مشورتهم فى النهاية .

قال أحدهم « ليس من عادتنا أن نحارب من أجل آلهتنا . لنمتنع عن أن نجترىء على فعل ذلك الآن . اذا قتل رجل الحية المقدسة سرا فى كوخه ، فان الأمر بينه وبين الاله . لم نر نحن ذلك . فاذا وضعنا أنفسنا بين الاله وفريسته فقد تنزل بنا الضربات المقصود بها المذنب . عندما يكفر رجل ، ماذا نفعل ؟

قالت احـــدى النساء « لقـــد اعتبرتنا القرية خارجين على القانون . أعلن ذلك حامل الجرس الليلة الماضية . لكن ليس من عادتنا أن نمنع أى انسان عن المجرى أو المحجر » .

قالت امرأة أخرى « انهم يريدون القضاء علينا . لن يسمحوا لنا بدخول الأسواق . لقد قالوا ذلك » .

كان السيد كياجا بصدد ارسال نفر الى القرية لاســـتدعاء المتحولين الى الدين الجـــديد من الرجال عنـــدما رآهم قادمين بمحض ارادتهم : من المحقق أنهم سمعوا جميعا المنادى بجرسه، ولكنهم لم يسمعوا قط طيلة حياتهم أن النساء منعن من ارتياد المجرى .

قالوا للنســـــاء « هيا بنا . ســـنذهب معكم لنقابل هؤلاء الجبناء » . كان البعض يحملون عصيا كبيرة بل ويحمل البعض خناجر .

ولكن السيد كياجا منعهم . كان يريد أن يعرف أولا لماذا اعتبروا خارجين على القانون .

قال رجل « يقولون ان أوكولى قتل الحية المقدسة » .

وقال آخر « هذا افتراء . أخبرنى أوكولى ذاته أن هـــذا افتراء » .

ولكن أوكولى لم يكن هناك ليجيب . كان قد سقط صريع المرض فى الليلة السابقة . ومات قبل أن ينقضى النهار . دل موته على أن الآلهة ما زالت قادرة على الدفاع عن نفسها . وعندئذ لم تجد العشيرة مبررا لمضايقة المسيحيين .

مثل الأم وابنتها ، أحدهما صغير جميل ، والآخر عجوز باهت.
يدعى قوس قزح حية السماء .

دعا أوكونكو زوجاته الثلاث وطلب اليهن أن يعددن العدة لوليمة عظيمة . قال «لابد لى أن أشكر أهل أمى قبل أن أرحل».

وكان قد تبقى لدى اكويفى بعض الكاسافا فى مزرعتها من السنة السابقة . لم يكن لدى الزوجتين الأخريين شىء منه . لم يكن السبب تكاسلا منهما ولكن السبب كان كثرة أولادهما . كان من المفهوم اذن أن اكويفى هى التى ستقدم كاسافا للوليمة. وتقدم أم نوويى وأوجيجو الأشياء الأخرى كالسمك المدخن وزيت النخيل والفلفل للحساء . ويتولى أوكونكو أمر اللحم واليام .

بكرت اكويفى فى الصباح التالى وذهبت الى مزرعتها مع ابنتها ازنما وابنة أوجيجو ،أوبياجيلى ، لجمع جذور الكاسافا . حملت كل منهن سلة طويلة من الخيزران ، وخنجرا لقطع سوق الكاسافا اللين ، وفأسا صغيرة لا ستخراج الجذور من الأرض . وكان من حسن الحظ أن سقط مطر خفيف أثناء الليل ولم تكن الأرض شديدة الصلابة .

قالت اكويفى « لن يستغرق جمع كل ما نحتاجه منها وقتا طويلا » .

وقالت ازنما « لكن الأوراق ستكون مبتلة » . كانت تحمل سلتها متوازنة فوق رأسها ، وذراعاها معقودان على صدرها . شعرت بالبرد . « لا أحب تساقط الماء البارد على ظهرى . كان يجب أن ننتظر حتى تطلع الشمس وتجفف الأوراق » .

ودعتها أوبياجيلى « ملحا » لأنها قالت انها لا تحب الماء «هل تخشين الذوبان ؟ » .

كان جمع الكاسافا سهلا كما قالت اكويفى . هزت ازنما كل شجيرة بعنف بعصا طويلة قبل أن تنحنى لقطع الساق وقبل أن تحفر لتستخرج الجذر من الأرض . وفى بعض الأحوال لم يكن هناك داع للحفر . اذ كن يجذبن ما تبقى من الساق فترتفع التربة ، وتنكسر الجذور تحتها وتجذب الثمرة خارجا .

وعندما جمعن كومة لا بأس بها حملنها على دفعتين الى المجرى . حيث كان لكل امرأة بئر غير كبيرة عميقة لتخليل الكاسافا .

قالت أوبياجيلى « سينضج حتما بعد أربعة أيام أو حتى ثلاثة . فالثمار صغيرة » .

قالت اكويفى « ليست صغيرة الى هذه الدرجة . لقد زرعت هذه المزرعة منذ حوالى سنتين . ان التربة فقيرة وهذا هو السبب فى أن الثمار صغيرة الى هذه الدرجة » .

وكان كل ما يعمله أوكونكو يعمله على أكمل وجه وعندما اعترضت زوجته اكويفي قائلة ان عنزتين تكفيان للوليمة قال لها ان ذلك ليس من شأنها .

« انى أقيم وليمة لأن هناك ما يدعو لذلك . لا أستطيع أن أعيش على شط نهر وأغسل يدى بالبصاق . كان أهل أمى كرماء معى ، ومن واجبى أن أعبر عن شكرى وامتنانى » .

وهكذا ذبحت ثلاث عنزات وعدد من الطيور . كانت وليمة كولا ثم الأفراح . قدم فيها طعام الفوفو وحساء اليام ، وحساء البصل وحساء الورقة المرة ، وقدور من خمر النخيل .

ودعا جميع أفراد الأسرة الى الوليمة ، جميع أفراد سلالة أوكولو ، الذى عاش منذ حوالى مائتى عام . كان أوشندو أكبر أعضاء هذه الأسرة الممتدة الأطراف .أعطيت له الكولا ليكسرها وصلى للأسلاف . طلب منهم الصحة والذرية . « اننا لا نسأل ثروة لأن من له الصحة والأبناء سيكون له الثروة . اننا لا نسأل أن يكون لنا مال أكثر بل ليكن لنا أقارب أكثر . اننا خير من الحيوانات لأن لنا أقارب . يحك الحيوان جنبه على شجرة اذا شعر بحاجة الى الهرش ، أما الرجل فيطلب الى قريب له أن يهرش له » . صلى بوجه خاص من أجل أوكونكو وأسرته . ثم كسر ثمرة الكولا وألقى بأحد النصفين على الأرض للأسلاف .

وبينما أديرت ثمار الكولا المكسورة على الموجودين ،

أخذت زوجات أوكونكو وأبناؤه وأولئك الذين جاءوا لمساعدتهم فى الطهو فى احضار الطعام . أحضر أبناؤه قدور خمر النخيل . بلغت وفرة الطعام والشراب حدا جعل كثيرا من الأقارب يصفرون دهشة . وعندما أعد كل شيء ، وقف أوكونكو للكلام .

قال « أرجوكم أن تقبلوا هذا القدر القليل من الكولا ، لا على سبيل رد الدين عما فعلتموه من أجلى فى هذه السنوات السبع . فالطفل لا يستطيع أن يدفع ثمن لبن أمه . فما دعوتكم للاجتماع معا الا لأنه يحسن بالأقارب أن يجتمعوا » .

قدم حساء اليام أولا لأنه أخف من الفوفو ولأن اليام يأتى دائما فى المقدمة . ثم قدم الفوفو . أكله بعض الأقارب مع حساء البصل وآخرون مع حساء الورقة المرة . ثم قسم اللحم بحيث حصل كل عضو من أعضاء الاسرة على نصيب . ثم قام كل رجل حسب ترتيب السن وأخذ نصيبه . حتى العدد القليل من الأقارب الذين لم يتمكنوا من الحضور أرسلت لهم بدورهم أنصبتهم .

ووقف أثناء شرب خمر النجيل ، واحد من أكبر أعضاء الأسرة سنا ليشكر أوكونكو :

« اذا قلنا اننا لم نتوقع وليمة بهذه الفخامة ، فقد يتبادر الى الأذهان أننا لم نكن نعلم مقدار كرم ابننا ، أوكونكو . فكلنا نعرفه وتوقعنا وليمة كبيرة . الا أنه قد ثبت أن الوليمة أكبر بكثير

حتى مما توقعناه . شـــكرا لك . ليت كل ماقدمت يعود اليك ثانية عشرة أضعاف . من الخير فى هذه الأيام التى يعتبر فيهـــا الجيل الأصغر سنا أنفسهم أكثر حكمة من آبائهم ، أن نرى رجلا يعمل الأشياء بالطريقة الفخمة القديمة . فالرجـــل الذى يدعو الأهل الى وليمة لايفعل ذلك لينقذهم من الجوع . فلدى الجميع طعام فى منازلهم . عندما نجتمع معا فى ساحة القرية التى يغمرها ضوء القمر ، لا نجتمع بسبب القمر . اذ بوسع كل رجل أن يرى القمر فى فنائه . بل نجتمع لأنه من الخير للأهل أن يجتمعوا . قد تتساءلون لماذا أقول كل هذا ؟ . أقوله لأنى أخاف على الجيل الجديد . أخاف عليكم أيهـــا القوم » . ولوح بذراعه حيث يجلس الشبان . « أما عن نفسى ، فلم يبق لى من العمر الا أقله . وهكذا الحال بالنسبة لأوشندو . وأوناشوكو وايميفو . لكنى أخاف عليكم أيها الشباب لأنكم لا تفهمون مدى قوة القربى . لا تعرفون معنى الكلام بصوت واحد . وما هى النتيجة ؟ لقد استقر دين كريه بينكم . يســتطيع الرجل الآن أن يترك أباه واخوته . يستطيع أن يلعن آلهة آبائه وأسلافه ككلب الصياد الذى يجن فجأة وينقلب على سيده . انى أخاف عليكم ، أخاف على العشيرة . » ثم استدار ثانية نحو أوكونكو وقال « شكرا لك لأنك جمعتنا معاً » .

الجزء الثالث

الفصل العشرون

ان سبع سنوات مدة طويلة يقضيها المرء بعيدا عن عشيرته . فمكان الرجل لا يبقى دائما شاغرا فى انتظاره . فحالما يمضى يقوم شخص آخر ويشغله . فالعشيرة كالسحلية ، اذا فقدت ذيلها فسرعان ما ينمو لها ذيل آخر .

عرف أوكونكو هذه الأشياء . عرف أنه فقد مكانه بين الأرواح التسعة المقنعة التى تقوم بالقضاء فى العشيرة . فقد فرصته لقيادة عشيرته المحاربة ضد الدين الجديد الذى ، كما قيل له ، قد زاد مركزه استتبابا . فقد السنوات التى كان بوسعه أن يحصل فيها على أعلى الألقاب فى العشيرة . ولكنه صمم أن تكون عودته شيئا يلفت الأنظار . سيعود عودة تلفت الأنظار ، ويستعيد السنوات السبع المضيعة .

بدأ يخطط لعودته حتى فى السنوات الأولى لنفيه . أول ما يجب عليه عمله هو أن يعيد بناء فنائه على مستوى أكثر فخامة . سيبنى مخزنا أكبر مما كان لديه من قبل وسيبنى أكواخا لزوجتين

جديدتين . ثم سيظهر ثراءه بالحاق أبنائه بجماعة « الأوزو » . اذ لا يستطيع أن يعمل ذلك سوى الأثرياء حقا من رجال العشيرة. رأى أوكونكو بوضوح التقدير الرفيع الذى سيناله ، ورأى نفسه يتخذ أعلى الألقاب فى البلاد .

كان يبدو له وسنوات النفى تمر الواحدة تلو الأخرى ، أن الهه قد يكون بصدد تعويضه عن الكارثة السابقة . فقد أتت ياماته بمحصول وفير لا فى وطن أمه فحسب بل فى أوموفيا أيضا حيث وزعها صديقه سنة بعد الأخرى لتزرع بالشرك .

ثم حدثت مأساة ابنه البكر . وبدت أول الأمر أنها قد تقضى عليه . لكن روحه كانت روحا مرنة وتغلب فى النهاية على حزنه . فله خمسة أبناء آخرون سينشئهم على مبادىء العشيرة .

أرسل فى طلب أبنائه الخمسة فجاءوا وجلسوا فى كوخه الخاص . كان أصغرهم فى الرابعة من عمره .

« لقد رأيتم جميعا فعلة أخيكم المشينة . لم يعد بعد ابنا لى أو أخا لكم . لن يكون ابنا لى سوى من كان رجلا ، يستطيع أن يرفع رأسه بين الناس . فاذا فضل أحدكم أن يكون امرأة ، فليتبع نوويى الآن وما زلت على قيد الحياة حتى أستطيع أن ألعنه . أما اذا أدرتم ظهوركم لى عند موتى فسأزوركم وأكسر رقابكم » .

أما فيما يختص ببناته ، فقد كان أوكونكو سعيد الحظ . لم يأسف لكون ازنما فتاة . فمن بين أبنـــائه جميعا ، كانت هى وحدها التى تفهم كل خلجة من خلجاته . ونمت على مر السنوات بينهما رابطة عاطفة قوية .

كبرت ازنما أثناء نفى والدها وأصبحت من أجمل الفتيات فى امبانتا . كانت تدعى : « بلورة الجمال » ، كما كانت تدعى أمها فى شبابها . تحولت الطفلة العليلة التى سببت لأمها كثيرا من الألم والحزن ، تحولت بين ليلة وضحاها تقريبا ، الى شابة مرحة صحيحة البنية . مازالت تنتابها ، والحــق يقال ، لحظات من الانقباض وعندها تنهر الجميع كالكلب الغاضب . تصيبها هذه الحالات فجأة ودون سبب واضح . لكنها حالات نادرة قصيرة المدى . وأثناء هذه الحالات لم تكن تحتمل أى شخص سوى والدها .

وتقدم شبان كثيرون ورجال متوسطو العمر يطلبون يدها . لكنها رفضتهم جميعا . لأن والدها كان قد دعاها ذات ليلة وقال لها « يوجد كثير من الناس الطيبين الأثرياء هنا ، ولكن يسعدنى أن تتزوجى فى أوموفيا عندما نعود الى وطننا » .

لم يقل أكثر من ذلك . ولكن ازنما رأت بوضوح كل ماكان يدور بذهنه خلف هذه الكلمات القليلة ووافقت .

قال أوكونكو « لن تفهمنى أختك غير الشقيقة ، أوبيا جيلى ولكنك تستطيعين أن تشرحى لها الأمر » .

بالرغم من كونهما فى سن واحده تقريبا الا أن ازنما كانت ذات تأثير قوى على أختها غير الشقيقة . فشرحت لها لماذا يجب أن تنتظرا فوافقت هى أيضا . وهكذا رفضت كلتاهما كل عرض للزواج فى امباانتا .

وكثيرا ما فكر أوكونكو بينه وبين نفسه « كم كنت أتمنى أن تكون ابنا » . فهى تفهم كل شىء تمام الفهم . من من بين أبنائه الآخرين كان يمكنـــه أن يقرأ أفكاره بهـــذه السهولة . فعودته وبصحبته ابنتان جميلتان شابتان لابد أن يثير كثيرا من الاهتمام . سيكون أصهاره رجالا ذوى نفوذ فى العشيرة . لن يجرؤ الفقراء أو المغمورون على التقدم اليه .

* * *

لقد تغيرت أوموفيا حقا أثناء السنوات السبع التى قضاها أوكونكو فى المنفى . جاءت الكنيسة وحولت كثيرين عن الطريق السوى . لم ينضم اليها حثالة القوم والمنبوذون فقط بل كان ينضم اليها من آن لآخر رجل جدير بالتقدير . وأجيوفى أوجوننا يعد مثلا على ذلك ، أجيوفى أوجوننا الذى كان قد اتخــذ لقبين ، والذى مزق كالمجنون علامة ألقابه من على ركبته ورماها لينضم الى المسيحيين . كان المبشر الأبيض فخورا جدا به وكان

أوجبوفى من أوائل رجال أوموفيا الذين تناولوا سر الشركة المقدس ، أو الوليمة المقدسة ، كما كانت تدعى فى لغة الايبو . فكر أوجبوفى فى الوليمة كعملية أكل وشرب ، لا تختلف عن وليمة القرية الا فى كونها مقدسة . ولذا وضع القرن الذى يستخدمه للشراب فى حقيبته المصنوعة من جلد الماعز لهذه المناسبة .

لكن الرجل الأبيض قد أحضر الى جانب الكنيسة حكومة أيضا . بنوا ساحة قضاء يفصل فيها حاكم المنطقة فى القضايا وهو يجهل القانون . كان له رسل قضاء يحضرون له الرجال للمحاكمة. قدم كثيرون من هؤلاء الرسل من أمورو على شاطىء النهر العظيم ، حيث حل الرجال البيض أول الأمر منذ سنوات عديدة وحيث بنوا مركز دينهم وتجارتهم وحكومتهم . كان رسل القضاء هؤلاء مكروهين جدا فى أوموفيا لأنهم أغراب ولعجرفتهم وشدتهم أيضا . كانوا يدعون « كوتما » ، ونتيجة للون سراويلهم القصيرة التى فى لون الرماد فقد حصلوا على لقب اضافى هو « الأرداف الرمادية » . كانوا يقومون بحراسة السجن ، الذى يعج بالرجال الذين خالفوا قانون الرجل الأبيض. ألقى بعضهم بتوائمهم فى الغابة . وضايق البعض الآخر المسيحيين . كانوا يضربون فى السجن بواسطة « الكوتما » ويجبرون على العمل كل صباح فى قطع الحشائش فى فناء

الحكومة . واحضار الخشب لحاكم المنطقة الأبيض ورسل المحكمة . كان بعض هؤلاء المساجين رجالا ذوى ألقاب ، أرفع من أن يقوموا بهذه الأعمال الوضيعة . حزت الاهانة فى نفوسهم وحزنوا على مزارعهم المهملة . بينما يقومون هم بقطع الحشائش فى الصباح كان الرجال الأصغر سنا يغنون على وقع ضربات الخناجر :

« الكوتما ذو الأرداف الرمادية ،

يصلح ليكون عبدا .

الرجل الأبيض عديم الفهم ،

يصلح ليكون عبدا » .

لم تعجب رسل القضاء تسميتهم « بالأرداف الرمادية » ، فضربوا الرجال . ولكن الأغنية انتشرت فى أوموفيا .

طأطأ أوكونكو رأسه حزنا وأوبيريكا يخبره بهذه الأمور .

قال أوكونكو لنفسه تقريبا « لعلى بقيت بعيدا أطول مما يجب . ولكنى لا أستطيع فهم هذه الأمور التى تخبرنى بها . ما الذى حدث لقومنا ؟ لماذا فقدوا القدرة على القتال ؟ » .

سأله أوبيريكا :

« ألم تسمع كيف محا الرجل الأبيض آبامى من الوجود ؟ » .

قال أوكونكو :

« سمعت ، ولكنى سـمعت أيضـا أن أهل آبامى كانوا ضعفاء حمقى لماذا لم يردوا العدوان ؟ ألم تتوفر لهم البنادق والخناجر ؟ سنكون جبناء اذا قارنا أنفسنا برجال آبامى . لم يجرؤ آباؤهم قط على الوقوف أمام أسلافنا . يجب علينـا أن نحارب هؤلاء الرجال ونطردهم من الأرض » .

قال أوبيريكا بحزن :

« لقد مضى أوان ذلك . فقد انضم رجالنا وأبناؤنا الى صفوف الأجنبى . انضموا الى دينه ويعملون على دعم حكومته. اذا ما حاولنا طرد الرجال البيض من أوموفيا فسنجد ذلك سهلا . اذ لا يوجد سوى اثنين منهم . ولكن ما شأن رجالنا الذين يتبعون طرقهم والذين منحوا سلطة ؟ سيذهبون الى أومورو ويحضرون الجند ، ونصبح مثل آبامى » . سـكت وقتا طويلا ثم قال « أخبرتك فى زيارتى الأخيرة كيف شنقوا أنيتو « .

سأل أوكونكو :

« ماذا حـدث لقطعة الأرض المتنازع عليها ؟ » .

« قررت محكمة الرجل الأبيض أنهـا يجب أن تئول الى أسرة أنناما ، التى أعطت رسـل الرجل الأبيض ومترجمة مالا كثيرا » .

« هل يفهم الرجل الأبيض عـاداتنا بشـأن الأرض ؟ » .

« كيف يتسنى له ذلك فى الوقت الذى لا يمكنه فيه حتى أن يتكلم لغتنا ؟ ولكنه يقول ان عاداتنا سيئة ، واخوتنا الذين تحولوا الى دينه أيضا يقولون ان عاداتنا سيئة . كيف تظن أننا نستطيع القتال واخوتنا قد انقلبوا ضدنا . ان الرجل الأبيض غاية فى المهارة . جاء بهدوء وسلام بدينه . ضحكنا لحماقته وسمحنا له بالبقاء . فاستمال اخوتنا اليه الآن ولم تعد العشيرة تستطيع أن تعمل كرجل واحد . لقد وضع سكينا على الأشياء التى تربطنا معا فتداعينا » .

سأل أوكونكو :

« كيف تمكنوا من القبض على أنيتو ليشنقوه ؟ » .

« عندما قتل أودوتشى فى نزاعهم بسبب الأرض ، هرب الى أنينتا ليهرب من غضب الأرض . حدث هذا بعد المعركة بحوالى ثمانية أيام ، لأن أودوتشى لم يمت متأثرا بجراحه مباشرة . مات فى اليوم السابع . لكن الجميع كانوا يعلمون أنه سيموت وأعد أنيتو حاجياته استعدادا للهرب . لكن المسيحيين كانوا قد أخبروا الرجل الأبيض بالحادث ، فأرسل «الكوتما» أو الرسل ليمسكوا أنيتو . سجن هو وقادة أسرته ومات أودوتشى فى النهاية ونقل أنيتو الى أومورو وشنق . ثم أطلق سراح الآخرين ، ولكنهم حتى الآن لم يجدوا الفهم الذى يعبرون به عما قاسوا من آلام ».

جلس الرجلان صامتين فترة طويلة بعد ذلك .

الفصل الحادى والعشرون

كا ن فىأوموفيا رجال ونساء كثيرون لم يحز النظام الجديد فى نفوسهم كما حز فى نفس أوكونكو . فقد أحضر الرجل الأبيض حقا دينا مجنونا ، لكنه بنى أيضا مركزا للتجارة وللمرة الأولى أصبح لزيت النخيل والبذرة سعر كبير ، وتدفق الى أوموفيا مال كثير .

حتى بشأن الدين ، كان هناك شعور متزايد بأنه قد يكون به شىء ذو قيمة بالرغم من كل شىء يشبه النظام المتناسق وسط الجنون المغرق .

ويرجع هذا الشعور المتزايد الى السيد براون ، المبشر الأبيض ، الذى أصر بشدة على كبح جماح قطيعه حتى لا يثير غضب العشيرة . وخاصة أحد أعضائها بالذات الذى كان من الصعب كبح جماحه . كان يدعى أخنوخ ووالده كاهن عبادة الحية . انتشرت اشاعة مؤداها أن أخنوخ قتل الحية المقدسة وأكلها ، وأن أباه لعنه .

وعظ السيد براون معارضا مثل هذا الحماس المتطرف . قال لقطيعه النشيط ان كل شيء ممكن ولكن ليس كل شيء مناسب ، وهكذا أصبح السيد براون محترما حتى من العشيرة . لأنه وطىء دينها برفق . صادق بعض عظماء العشيرة وفى احدى زياراته المتكررة الى القرى المجاورة قدم له ناب فيل محفور كدليل على الهيبة والمركز الرفيع . كان أحد عظماء تلك القرية يدعى أكوننا وقد أرسل أحد أبنائه ليحصل على علم الرجل الأبيض فى مدرسة السيد براون .

كلما ذهب السيد براون الى تلك القرية قضى ساعات طويلة مع أكوننا فى كوخه الخاص يتحدث عن طريق مترجم عن الدين . لم ينجح أحدهما فى تحويل الآخر الى دينه ولكنهما تعلما الكثير عن معتقداتهما المختلفة .

قال أكوننا أثناء احدى زيارات السيد براون :

« تقول ان هناك الها أعلى صنع السماء والأرض . نحن أيضا نؤمن به وندعوه تشوكو . انه صانع العالم كله والآلهة الأخرى » .

قال السيد براون « لا توجد آلهة أخرى . تشوكو هو الاله الوحيد وجميع الآخرين آلهة غير حقيقية . انكم تنحتون قطعة من الخشب ـــ مثل تلك (وأشار الى القوائم التى تدلت منها

عصاه المحفورة) وتسمونها الها . ولكنها قطعة من الخشب » .

قال أكوننا :

« نعم . انهـــا حقا قطعة من الخشب . لكن تشوكو صنع الشجرة التى أخذت منها ، مثل ما صنع كل الآلهة الصـــغيرة فى الحقيقة . لكنه صنعها لتكون رسلا له حتى يمكننا الاقتراب منه عن طريقها . كما هو الحال معك . فأنت رأس كنيستك » .

اعترض السيد براون قائلا :

« لا ، ان رأس كنيستى هو الله ذاته » .

قال أكوننا :

« أعرف ذلك ، ولكن لابد من وجـــود رئيس فى هـــــذا العالم بين الناس . لابد أن يكون شخص ما مثلك رئيسا هنا » .

« ان رئيس كنيستى بهذا المعنى فى انجلترا » .

« هـــذا بالضبط ما كنت أعنيه . رئيس كنيستك فى بلدك . أرسلك الى هنا كرسول له . وأنت بدورك قد عينت لك رســـلا وخداما . أو دعنى أضرب مثلا آخـــر ، حاكم المنطقة أرسـله ملكك » .

وقال المترجم من تلقاء نفسه « ان لهم ملكة » .

« ترســـل ملكتك رســـولا ، حاكمـــا للمنطقة فيجـــد أنه

لا يستطيع أن يقوم بالعمل بمفرده فيعين رسلا أو « كوتما » ليعاونوه . وهكذا الحال مع الله ، أو تشوكو . فهو يعين الآلهة الأصغر منه لتساعده لأن عمله أكبر من أن يقوم به شخص واحد » .

قال السيد براون « يجب ألا تفكر فيه كشخص . فلأنك تفعل ذلك تتصور أن لابد أن يكون له مساعدون . وأسوأ ما فى الأمر أنكم تقدمون كل عباداتكم للآلهة غير الحقيقية التى خلقتموها » .

« ليس الأمر كذلك . اننا نقدم الضحايا للآلهة الصغيرة ، لكن عندما تفشل ولا يوجد من نلتجىء اليه غيرها نذهب لتشوكو . من الصواب أن نفعل ذلك . اننا نقترب من الرجل العظيم عن طريق خدامه . ولكن عندما يفشل خدامه فى مساعدتنا ، نذهب عندئذ الى آخر مصدر للأمل . نبدو وكأننا نمنح الجزء الأكبر من اهتمامنا للآلهة الصغيرة ولكن الأمر غير ذلك . اننا نقلقهم أكثر لأننا نخشى اقلاق سيدهم . لقد عرف آباؤنا أن تشوكو هو السيد الأعلى ولذا فقد أطلق الكثيرون منهم اسم تشوكو ـــ « تشوكو هو الأسمى على أطفالهم » .

قال السيد براون :

« لقد قلت شيئا واحدا يثير الاهتمام . انكم تخشون

تشوكو . أما فى دينى فتشوكو أب محب وليس ثمة ما يدعو أن يخافه من يعمل بارادته » .

قال أكوننا :

« لكن يجب أن نخافه عنـدما لا نعمل على تنفيذ ارادته . ومن يستطيع أن يقول ما هى ارادته ؟ انها أعظم من أن تعرف » .

وبهذه الطريقـة تعلم السيد براون الشىء الكثير عن دين العشيرة واستنتج أن أى هجوم سافر عليه لن ينجح . لذا بنى مدرسة ومستشفى صغيرا فى أوموفيا . مضى من أسرة الى أخرى يرجو الناس أن يرسلوا أطفالهم الى مدرسته . لكنهم لم يرسلوا فى بادىء الأمر سوى عبيدهم أو فى بعض الأحيان الكسالى من أطفالهم . ترجى السيد براون وحاج وتنبأ . قال ان قادة البلد فى المستقبل سيكونون رجالا ونساء قد تعلموا القراءة والكتابه . فاذا امتنعت أوموفيا عن ارسال أطفالها الى المدرسة ، فسيأتى أغراب من أماكن أخرى ليحكموهم . كان بوسعهم أن يروا ذلك يحدث فعلا فى المحكمة الوطنية حيث يحيط بحاكم المنطقة أغراب يتكلمون لغته . جاء معظم هؤلاء الأغراب من مدينـة أومورو النائية ، على شاطىء النهر العظيم حيث نزل الرجـل الأبيض أولا .

وأخيرا بدأت حجج السيد براون تأتى بنتيجة . جاء عـدد

أكبر من الناس ليتعلموا فى مدرسته وشجعهم بهدايا من القمصان والفوط . لم يكن جميع أولئك الذى جاءوا ليتعلموا من الصغار. كان بعضهم فى الثلاثين من العمر . يعملون فى مزارعهم فى الصباح ويذهبون الى المدرسة بعد الظهر . ولم يمض وقت طويل حتى بدأ الناس يقولون ان دواء الرجل الأبيض سريع المفعول . أتت مدرسة السيد براون بنتائج سريعة . فقد كانت بضعة شهور بها كافية لأن تجعل المرء أحد رسل القضاء أو حتى كاتب بالمحكمة. أما أولئك الذين بقوا مدة أطول فأصبحوا مدرسين ، خرج من أوموفيا فعلة فى كرمة الرب . أقيمت كنائس جديدة فى القرى المجاورة ومعها بضع مدارس . منذ البداية سار الدين والتعليم جنبا الى جنب .

زادت ارسالية السيد براون قوة فوق قوة ، وحصلت نتيجة لصلتها بالادارة الجديدة على امتيازات اجتماعية جديدة . لكن صحة السيد براون نفسه بدأت فى التدهور . أهمل العلامات الأولى للمرض ، لكنه اضطر فى النهاية الى ترك قطيعه ، حزينا منكسرا .

ترك السيد براون البلاد ليعود الى وطنه . حدث ذلك أثناء الفصل المطير الأول بعـد عودة أوكونكو الى أوموفيا . كان المبشر حالما سمع بعودة أوكونكو قبل ذلك بخمسة شهور ، قد ذهب على الفور لزيارته . كان قد أرسل لتوه ، بابن أوكونكو ،

نوويي ، الذى صار يدعى اسحق ، الى كلية اعـداد المعلمين الجديدة فى أومورو . ظن أن أوكونكو سيسعده سماع هـذا الخبر . لكن أوكونكو طرده مهددا اياه بأنه اذا جاء الى فنائه مرة أخرى ، فلن يخرج منه على قدميه .

لم تكن عودة أوكونكو الى وطنه شيئا يلفت الأنظار الى الحد الذى كان يرجو . حقا أثارت ابنتاه الجميلتان اهتمـاما كبيرا بين الخطاب وسرعان ما بدأت مفاوضات الزواج ، ولكن ، على خلاف ذلك ، لم يبد أن أوموفيا اهتمت اهتماما خاصا بعودة المحارب . لقد تغيرت العشيرة تغيرا عميقا أثناء فترة نفيه حتى كادت تصبح عشيرة مختلفة تماما . أصـبح الدين الجـديد والحكومة الجديدة ومخازن التجارة ملء الأبصار والأذهان . ما زال هناك الكثيرون ممن اعتبروا هذه المؤسسات شريرة ، لكن حتى هؤلاء ما كانوا يتحدثون أو يفكرون فى شيء سواها ، وبالتأكيد لم يفعلوا ذلك عند عودة أوكونكو .

وكذلك جاءت عودته فى سنة غير مواتيـة . فاذا ما تمكن أوكونكو من ضم ابنيه الى جماعة « الأوزو » بعد عودته مباشرة كما كان قد خطط فما من شك فى أنه كان سيثير اهتماما كبيرا . ولكن طقوس الانضمام كانت تقام مرة كل ثلاث سـنوات فى

أوموفيا ، فكان عليه أن ينتظر سنتين تقريبا قبل أن تحل الدورة التالية من حفلات هذه المراسيم .

يحز الحزن بشدة فى نفس أوكونكو . ولم يكن حزنه حزنا شخصيا فحسب . حزن على العشيرة ، التى كانت تتفكك وتتداعى ، وحزن على رجال أوموفيا الشجعان المحاربين ، الذين أصبحوا دون سبب واضح فى لين النساء .

الفصل الثانى والعشرون

خلف السيد براون القس جيمس سميث ، وكان رجلا من نوع آخر . أدان علنا سياسة السيد براون القائمة على أنصاف الحلول والممالأة . فهو يرى الأشياء سوداء أو بيضاء . والأسود شر . يرى العالم كساحة قتال يلتحم فيها أبنـاء النور فى نزال مميت مع أبناء الظلمة . تحدث فى عظاته عن الخراف والسداء وعن الحنطة والذوان . كان يؤمن بذبح أبناء بلعال .

حزن السيد سميث حزنا شديدا للجهل الذى أبداه الكثيرون من قطيعة حتى بأشياء مثل الثالوث والأسرار المقدسة . « هذا ان دل على شيء فانما يدل على أنهـم بذور بذرت على أرض صخرية . ان السيد براون لم يفكر الا فى كثرة الأعداد . كان الأحرى به أن يعرف أن مملكة الله لا تعتمد على الجموع الكبيرة. فقد أكد سيدنا ذاته أهمية القلة . ضيق هو الطريق وقليلون هم الذين يدخلونه . أما أن يملأ المرء هيكل الرب المقدس بجمع من عبدة الأوثان يصرخون طالبين علامة فحمـق ذو نتائج أبدية .

استخدم سيدنا السوط مرة واحدة فى حياته — ليطرد الجمع من كنيسته .

فبعد بضعة أسابيع من وصوله حرم السيد سميث شابة من من الانتماء الى الكنيسة لأنها صبت خمرا جديدة فى زجاجات عتيقة . سمحت هذه المرأة لزوجها الوثنى أن يشوه طفلها الميت. كان قد أعلن أن الطفل أحد أولئك الأطفال الذين يعذبون أمهم بعودتهم الى بطنها ليولدوا مرة أخرى . قام هذا الطفل بدورته الشريرة أربع مرات . وهكذا شوه ليثنى عن العودة مرة أخرى.

امتلأ السيد سميث غضبا عندما بلغ سمعه هذا الأمر . لم يصدق القصة التى أكدها الجميع حتى نفر من أكثر المؤمنين يقينا ، قصة الأطفال الأشرار حقا الذين لا يعوقهم التشويه ، بل يأتون بكل ندباتهم . قال ردا على ذلك ان مثل هذه القصص ينشرها الشيطان فى العالم ليضلل النـاس . ان أولئك الذين يصدقون مثل هذه القصص غير أهل لمائدة الرب .

كان فى أوموفيا مثل مؤداه أنه عندما يرقص الرجل تقرع له الطبول . رقص السيد سميث رقصة عنيفة وهكذا جنت الطبول. فأولئك المفرطون فى الحماس من المتحولين الى الدين الجديد والذين تحرقوا تحت قبضة السيد براون التى كبحت جماحهم اشتدت سطوتهم الآن وحازوا تمام الرضا . كان أحدهم أخنوخ، ابن كاهن الحية ، الذى اعتقد الناس أنه قتل الحية المقدسة

وأكلها . بدا اخلاص أخنوخ للدين الجـديد أعظم بكثير من اخلاص السيد براون لدرجة أن سماه أهل القرية الغريب الذى بكى أكثر من أهل الميت .

كان أخنوخ قصيرا رقيق البنية ، يبدو دائما كما لو كان على عجل شديد . قدماه قصيرتان عريضتان ، وعندما يقف أو يمشى يلتصق كعباه وينفتح قدماه الى الخارج كما لو كانا قد تعاركا وينويان اتخاذ وجهات مختلفة . بلغت الطاقة الزائدة المخزونة فى جسم أخنوخ الصغير حدا جعلها دائمة الثورة فى مخاصمات ونزاع . كان دائما يتصور فى أيام الآحاد أن العظة تلقى لصالح أعدائه واذا حدث أن جلس بجوار أحدهم فانه يستدير من وقت لآخر ليلقى عليه نظرة ذات معنى ، كما لو كان يقول « لقد قلت لك ذلك » . كان أخنوخ هو الذى أثارت لمسته النزاع بين الكنيسة والعشيرة فى أوموفيا ، النزاع الذى أخذ يتجمع منذ رحيل السيد براون .

حدث ذلك أثناء الاحتفال السنوى الذى يقام تكريما لالهة الأرض . يخرج فى مثل هذه الأوقات أسلاف العشيرة الذين دفنوا فى « الأرض الأم » عند وفاتهم ، مرة أخرى فى شكل «أوجوجو» أو الأرواح المقنعة عن طريق فتحات بيوت النمل الصغيرة .

يعد خلع قناع أحد « الأوجوجو » علانية ، أو قول أو فعل شىء من شأنه التقليل من منزلته الأزلية فى أعين الذين لا يعرفون

سره جريمة من أبشع الجرائم التى يمكن لانسان أن يرتكبها . كان هذا ما فعله أخنوخ .

وحل موعد عبادة الهة الأرض السنوية يوم أحد ، وخرجت الأرواح المقنعة . لذلك لم تستطع النساء المسيحيات اللائى ذهبن الى الكنيسة العودة الى بيوتهن . ذهب بعض الرجال ليرجوا « الاوجوجو » أن يلزموا بيتهم فترة قصيرة حتى تمر النساء . فوافقوا وكانوا فعلا قد أخذوا فى العودة ، عندما فاخر أخنوخ بصوت مرتفع بأنهم لن يجرءوا على مس مسيحى . عندئذ عادوا جميعا وضرب أحدهم أخنوخ ضربة قوية بعصى من الخيزران . يحملها دائما . وهجم عليه أخنوخ ومزق قناعه من على وجهه . أحاط « الأوجوجو » الآخرون بسرعة برفيقهم الذى دنس ، ليحموه من نظرة النساء والأطفال الدنسة ، وانصرفوا به من المكان . لقد قتل أخنوخ أحد أرواح الأسلاف ، وعمت الفوضى أوموفيا .

سارت تلك الليلة « أم الأرواح » بطول العشيرة وعرضها تبكى ابنها المقتول . كانت ليلة مخيفة . لم يسمع أحد قط ولا حتى أكبر الرجال سنا فى أوموفيا مثل هذا الصوت الغريب المخيف ، ولم يسمع أبدا مرة أخرى . بدا وكأن روح القبيلة ذاتها تبكى شرا عظيما آتيا ، تبكى موتها .

وفى اليوم التالى اجتمع جميع « أوجوجو » أوموفيا المقنعون

فى ساحة السوق . جاءوا من جميع أركان العشيرة بل ومن القرى المجاورة . جاء أوتكاجو الرهيب من ايمو ، ووصل اكونسو من أولى ، يتدلى من يده ديك أبيض . كان اجتماعا مخيفا . بعثت أصوات الأرواح الغريبة التى لا حصر لها ، الأجـراس التى تجلجل خلف بعضهم وقرقعة الخناجر وهم يمرون الى الأمـام والخلق يحيون الواحد الآخر ، بهزات من الخوف الى كل قلب . سمع لأول مرة يذكرها الانسان زئير الثور المقدس فى وضح النهـار .

واتجهت الجماعة الغضبى من ساحة السوق الى فناء أخنوخ. ذهب أيضا بعض شيوخ القبيلة وهم يرتدون أحجبة وتمـائم واقية ثقيلة . كان هؤلاء رجالا ذوى باع فى الطب . أما الرجال والنساء العاديون ، فأنصتوا من داخل أكواخهم التى لجأوا اليها طلبا للأمن .

كان قادة المسيحيين قد اجتمعوا معا بمسكن القس السيد سميث فى الليلة السابقة . سمعوا وهم يتشاورون « أم الأرواح » تولول على ابنها . تأثر السيد سميث بالصـوت الذى يبعث بالرعشة فى الأوصال ، وبدا خائفا للمرة الأولى .

سأل « ما الذى ينوون عمله ؟ » لم يكن أحد يدرى ، اذ لم يحدث قط من قبل شىء من هذا القبيل . كان بوسع السيد

سميث أن يرسل فى طلب حاكم المنطقة ورسل المحكمة ، لكنهم كانوا قد قاموا برحلة فى اليوم السابق .

قال السيد سميث « ثمة شىء واضح . لا نستطيع أن نقاومهم مقاومة تذكر . قوتنا فى الرب . ركعوا معا وصلوا لله طالبين النجاة » .

صاح السيد سميث « أيها الرب خلص شعبك » .

وأجاب الرجال « وبارك ميراثك » .

قرروا أن يخبئوا أخنوخ فى بيت القس لمدة يوم أو يومين . أصابت أخنوخ ذاته خيبة أمل شديدة عندما سمع ذلك ، فقد كان يأمل أن حربا مقدسة وشيكة الوقوع ، كما شاركه فى ذلك أيضا بضعة مسيحيين آخرين . لكن الحكمة سادت معسكر المؤمنين وهكذا نجت أرواح كثيرة من الهلاك .

وتقدمت جماعة « الأوجوجو » نحو فناء أخنوخ كالدوامة الغضبى ، وحولته بالخنجر والنار الى كومة مقفرة . ومن هناك اتجهت نحو الكنيسة ، وقد أسكرها الهدم والتخريب .

كان السيد سميث فى كنيسته عندما سمع الأرواح المقنعة قادمة . سار الى الباب الذى يشرف على المدخل الى فناء الكنيسة، ووقف هناك . لكنه كاد أن يهرب عندما طالعه « الأوجوجو » الثلاثة أو الأربعة الأول فى فناء الكنيسة . تغلب على هذا الدافع

وبدلا من الجرى هبط الدرجتين اللتين تؤديان الى الكنيسة وسار نحو الأرواح المقتربة .

تقدمت الى الأمام كالموج وسقط أمامها جزء كبير من السور المصنوع من الخيزران الذى يحيط بفناء الكنيسة . جلجلت أجراس جلجلة غير متناسقة . واصطكت خناجر وامتلأ الجو بالغبار وبالأصوات المخيفة . سمع السيد سميث وقع أقدام خلفه . استدار فوجد أوكيكى ، مترجمه . كانت العلاقات قد ساءت بينهما منذ استنكر أوكيكى سلوك أخنوخ بشدة فى اجتماع قادة الكنيسة أثناء الليل . ذهب أوكيكى الى حد القول بأن أخنوخ يجب ألا يخبأ فى بيت القس لأن ذلك سيجر حتما غضب العشيرة على راعى الكنيسة . عنفه السيد سميث بشدة ولم يطلب مشورته ذلك الصباح . أما الآن ، عندما جاء اليه ووقف بجواره فى مواجهة الأرواح الغضبى ، فنظر اليه السيد سميث وابتسم . كانت ابتسامة باهتة متعبة ولكنها نمت عن شكر عميق .

توقف اندفاع « الأوجوجو » فترة وجيزة بسبب هدوء الرجلين غير المتوقع . ولكن ذلك التوقف لم يدم طويلا مثله فى ذلك مثل السكون المحمل بالتوتر الذى يفصل بين هزمات الرعد . أما الاندفاعة الثانية فكانت أعظم من الأولى . ابتلعت الرجلين تماما . ثم علا فوق الصخب صوت لا يخطئه انسان

فساد الصمت على الفور . أفسح مكان حول الرجلين ، وبدأ أجوفيا فى الكلام .

كان أجوفيا قائد « الأوجوجو » فى أوموفيا . كان رئيس الأسلاف التسعة الذين يقضون بالعدل فى العشـــيرة والمتكلم باسمهم . لا يمكن لأحد أن يخطىء صوته وهكذا استطاع أن يدخل السكينة فورا الى الأرواح المضطربة . ثم خاطب السيد سميث ، وصعدت من رأسه سحب من الدخان وهو يتكلم .

قال ، مستخدما اللغة التى يتحدث بها الأزليون الى البشر « يا جسم الرجل الأبيض ، أحييك » .

وسأل « يا جسم الرجل الأبيض ، هل تعرفنى ؟ » .

نظر السيد سميث الى مترجمه ، ولكن أوكيكى ، الذى كان من مواليد أومورو البعيدة لم يفهم هو الآخر شيئا .

وضحك أجوفيا بصوته الحلقى . كانت ضحكته كضحكة المعدن الصدىء . وقال « انهم أغراب ، وجهلة ، لكن دعنا من ذلك . استدار الى رفاقه وحياهم ، مخاطبا اياهم بآباء أونوفيا. غرس رمحه الذى يشخشخ فى الأرض فاهتز بحياة معدنية . ثم استدار مرة أخرى نحو المبشر ومترجمه .

قال للمترجم « قل للرجل الأبيض اننا لن نمسه بسوء .

قل له أن يعود الى بيته ويتركنا وحدنا . كنا نحب أخاه الذى كان معنا من قبل . كان أحمقا ، ولكنا كنا نحبه ، واكراما له لن نمس أخاه بسوء . لكن هذا المعبد الذى بناه يجب أن يهدم .

لن نسمح ببقائه فى وسطنا بعد الآن . لقد سبب مكروهات لا يمكن التعبير عنها وجئنا لنضع حدا لذلك » . ثم اتجه الى رفاقه « يا آباء أوموفيا ، أحييكم » ، وأجابوا بصــوت حاقى واحد . ثم اتجه ثانية نحو المبشر .

« يمكنك البقاء معنا اذا كانت طرقنــا تعجبك . يمكنك أن تعبد الهك الخاص . من الخير أن يعبد الرجــل آلهة آبائه وأرواحهم . عد الى منزلك حتى لا يلحقك أذى . فنحن نشعر بغضب عظيم ولكنا قد كبحنا هذا الغضب لنتحدث اليك » .

قال السيد سميث لمترجمه « قل لهم أن ينصرفوا من هنا . هذا بيت الله . ولن أسمح لأحد أن يدنسه » .

وترجم أوكيكى بحكمة لأرواح أوموفيا وقادتها .

« يقول الرجل الأبيض انه ســعيد لأنكم جئتم اليــــه بشكاواكم كأصدقاء . سيسعده أن تتركوا الأمر بين يديه » .

« لا نستطيع أن نترك الأمر بين يديه لأنه لا يفهم عاداتنا، كما لا نفهم نحن عاداته . فنحن نقول انه أحمق لأنه لا يعرف

طرقنا ، ولعله هو يقول اننا حمقى لأننا لا نعرف طرقه . دعه يمضى » .

وثبت السيد سميث فى مكانه . لكنه لم يتمكن من انقاذ كنيسته . عندما انصرف « الأوجوجو » كانت الكنيسة المبنية من التربة الحمراء التى أقامها السيد براون كومة من التراب والرماد . وهكذا ساد السلام روح العشيرة مؤقتا .

الفصل الثالث والعشرون

شعر أوكونكو للمرة الأولى منذ عدة سنوات بشعور يشبه السعادة . بدت الأوقات التى تغيرت دون سبب أثناء نفيه وكأنها تعود مرة أخرى . بدت العشيرة التى كانت قد خيبت أمله وكأنها تعوضه عن ذلك .

لقد تحدث بعنف الى رجال عشيرته عندما تقابلوا فى ساحة السوق ليقرروا ماذا يفعلون . واستمعوا له باحترام . عادت الأمور مرة أخرى لما كانت عليه فى الأيام الخوالى الطيبة ، عندما كان المحارب محاربا حقا . بالرغم من أنهم لم يتفقوا على قتل المبشر أو طرد المسيحيين ، فقد اتفقوا على القيام بشىء ملموس. وقاموا فعلا بذلك . كاد أوكونكو أن يشعر بالسعادة مرة أخرى .

مضى يومان بعد هدم الكنيسة ، ولم يحدث شىء . انتقل كل رجل فى أوموفيا من مكان الى الآخر مدججا ببندقية أو خنجر فلن يؤخذوا على غرة ، مثل رجال آبامى .

ثم عاد حاكم المنطقة من رحلته . ذهب السيد سميث على

الفور لرؤيته . وحدثت بينهما مناقشة طويلة . لم يعر رجال أوموفيا ذلك أى اهتمام ، واذا فعلوا ، فما كانوا ليظنوا أن الأمر هام . فكثيرا ما ذهب المرسل لزيارة أخيه الرجل الأبيض . لم يكن فى الأمر شيء غريب .

وبعد مضى ثلاثة أيام أرسل حاكم الناحية رسوله ذا اللسان المعسول الى قادة أوموفيا طالبا اليهم أن يجتمعوا به فى مقره الرئيسى . ولم يكن فى هذا أيضا شيء غريب . فكثيرا ما يطلب اليهم أن يقيموا مثل هذه « المحادثات الطويلة » كما يسميها . كان أوكونكو أحد القادة الستة المدعوين .

حذر أوكونكو الآخرين بضرورة التسلح تسلحا تاما . قال « لا يرفض رجل أوموفيا دعوة . قد يرفض أن يفعل ما يطلب اليه ، ولكنه لا يرفض أن يطلب اليه شيء . لكن الأوقات قد تغيرت ، وعلينا أن نكون على أتم استعداد » .

وهكذا ذهب الرجال الستة لمقابلة حاكم المنطقة ، مدججين بخناجرهم . لم يحملوا بنادق لأن ذلك لا يليق . اقتيدوا الى بيت القضاء حيث جلس حاكم المنطقة . استقبلهم بأدب . نزعوا حقائبهم المصنوعة من جلد الماعز وخناجرهم المغمدة ، ووضعوها على الأرض ، وجلسوا .

بادرهم الحاكم بقوله « لقد دعوتكم الى هنا بشأن ما حدث

أثناء غيابى . قيلت لى بضعة أشياء لكنى لا أستطيع تصديقها حتى أستمع الى جانبكم أنتم . لنتحدث عن ذلك كأصدقاء ولنجد وسيلة للتأكد من عدم حدوث ذلك مرة أخرى » .

هب أوجبوفى اكويمى واقفا وبدأ فى سرد القصة .

قال الحاكم « انتظر لحظة . أود أن آتى برجالى حتى يستطيعوا هم أيضا أن يسمعوا شكاواكم ويأخذوا حذرهم . اذ يأتي الكثيرون منهم من أماكن بعيدة وبالرغم من أنهم يتكلمون لغتكم الا أنهم يجهلون عاداتكم . جيمس ! اذهب وأحضر الرجال » . ترك مترجمه قاعة المحكمة وسرعان ما عاد ومعه اثنا عشر رجلا . جلسوا مع رجال أوموفيا ، وبدأ أوجبوفى اكويمى مرة أخرى فى سرد قصة قتل أخنوخ لأحد«الأوجوجو».

حدث ما حدث بسرعة كبيرة جعلت الرجال الستة لا يرون ما يحدث . لم يحدث سوى تماسك قصير بالأيدى لم يسمح حتى باخراج خنجر من غمده . وضعت القيود الحديدية فى أيدى الرجال الستة واقتيدوا الى قاعة الحرس .

قال حاكم المنطقة « لن نمسكم بسوء ، اذا وافقتم فقط على التعاون معنا . لقد جئنا لكم ولقومكم بادارة مسالمة حتى تكونوا سعداء . اذا أساء رجل معاملتكم فسنهب لنجدتكم . ولكننا لن نسمح لكم بالاساءة الى الآخرين . توجد لدينا ساحة

قضاء نفصل فيها فى القضايا بالعدل ، كما هو معمول به فى بلدى تحت حكم ملكة عظيمة . لقد أحضرتكم الى هنا لأنكم تعاونتم معا على مضايقة الآخرين ، وحرق بيوت الناس وأماكن عبادتهم. لا ينبغى أن يحـدث هذا تحت حكم ملكتنا العظيمة ، أقوى حكام العالم . لقد قررت أن تدفعوا غرامة قدرها مائتى حقيبة من عملة الكوريات . سيطلق سراحكم حالما توافقون على ذلك وتتعهدون بجمع تلك الغرامة من قومكم . ما قولكم فى ذلك ؟ ».

ظل الرجال الستة مكتئبين صامتين وتركهم الحاكم فترة من الزمن . أخبر رسل المحكمة عند مبارحته لقاعة الحرس ، أن يعاملوا الرجال باحترام لأنهم قادة أوموفيا . قالوا « نعـم ، يا سيدى » ، وأدوا التحية .

ما كاد ينصرف الحاكم حتى أخذ رئيس السعاة الذى كان يعمل أيضا حلاقا للمساجين موساه وحلق شعر رءوس الرجال عن آخره ، ما زالت أيديهم فى القيود فما كان منهم الا أن جلسوا مكتئبين .

وسألهم سعاة المحكمة باستخفاف « من منكم الرئيس ؟ فاننا نرى كل معدم يلبس علامة اللقب حول ركبته فى أوموفيا . هل يبلغ ثمنها عشر كوريات ؟ » .

لم يأكل الرجال شيئا طوال ذلك اليوم واليوم التالى . لم

يعطوا حتى ماء ليشربوا ، ولم يستطيعوا الخروج للتبول ولا الذهاب الى الأشجار لقضاء حاجتهم . وفى الليل جاء الرجال ليسخروا منهم ويقرعوا رءوسهم المحلوقة بعضها بالبعض الآخر.

حتى عندما ترك الرجال وحدهم لم يجدوا شيئا يتحدثون عنه . لم يبدأوا فى الكلام عن التسليم الا فى اليوم الثالث ، عندما تعذر عليهم تحمل الجوع والاهانات أكثر من ذلك .

قال أوكونكو بسخرية لاذعة « لو أنصتم الى لكنا قد قتلنا الرجل الأبيض » .

قال شخص ما «ولكننا الآن فى أومورو فى انتظار الشنق» .

سأل رسول اندفع لتوه الى الداخل « من يريد قتل الرجل الأبيض ؟ » لم يتكلم أحد .

« ألا تكتفون بجريمتكم ، فتريدون قتل الرجل الأبيض ». كان يحمل عصا قوية ، فضرب كل رجل بضع ضربات على الرأس والظهر بينما كان الحقد يخنق أوكونكو .

ما كاد يتم سجن الرجال الستة ، حتى ذهب رسل المحكمة الى أوموفيا ليخبروا الناس أنه لن يطلق سراح قادتهم الا اذا دفعوا غرامة قدرها مائتان وخمسون حقيبة من الكوريات .

قال رئيسهم « ان لم تدفعوا الغرامة فورا ، فسنأخذ قادتكم الى أومورو أمام الرجل الأبيض ، ونشنقهم » .

انتشرت هذه القصة بسرعة خلال القرى « وأضيف اليها فى الطريق . قال البعض ان الرجال قد أخذوا فعلا الى أومورو وسيشنقون فى اليوم التالى . وقال البعض ان أسرهم ستشنق أيضا . وقال أخرون ان الجند فى طريقهم فعلا ليطلقوا النار على أهل أوموفيا كما فعلوا فى آبامى .

كان القمر بدرا . لكن أصوات الأطفال لم تسمع تلك الليلة . كانت ساحة القرية حيث يجتمعون دائما للعب فى ضوء القمر خالية . لم تجتمع نساء أجودو داخل سورهم السرى ليتعلمن رقصة جديدة تعرض فيما بعد فى القرية . أما الشبان الذين يخرجون دائما فى ضوء القمر فلزموا أكواخهم تلك الليلة . لم تسمع أصواتهم الرجالية فى طرقات القرية وهم فى طريقهم لزيارة أصدقائهم وأحبائهم . بدت أوموفيا كحيوان منزعج ، أذنيه منتصبتان ، يشم السكون ، والهواء الذى ينذر بالشر ، ولا يعرف فى أى اتجاه يجرى .

قطع هذا السكون منادى القرية ، يقرع طبلته المدوية . دعا كل رجل فى أوموفيا من « أكاكانما » (١) فصاعدا الى اجتماع

(١) جماعة وطنية ينتمى اليها رجال طبقة اجتماعية معينة .

(المترجمة)

فى ساحة السوق بعد وجبة الأفطار . طاف بالقرية من أحد أطرافها الى الطرف الآخر وقطعها عرضا أيضا . لم يترك طريقا من الطرق الرئيسية .

كان فنـــاء أوكونكو كالبيت المهجور . كأن مـــاء باردا قد صب عليه . كانت أسرته كلهـــا موجودة ، ولكن الكل كانوا يتحدثون همسا . قطعت ابنته ازنما زيارة الثمانية وعشرين يوما الى أسرة زوجها المستقبل ، وعادت الى البيت عندما سمعت أن أباها قد سجن وسيشنق . ذهبت حالما وصلت الى البيت الى أوبيريكا لتسأل ما سيفعل رجال أوموفيا حيـــال هذا الأمر . لكن أوبيريكا لم يعد الى بيته منذ الصـــباح وظنت زوجـــاته أنه قد ذهب الى اجتماع سرى . واطمأنت ازنما الى أن شيئا يدبر .

اجتمع فى الصباح التالى لنداء منادى القرية ، رجال أوموفيا فى ساحة السوق وقرروا أن يجمعوا دون تأخير مائتين وخمسين حقيبة من النقوذ ليهدئوا الرجل الأبيض . لم يعرفوا أن خمسين حقيبة ستذهب الى رسل المحكمة الذين رفعوا الغرامة لهـــذا الغرض .

الفصل الرابع والعشرون

أطلق سراح أوكونكو وزملاؤه من المسجونين عندما دفعت الغرامة . تحدث اليهم حاكم المنطقة عن الملكة العظيمة ، وعن السلام والحكومة الرشيدة . لكن الرجال لم ينصتوا اليه . جلسوا ينظرون اليه والى مترجمه . أخيرا أعيدت اليهم حقائبهم وخناجرهم المغمدة وطلب اليهم الذهـاب الى بيوتهم . فقاموا وتركوا دار المحكمة . لم يكلموا أحدا ولم يتحدثوا فيما بينهم .

أقيمت دار المحكمة ، مثل الكنيسة ، على مسافة صغيرة من القرية . أما الطريق الذى يصلهما فيموج بالحياة لأنه يؤدى أيضا الى المجرى ، فيما بعد المحكمة . كان طريقا مكشوفا رمليا . لكن عندما تسقط الأمطار تنمو الأشجار بغزارة على جانبيه وتسد الطريق . أما الآن فكان الفصل فصل الجفاف .

قابل الرجال الستة فى طريقهم الى القرية نساء وأطفالا ذاهبين الى المجرى بقدور الماء . لكن نظرات الرجال كانت نظرات ثقيلة مخيفة لدرجة جعلت النساء والأطفال يمتنعون عن أن يقولوا لهم

« ننو » أى « مرحبا » ، بل يميلون الى جانب الطريق ليفسحوا لهم . انضم اليهم فى القرية جماعات صغيرة من الرجال الى أن أصبحوا جماعة كبيرة نوعا ما . ساروا صامتين . كلما وصل أحد الرجال الستة الى فنائه ، دخل ، يصحبه نفر من الجمع . كانت القرية تموج بالحركة بطريقة صامتة ، مكتومة .

أعدت ازنما شيئا من الطعام لوالدها حالما انتشرت الأنباء بأن الرجال الستةسيطلق سراحهم . أخذتهاليه فى كوخه الخاص. أكل بذهن شارد . لم يشعر بشهية للطعام ، وما أكل الا ليرضيها . اجتمع أقاربه الذكور وأصدقاؤه فى كوخه ، وحثه أوبيريكا على الأكل . لم يتكلم أحد غيره ، لكنهم لاحظوا الخطوط الطويلة على ظهر أوكونكو حيث غاص سوط حارس السجن فى لحمه .

وخرج منادى القرية مرة أخـرى فى الليل . قرع جرسه الحديدى وأعلن أن اجتماعا آخر سيعقد فى الصباح . عرف كل امرىء أن أوموفيا ستعبر أخيرا عن رأيها بشأن الأحداث الجارية.

لم ينم أوكونكو الا لماما تلك الليلة . اختلطت المرارة فى قلبه بنوع من الاهتمام الذى يشبه اهتمام الأطفال . قبل أن يأوى الى فراشه أنزل رداءه الحربى ، الذى لم يمسه منذ عودته من المنفى . هز ازاره المصنوع من الخوص المدخن وفحص غطاء رأسه العالى المصنوع من الريش ودرعه . وجدها جميعا بحالة مرضية .

فكروهو مستلق على سريره المصنوع من الخيزران فى المعاملة التى لقيها فى محكمة الرجل الأبيض وأقسم أن ينتقم . اذا قررت أوموفيا القتال ، سيكون كل شيء على ما يرام . أما اذا اختاروا أن يجبنوا فسيخرج هو وينتقم لنفسه . فكر فى حروب الماضى . كانت أنبلها جميعا الحرب ضد ايزيكى . كان أوكودو حيا فى تلك الأيام . غنى أوكودو أغنية الحرب بطريقة لا يباريه فيها رجل آخر . لم يكن محاربا ، لكن صوته كان يحول كل رجل الى أسد .

« لم يعد هناك رجال حقيقيون » تنهد أوكونكو وهو يذكر تلك الأيام . « لن ينسى أهل ايزيكى أبدا كيف ذبحناهم فى تلك الحرب . قتلنا اثنى عشر من رجالهم وقتلوا هم اثنين من رجالنا . وقبل نهاية أسبوع السوق الرابع كانوا يطلبون الصلح . كان الرجال فى تلك الأيام رجالا حقا .

وبينما هو يفكر فى هذه الأشياء سمع صوت الجرس النحاسى عن بعد . أنصت بحرص ، واستطاع بصعوبة أن يسمع صوت المنادي . لكنه كان خافتا جدا . استدار فى فراشه فآلمه ظهره . طحن أسنانه . اقترب المنادى شيئا فشيئا حتى مر بفناء أوكونكو .

فكر أوكونكو بمرارة « ان أعظم عقبة فى أوموفيا هو ذلك الجبان ايجونوافى . فلسانه المعسول يستطيع أن يحول النار الى رماد بارد . عندما يتكلم يسلب رجالنا قوة رجولتهم . لو تجاهلوا

حكمته النسائية منذ خمس سنوات ، لما أصبح هذا شـأننا . « طحن أسنانه . » فى الغد سيقول لهم ان آباءنا لم يحاربوا أبدا « حرب لوم » . اذا استمعوا اليه فسأتركهم وأرسم خطة أثأر بها لنفسى . »

وخفت صوت المنادى مرة أخرى ، وقللت المسافة من حدة جرسه الحديدى : تقلب أوكونكو من جنب الى الآخر مستشعرا نوعا من اللذة من الألم الذى يسـببه له ظهره . « ليحـدثهم ايجونواني عن « حرب اللوم » غدا وسأريهم ظهرى ورأسى . » وطحن أسنانه .

وما أن أشرقت الشمس حتى أخـذت سـاحة السـوق فى الامتلاء . كان أوبيريكا منتظرا فى كوخه عندما جاء أوكونكو وناداه . علق حقيبته المصنوعة من جلد الماعز وخنجره المغمد على كتفه وخرج لينضم اليه .كان كوخ أوبيريكا قريبا من الطريق ورأى كل رجل يمر الى ساحة السوق . لقد تبادل التحية مع كثيرين ممن مروا من قبل ذلك الصباح .

وعندما وصل أوكونكو وأوبيريكا الى مكان الاجتماع كان المكان قد اكتظ بالناس حتى أنه اذا رمى المرء حبة من الرمل فلن تجـد طريقهـا الى الأرض . وما زال عـدد أكبـر يأتى من كل ركن من القرى التسع . بعثت رؤية مثل هذه الكثرة القوية

الدفء الى قلب أوكونكو . لكنه كان يبحث عن رجل بالذات ، الرجل الذى كان يخشى لسانه ويحتقره بشده .

سأل أوبيريكا « أتستطيع أن تراه ؟ » .

« من ؟ »

قال « ايجونوانى » وعيناه تطوفان من أحد أركان ساحة السوق الضخمة الى الركن الآخر . جلس معظم الرجال على جلود الماعز على الأرض . وجلس بعضهم على مقاعد خشبية أحضروها معهم .

قال أوبيريكا « لا » وهو يلقى بنظرة على الجمع « بلى ، ها هو ذا ، تحت شجرة القطن الحرير . أتخشى أن يقنعنا بألا نحارب ؟ » .

« أخشى ! لا يهمنى ما يفعل بكم . انى أحتقره وأولئك الذين ينصتون اليه . سأحارب وحدى اذا أردت » .

كانا يتحدثان بأعلى صوتيهما لأن الجميع كانوا يتحدثون ، والصوت كصوت سوق عظيم .

فكر أوكونكو « سأنتظر حتى ينتهى من الكلام ثم أتكلم أنا . »

سأل أوبيريكا بعد فترة « لكن كيف تعلم أنه سيعارض فكرة الحرب ؟ » .

قال أوكونكو « لأنى أعلم أنه جبان . » لم يسمع أوبيريكا بقية ما قال لأنه فى تلك اللحظة لمس شخص ما كتفه من الخلف فاستدار ليصافح خمسة أو ستة من الأصدقاء ويتبادل التحية معهم . لم يستدر أوكونكو بالرغم من أنه عرف أصواتهم . لم يشعر بالرغبة فى تبادل التحية . لكن أحد الرجال لمسه وسأله عن أهل بيته .

أجاب دون اهتمام « انهم بخير » .

كان أول رجل يتكلم لأوموفيا فى ذلك الصباح هو أوكيكا ، أحد الستة الذين سجنوا . كان أوكيكا رجلا عظيما وخطيبا مفوها لكن صوته لم يكن الصوت المدوى الذى يجب أن يستخدمه المتكلم الأول ليسود السكون فى مجلس العشيرة . وكان صوت أونيكا من هذا النوع ، لذا طلب اليه أن يحيى أوموفيا قبل أن يبدأ أوكيكا الكلام .

قال بصوت كالرعد « يا أهل أوموفيا » ورفع ذراعه الأيسر ودفع الهواء بيده المبسوطة .

صاحت أوموفيا « يا ! »

أرعد مرة أخرى « يا أهل أوموفيا ! » وأخرى وأخرى متجها وجهة جديدة فى كل مرة . وأجاب الجمع « يا . »

ساد الصمت على الفور وكأن ماء باردا قد صب على لهب مزمجر .

هب أوكيكا واقفاعلى قدميه وحيا رجال عشيرته أيضا أربع مرات . ثم بدأ فى الكلام :

« تعرفون جميعكم لماذا أتينا الى هنـــا بدلا من أن نبنى مخازننا أو نرمم أكواخنا ، وبدلا من أن ننظم أفنيتنا . اعتاد والدى أن يقول لى « كلما رأيت ضفدعا يقفز فى وضح النهار ، فاعلم أن شيئا يهدد حياته » . عندما رأيتكم جميعا تتدفقون الى هذا الاجتماع من جميع أركان عشيرتنا فى هذه الساعة المبكرة من الصباح ، علمت أن شيئا يتهدد حياتنا » . توقف لحظة وجيزة ثم بدأ مرة أخرى :

« ان جميع آلهتنا تبكى . يبكى ايد يميلى . يبكى أوجوجو . يبكى أجبالا ، وجميع الآخـــرين . يبكى آباؤنا المـــوتى بسبب التدنيس المعيب الذى يعانونه والمكرهة التى رأيناها جميعـــا بعيوننا . » توقف مرة أخرى ليهدىء صوته المرتعش .

« ان هذا اجتماع عظيم . لا تستطيع عشيرة أن تفخر بأعداد أعظم أو شجاعة أعظم . لكن هل نحن جميعا هنا ؟ انى أسألكم . هل جميع أبناء أوموفيا معنا هنا ؟ » سرت فى الجمع همهمة عميقة .

قال « ليسوا جميعا هنا . لقد كسروا العشيرة ومضوا كل فى طريقه . أما نحن الموجودين هنا هذا الصباح فقد بقينا مخلصين لآبائنا ، لكن اخوتنا قد هجرونا وانضموا الى الغريب ليدنسوا أرض آبائهم . اذا حاربنا الغريب فسنضرب اخوتنا وقد نريق دم أحد رجال القبيلة . لكن الواجب يقضى علينا أن نفعل ذلك . لم يخطر ببال آبائنا شىء من هذا القبيل ، لم يقتلوا اخوتهم أبدا لكن لم يأت اليهم رجل أبيض . وهكذا يجب أن نفعل ما لم يفعله آباؤنا قط . سئل أنينكى الطائر لماذا لا تكف عن الطيران ؟ فأجاب وتعلم الرجال اطلاق النار دون أن يخطئوا الهدف وتعلمت أنا الطيران دون أن أحط على الغصن . لا بد أن نقتلع هذا الشر . فاذا أخذ اخوتنا جانب الشر فيجب علينا أن نقتلهم أيضا . ويجب علينا أن نفعل ذلك الآن . يجب أن ننزح هذا الماء الآن ولم يعل عن الركبة ... » .

وعند هذه النطقة حدثت حركة مفاجئة فى الجمع واتجهت جميع العيون وجهة واحدة . كان بالطريق الذى يؤدى من ساحة السوق الى محكمة الرجل الأبيض ، والى المجرى فيما وراءها ، انحناء شديد ، وهكذا لم ير أحد أن خمسة من رسل المحكمة يقتربون ، حتى مروا بالمنحنى وأصبحوا على بعد بضعه خطوات من حافة الجمع . كان أوكونكو يجلس عند الحافة .

هب واقفا حالما عرف القادمين . واجه رئيس الرسل وهو

ينتفض حقدا ولا يستطيع النطق بكلمة . كان الرجل جريئا ، فثبت فى مكانه واصطف رجاله الأربعة من خلفه .

فى تلك اللحظة الوجيزة بدا العالم وكأنه يقف جامدا ، ينتظر . خيم صمت تام . اندمج رجال أوموفيا فى الخلفية الصامتة من الأشجار والنباتات المتسلقة ، العملاقة وهم ينتظرون .

مزق رئيس السعاة السكون المخيم كالسحر ، وأمره « دعنى أمر ! » « ماذا تريد هنا ؟ »

« لقد أمر الرجل الأبيض الذى تعرفون قوته جيدا أن ينفض الاجتماع » .

فى ومضة سحب أوكونكو خنجره . انحنى الرجل ليتفادى الضربة . لكن دون جدوى . هوى خنجر أوكونكو مرتين ورقدت رأس الرجل الى جانب جسمه الذى يغطيه زيه الرسمى .

دبت فى الخلفية المنتظرة حياة متلاطمة . وانفض الاجتماع . وقف أوكونكو ينظر الى الرجل الميت . علم أن أوموفيا لن تحارب . علم ذلك لأنهم تركوا الرسل الآخرين يفلتون . وانطلقوا فى ضجيج وجلبة بدلا من أن ينطلقوا للعمل . لمح ذعرا فى الجلبة . سمع أصواتا تسأل « لماذا فعل ذلك ؟ » .

مسح خنجره على الرمل ومضى .

الفصل الخامس والعشرون

عندما وصـــل حاكم المنطقة الى فناء أوكونكو على رأس جماعة مسلحة من الجند ورسل المحكمة وجد جمعا صغيرا من الرجال يجلسون متعبين فى كوخ رب الأسرة . أمرهم بالخروج، فأطاعوه دون همسة واحدة .

سأل عن طريق مترجمه « من منكم يدعى أوكونكو ؟ »

أجاب أوبيريكا « هو ليس هنا ! »

غضب الحاكم واحمر وجهه . حذر الرجال بأنهم ان لم يأتوا حالا بأوكونكو فسيسجنهم جميعا . همس الرجال فيما بينهم ، وتكلم أوبيريكا مرة أخرى .

نستطيع أن نأخذك الى حيث هو ، وربما يساعدنا رجالك . »

لم يفهم الحاكم ما قصده أوبيريكا عندما قال « ربما يساعدنا رجالك . » بدا له أن حب هؤلاء الناس للاطناب من أكثر عاداتهم اثارة للغضب .

تقدم أوبيريكا ومعه خمسة أو ستة من الرجال . تبعهم الحاكم ورجاله ، يحملون أسلحتهم النارية فى وضع الاستعداد . حذر الحاكم أوبيريكا بأنه اذا حاول هو أو رجاله أن يخدعوه فسيطلق عليهم النار . وهكذا مضوا .

كانت هناك غابة صغيرة خلف فناء أوكونكو . أما المدخل الوحيد الى هذه الغابة ففتحة صغيرة مستديرة فى الجدار المصنوع من التربة الحمراء يمر من خلاله الدجاج فى بحثه الذى لا ينتهى عن الطعام . لم تكن الفتحة تتسع لمرور رجل . قاد أوبيريكا الحاكم ورجاله الى هذه الغابة . طافوا حول الفناء وهم يسيرون بالقرب من الحائط . كان كل ما يصدر عنهم من صوت هو وقع أقدامهم وهى تطأ الأوراق الجافة .

ثم جاءوا الى الشجرة التى تدلت منها جثة أوكونكو ، وتوقفوا تماما .

قال أوبيريكا « لعل رجالك يستطيعون مساعدتنا فى انزاله ودفنه . لقد أرسلنا فى طلب أغراب من قرية أخرى ليقوموا بذلك من أجلنا ، لكنهم قد يتأخرون فى الوصول . »

تغير حاكم المنطقة فى الحال . استبدل شخصية الحاكم الحازم بشخصية دارس العادات البدائية .

سأل « لماذا لا تنزلونه أنتم بأنفسكم ؟ »

قال أحد الرجال « ان هذا يتنافى مع عاداتنا . فقتل الشخص لنفسه مكرهة . يعد ذلك معصية ضد « الأرض » ، ولا يدفن الرجل الذى يرتكبها أهل عشيرته . فجثته شريرة ، لا يلمسها الا الأغراب . وهذا هو السبب فى أننا نطلب من رجالك أن ينزلوه لأنهم أغراب .

سأل الحاكم « هل ستقومون بدفنه كأى رجل آخر ؟ » .

« نحن لا نستطيع دفنه . لا يستطيع ذلك سوى أغراب . سندفع لرجالك أجرهم مقابل القيام بذلك . وبعد أن يدفن ، عندئذ نؤدى واجبنا نحوه . سنقدم الضحايا لتطهير الأرض التى تدنست . »

استدار أوبيريكا ، الذى كان يحدق بثبات فى جثة صديقه المدلاة ، فجأة الى الحاكم وقال بوحشية « كان ذلك الرجل من أعظم رجال أوموفيا . لقد دفعتموه ليقتل نفسه ، وسيدفن الآن ككلب ... » لم يستطع أن يزد على ذلك . ارتعش صوته وخنقته العبرات .

صاح أحد الرسل « صه ! » دون أدنى ضرورة .

أمر الحاكم رئيس الرسل « انزلوا الجثة واحضروها وجميع هؤلاء الرجال الى الساحة » .

قال الرسول وهو يؤدى التحية « نعم ، يا سيدى » .

مضى الحاكم آخذا معه ثلاثة أو أربعة من الجنود . لقد تعلم أثناء السنوات العديدة التى كدح فيها ليوصل الحضارة الى أجزاء افريقيا المختلفة عددا من الأشياء ، أحدها أنه لا يجب أن يشرف الحاكم أبدا على مثل هذه التفاصيل التى لا تليق بكرامته كقطع الحبل الذى يتدلى منه رجل مشنوق من شجرة . فمثل هذه الاهتمامات تعطى الوطنيين فكرة سيئة عنه . سيؤكد هذه النقطة فى الكتاب الذى ينوى كتابته . فكر فى ذلك الكتاب أثناء سيره عائدا الى الساحة . يأتيه كل يوم عادة جديدة . فقصة هذا الرجل الذى قتل رسولا ثم شنق نفسه ستكون مادة شيقة للقراءة . بوسع المرء أن يكتب فصلا كاملا تقريبا عنه . ربما ليس فصلا كاملا ، لكن فقرة معقولة ، على أية حال . كان هناك الكثير من الأشياء الأخرى يمكن للمرء أن يضمنها هذا الكتاب ، ولا بد أن يكون المرء صارما فى اختصار التفاصيل . لقد اختار عنوان الكتاب من قبل ، بعد كثير من التفكير : « توطيد السلام بين قبائل النيجر الأسفل البدائية » .

فهـــرس

الموضوع	الصفحة

الجزء الثاني

الجزء الثالث

المطبعة الثقافية

رقم الايداع بدار الكتب ٣٦٩٨ / ١٩٧١


Bibliotheca Alexandrina
0707289
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر